جامعة الـيرمـوك

كلية الشريــــــعة والدراسات الإسلامية

قسم أصول الدين

رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بعنوان

"القيم الحضارية في القصة القرآنية "

دراسة موضوعية

Civilized values in the Holy Quranic Story

Subjective study

تقديم الطالب :خالد كمال الإبراهيم

٢٠٠٦٢٥٠٠٠٣

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد سرحان

٢٠١٣-٢٠١٢

أطروحة دكتوراه في تفسير وعلوم القرآن بعنوان

(القيم الحضارية في القصة القرآنية)

دراسة موضوعية

Civilized Values in the Holy Quranic Story

Subjective study

إعداد الطالب

خالد كمال الإبراهيم

٢٠٠٦٢٥٠٠٠٣

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في تخصص التفسير وعلوم القرآن في جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وافق عليها

أ.د. محمد أحمد سرحان .... مشرفاً ورئيساً

أستاذ التفسير وعلومه- كلية الشريعة ، جامعة اليرموك

أ.د. عبد الله أبو السعود بدر .... عضواً

أستاذ التفسير وعلومه- كلية الشريعة ، جامعة اليرموك

أ.د. نايل ممدوح أبو زيد .... عضواً

أستاذ التفسير- كلية الشريعة ، جامعة مؤتة

د. يحيى ضاحي شطناوي .... عضواً

أستاذ مشارك في القرآن وعلومه ، جامعة اليرموك

د. محمد أحمد الجمل .... عضواً

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن ، جامعة اليرموك

تاريخ مناقشة الرسالة ٢٠١٣/٥/٢٣م

الإهداء

إلى كل مسلم غيور على دينه، يسعى لإعادة المجد والرفعة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وللحضارة الإسلامية الخالدة.

وإلى والدي العزيز وأمي الغالية وزوجتي الفاضلة

أهدي هذه الرسالة

شكر وتقدير

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ النمل١٩

أتقدم بالشكر لكل من أسهم في إتمام هذه الرسالة ابتداء بأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد أحمد سرحان ، وكل الأئمة والعلماء الذين أمدوني بالمعلومة النافعة والحكمة الصائبة والفهم الواضح لكلام الله الخالد، وإلى كل من أسهم بالنصح والمشورة

لكم مني جميعا الشكر والعرفان

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الملخص

القيم الحضارية في القصة القرآنية

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز أهم القيم المعنوية والمادية التي تميز الحضارات الإيمانية وغير الإيمانية من خلال أحداث القصة القرآنية.

واتبع الباحث فيها المنهج الاستقرائي وذلك من خلال جمع الآيات التي تتحدث عن كل قيمة، كما واتبعت المنهج التحليلي في استخراج كل ما له علاقة بالقيم الحضارية المادية والمعنوية ، واستخدمت المنهج المقارن في الموازنة بين القيم في المجتمعات الإيمانية وما يناقضها في المجتمعات المنحرفة عن منهج الله تعالى .

تضمنت هذه الرسالة فصلا تمهيديا وثلاثة فصول ، تحدث الفصل التمهيدي عن مفهوم القيم والحضارة وما يرتبط بها من مفاهيم كالثقافة والمدنية، كما تحدث عن مفهوم القصة القرآنية وأهدافها وما يميزها عن القصة الإنسانية، وتناول الفصل الأول القيم الحضارية في مجتمعات العلم والإيمان، وآثرت تقسيم القيم إلى قيم معنوية وقيم مادية ، مستشهدا على كل قيمة بلقطات من مشاهد القصص القرآني مع تحليل مدلول الآيات من خلال الرجوع إلى كتب التفسير والمؤلفات التي تناولت القصة القرآنية بالبحث والتحليل، واتبعت الأسلوب نفسه في الفصل الثاني، لكن البحث تناول الحضارات والمجتمعات التي غلب عليها طابع الكفر والطغيان والاستبداد.

أما الفصل الثالث فكان مقارنة بين الملامح الأساسية في مجتمعات المسلمين وغير المسلمين في واقعنا المعاصر وبين تلك الملامح التي بحثتها من خلال القصة القرآنية، وأنهيت الفصل بمبحث تحدثت فيه عن آثار وجود القيم وآثار غيابها على سعادة البشرية أو شقائها، مضمنا المبحث أهم السنن الكونية التي تحكم تاريخ الحضارات القديمة والتي تخضع لها الحضارات الحالية باعتبار هذه القوانين أبرز ما يميز دراسة الفكر الإسلامي للتاريخ الإنساني.

وخلصت الدراسة إلى أهمية العناية بالقصة القرآنية باعتبارها المرجع التاريخي الصادق للأمم السابقة والرافد الذي لا يحابي طرفا على حساب آخر باعتبارها كلام الحق جلا وعلا ، وأهمية المبادرة الإيجابية من جميع المخلصين من أبناء الأمة كل في مكانه ومنصبه للعمل على إعادة المجد والرفعة لأمتنا التي قال الله فيها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾آل عمران١١٠صدق الله العظيم .

Abstract

Civilized values in the Holy Quranic Story

This study aimed at highlighting the most important spiritual and materialistic values, which distinguish the belief civilizations and non-belief civilizations through the events of the Holy Quranic Story.

The researcher used the deduction approach though collecting the verses (Ayat) that deal with each value. Also, the study adopted the analytic approach in finding out all what is related to the civilized values both the materialistic and the spiritual ones.

The study also used the comparative approach in an attempt to find a balance between the values in the belief communities and what go against in the violated communities from Al-Mighty God approach.

In addition, the study included an introductory chapter and other three chapters. The introductory chapter discussed the concept of values and civilization and what is related to it concerning culture and modernization. Also, the chapter discussed the concept of the Holy Quranic story and its objectives and what distinguishes it from the human story.

The first chapter discussed the civilized values in communities of science and belief. The chapter favors dividing values into spiritual and materialistic values, proving that each value has a quotation from the views from the Holy Quranic story.

The study also analyzed the indication of Al-Ayat through referring to the interpretation references which dealt with the Holy Quranic story through research and analysis. The study used the same method in the second chapter. But the research dealt with civilizations and societies (Communities) which can be described as a theist and tyrant ones.

The third chapter compared between the basic characteristics in Muslims communities and non-Muslims ones in our modern reality. And between the characteristics which were discussed through the Holy Quranic story. The study ended the chapter by talking about the effects of the existence of values and the effects of its non-existence on helping people become either happy or sad.

The study included the most important global (universal) laws which govern the history of ancient civilizations which control the recent civilizations as these rules and laws distinguish studying the Islamic thoughts of the human history.

The study summed up the importance of taking care of these laws in the Holy Quranic story since it is considered to be the true historical reference of the previous nations. Also, it is considered as the source of reality as it is the speech of our Al-Mighty God.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ،ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على رسول الله الداعي إلى الخير والهدى في مجتمع تسوده الرحمة وتظله حضارة القرآن الكريم وبعد...

فإن الناظر في القرآن الكريم يجد أن القصة القرآنية بلغت فيه الثلث أو ما يزيد، ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم إلا وتعرض قصة تاريخية تتصارع فيها القوى، وتتنافس الطاقات في تيار الحياة ، ثم تركز فيها على الاتعاظ والاعتبار.

والتاريخ- تاريخ أي أمة – سجل أحداث، منه تتبين الأمة عوامل النجاح، وفيه تلتمس أسباب الهزائم ، وأمة بلا تاريخ أمة بلا مستقبل، ومن لم يتعظ بالتاريخ صفعه التاريخ، ولئن كان الوضع الحالي للمسلمين لا يسر، فقد ضاع ملكهم وسلبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، ولا يزالون يذوقون الويل منهم، ففي تاريخ كل أمة هنات وهزائم، ولكن توجد هناك حركات أصيلة قد تحقق نتائج ضخمة، فتعيد الأمة إلى سابق عهدها إلى العز والمجد.

من هنا جاءت هذه الدراسة بعنوان :

"**القيم الحضارية في القصة القرآنية دراسة موضوعية** "

راجيا من الله صدق النية والقبول .

أهمية الموضوع :

ما أحوج المسلمين اليوم إلى العودة لكتاب ربهم ليسترجعوا ثقتهم بأنفسهم ليكون لهم حاضرهم ومستقبلهم، وبخاصة في هذه الفترة التي أخذ الغزو الثقافي فيها يعمل عمله في عقول الشباب بما يصور لهم من حضارة الغرب ويزين من ثقافته، وكل ذلك جدير بأن يعصف بالقيم الإسلامية في نفوس الشباب وفي عقوله، من هنا كانت الكتابة في موضوع القيم والحضارات وسبب بقائها أو زوالها حاجة ملحة، تظهر أهميتها فيما يلي:

أولا: هذه الدراسة ستدعم الثقة في نفوس الشباب المسلم بحضارة القرآن وقيمه الباقية الخالدة، فهي تنبه المسلمين إلى واقعهم الذي اختاره الله لهم من إرشاد البشرية وهداية العالم وقيادته إلى الخير ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾آل عمران١١٠فالمسلم عزيز من غير كبر، واثق بالله من غير اغترار.

ثانيا: تعطي هذه الدراسة تصورا عن تلك الحضارات التي عاشتها البشرية في شتى مناحي حياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية والمادية ...الخ

لتبين الفرق بين أمم عاشت في ظل الإيمان والعدل والإحسان ، وبين مجتمعات اكتوت بحرارة الظلم والجور والطغيان .

ثالثا: بيان السنة الإلهية في الأمم والمجتمعات ،فهذا القانون يسري على كل البشر لا يحابي أمة على أمة ،سواء أكانت في الماضي الغابر أم في الزمن الحاضر ، يقول تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾الأحزاب٦٢

رابعا: تأتي أهمية هذه الدراسة من خلال ربطها بواقع المسلمين ، فهي لا تقوم على مجرد الاستثارة الوجدانية أو الدينية فحسب ، بل تعرض الوقائع التاريخية وملابساتها عرضا يحتكم إلى الحق والواقع والمنطق والتاريخ ، يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾الروم٩.

خامسا: هذه الدراسة دعوة لكل مسلم غيور على دينه وأمته للعمل قبل فوات الأوان ،فالمسلم لا يغتر بكثرة الباطل ، فالكثرة غالبا مجافية للحق ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾غافر٦١ ويقول تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾الأنعام١١٦ والقلة غالبا مع الحق ، يقول تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾سبأ١٣ ويقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾البقرة٢٤٩ ، فالمسلم يستمد همته وعزيمته من الحق الذي يدعو الناس إليه ،ولا يغتر بكثرة الزبد والانحراف عن دين الله ،ويحتسب أجره عند الله تعالى .

سادسا: حاجة المكتبة الإسلامية لوجود دراسة تجمع الموضوع وتبرزه من جميع جوانبه وملامحه بهذه الطريقة في التقسيم.

مشكلة البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان علاقة القصة القرآنية بالقيم الحضارية عند الأمم والشعوب التي ذكرت في القرآن الكريم ،وهذا البحث رؤية جديدة لقصص القرآن الكريم سنعيش من خلالها مع الأمم والمجتمعات في القصة القرآنية، وسنسقط ما حدث لكل أمة على واقعنا المعاصر لنستخلص منه العبرة والعظة، ثم نتوج هذا الإسقاط بالفهم الصحيح من خلال ربط القيم الحضارية بشتى مناحي الحياة الاجتماعية

والعلمية والاقتصادية والدينية ،ونعمل بنتائجها بما يخدم مجتمعاتنا ويرضي ربنا القائل في محكم التنزيل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾آل عمران١٣.

ويتفرع عن الهدف الرئيسي للبحث الإجابة على أسئلة عديدة منها:

*ما مفهوم كل من القيم، الحضارة ، القصة القرآنية ؟

*ما معالم القيم الحضارية في المجتمعات المسلمة كما يصورها القصص القرآني ؟

*ما معالم القيم الحضارية في مجتمعات غير المسلمين كما تصوره القصة القرآنية ؟

*ما واقع القيم الحضارية في مجتمعاتنا المعاصرة في ضوء القصص القرآني؟

أهداف الدراسة:

١-إن الفساد الموجود في مجتمعاتنا اليوم لا يصلحه إلا ما أصلح مجتمعات الأمس ،فإذا أردنا أن نأخذ مكاننا من جديد في قيادة الإنسانية فلا بد لدعاة الإسلام من الإيمان برسالته إيمانا يخالط شغاف القلب ، واعتزازا بما جاء به من تشريعات ومبادئ وقيم، ولا يتم ذلك إلا بالعمل الصالح في كل مجالات الحياة .

٢-تقديم رؤية قرآنية واضحة تجاه القيم الحضارية قديما وحديثا، وذلك باعتبار أن كل التقدم الحاصل في العلم والتكنولوجيا والبناء والاختراعات هو وسيلة وليس غاية ، فغاية الإسلام إخراج أجيال تعبد الله تعالى بالمعنى الشامل للعبادة ،خلافا لنظرة الآخرين لهذا التقدم الحضاري باعتباره هدفا بحد ذاته .

٣-تحذير المسلمين من الانزلاق خلف البريق الخادع لقيم وحضارة الآخر ،فالمسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري في أي اتجاه سار، بل له رسالة عظيمة تتمثل في قيادة العالم والبشرية وهو مسئول كل المسؤولية عن هذا العالم .

٤-من أهداف الأطروحة مواجهة ذلك الفكر الداعي إلى التقوقع والانكماش بدعوى فساد الزمان، فليس للمسلم أن يستسلم ويخضع إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع ، بل عليه بالثورة والنزال والصراع حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، يقول تعالى: ﴿ واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ ١٦٣ ﴾ وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ ١٦٤ ﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿ ١٦٥ ﴾ الأعراف.

الدراسات السابقة

أولا :دراسة بعنوان القيم التربوية في القصص القرآني / سيد محمد طهطاوي.

تناول الباحث في دراسته القيم التربوية من خلال القصص القرآني، وتوزعت هذه الدراسة على خمسة فصول .

تناول الفصل الأول مفاهيم القيمة من المنظور اللغوي والتربوي والاجتماعي ومن منظور علم النفس وأهميتها في التربية المعاصرة، ثم تناول القصة في القرآن وعلاقتها بالقيم الإسلامية وأهميتها كوسيلة تربوية ناجحة في غرس هذه القيم في نفوس النشء .

وهذا الفصل يمثل مدخلا تمهيديا يمكن من خلاله التعرف على مفاهيم القيمة وخصائصها والقيم الإسلامية وكيف يمكن غرسها من خلال القصص القرآني باعتباره أحد طرق التربية وعليه فإن هذا الفصل تدور عليه بقية الفصول الثاني والثالث والرابع من الدراسة .

واستعرض الباحث في الفصل الثاني مفهوم القصة في القرآن الكريم ثم مفهوم القصة بصفة عامة، ثم بين طريقة القرآن في توزيع العناصر القصصية وكيف كان هذا التوزيع للعناصر يتبع الظروف والمناسبات ،ثم بين منهج القرآن الكريم في رسم الأشخاص وتصوير الأحداث ،وإقامة الحوار ،وكيف كان يجعل العنصر الواحد من الأحداث والأشخاص محورا تدور حوله أكثر من قصة وذلك لغرس القيم السامية في نفوس الأفراد والجماعات من خلال تلك العناصر، ثم يعرض الباحث عرضا سريعا لأهم سمات وخصائص القصة القرآنية التي تفرد بها وتميز عن غيرها من سائر أنواع القصص الأخرى .

أما الفصل الثالث فتناول القيم التربوية في القصص القرآني وفي هذا الفصل قام الباحث بتقسيم القيم إلى ستة ميادين، وجدانية وأخلاقية وعقلية واجتماعية وجسمية وجمالية ،ثم قام باستخراج هذه القيم من

القصص القرآني، واستعرض أهم الانعكاسات التربوية لهذه القيم ودورها في تحقيق هدف التربية الإسلامية ، وهو بناء الإنسان المسلم المتكامل الشخصية .

وبين الباحث أن القيم الوجدانية هي التي تمثل قمة القيم وهي التي تنبع منها بقية قيم المسلم، أما بقية القيم فهي متداخلة مع بعضها البعض ولا يمكن الفصل بينها.

وتناول الفصل الرابع وسائل التربية الإسلامية وأساليبها ومدى ما تسهم به في غرس القيم التربوية وذلك من خلال القصص القرآني ، فالقصص القرآني يتضمن أساليب وطرقا للتربية الإسلامية ،وهذه الأساليب ترتبط بالواقع الحي للتربية الإسلامية كما وضع إطارها القرآن الكريم .

والطريقة هنا ليس المقصود بها طريقة واحدة بالمعنى اللفظي ، لكنها عبارة عن عدة طرق تتكامل مع بعضها البعض من أجل غرس القيم السامية التي أتى بها الدين الإسلامي وذلك من خلال القصص القرآني .

أما الفصل الأخير فقام الباحث فيه بتفسير النتائج التي توصل إليها البحث وختمه ببعض التوصيات .

ثانيا :بحث بعنوان القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ / زكريا علي الخضر .

هدف الباحث من خلالها إلى بيان القيم الحضارية التي تضمنتها قصة سيدنا سليمان من خلال سورة النمل، حيث استنتج الباحث أبرز القيم الحضارية والدينية والاجتماعية والسياسية والعلمية وعمل على تحليلها وترتيبها وفق آيات السورة القرآنية ، وتوزعت دراسته إلى مقدمة وستة مباحث جاءت على النحو التالي: المبحث الأول: تحدث فيه الباحث عن فضيلة العلم والإعلام به مشيرا إلى أن تصرف العالم

يكون برد الفضل إلى واهبه سبحانه وتعالى ، وبالعلم فضل العلماء على سائر الناس وعليه فيجب استثماره لما فيه تحقيق مصلحة الإنسان وعمارة الكون ..

المبحث الثاني: بعنوان إدارة الملك وحسن التصرف في سياسته ، وأشار فيه إلى مسائل محورية كبيان أن غاية الملك هي الصلاح والإصلاح ، وهذا لا يتم إلا من خلال نظام محكم يشمل النسيج الوظيفي والإداري من خلال حشد القوى المادية والطاقات الفكرية وأهمية الاختصاص باعتباره عاملا من عوامل نجاح الحكم وديمومته .

المبحث الثالث: بعنوان أخلاقيات الحوار وأدبياته مشيرا فيه إلى الحوار الذي دار بين سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد ، فاستخلص مجموعة من القيم أن السفر لا يكون إلا لأمر نافع ،وأهمية الإعلام ودوره في الارتقاء الحضاري ،وأشار إلى وجوب إخضاع المعلومات إلى الفحص والتدقيق .

المبحث الرابع: تحدث فيه عن نظام المراسلات والمخاطبات وأدبها ، وأشار فيه إلى عدة قيم سياسية مثل تفعيل مبدأ التشاور ، وإشراك المسئولين في صنع القرار ، وأن تكون الغاية من هذه الاجتماعات الإنتاج والعمل بالتوصيات ، كما استنتج مجموعة قيم اقتصادية وعلمية مثل الجرأة في عرض الرأي واتخاذ القرار مع التحلي بآداب الخطاب والمناقشات الهادئة والبناءة ، وفي نهاية المبحث أشار إلى أهم لصفات القيادية الناجحة في التعامل مع الأزمات السياسية والقرارات المصيرية ، مثل تقديم الخيار الدبلوماسي ، وتفعيل الخبرات والتجارب السابقة ، ومنطق الحكمة أمام القوة والعقل أمام الاندفاع فالحل السلمي يكون بديلا عن خيار الحرب حقنا للدماء ...الخ المبحث الخامس: قيمة الالتزام بالمبدأ والاتزان في الموقف ، وأشار فيه إلى سيدنا سليمان كنموذج للملك الصالح الذي يملك معيارا في تفاضل الأشياء وتمايزها وهذا المعيار متمثل في تحقيق الإيمان والدعوة إلى الحق وعليه فلا بد من الإعداد الصحيح للقوة التي تدافع عن الحق .

المبحث السادس: القوة العلمية وبناء العمران والملامح الحضارية فيهما، حيث توصل إلى أبرز القيم العلمية باعتبار العلم أساس التفوق والنهوض ، كما أشار إلى القيم المادية فذكر أن البناء العمراني ينبغي ألا يكون على حساب البناء الإنساني ، وختم البحث بأبرز النتائج والتوصيات .

والبحث على ما فيه من فوائد إلا أنه محصور في قصة سليمان عليه السلام .

ثالثا : دراسة بعنوان قيم حضارية في القرآن الكريم/ توفيق محمد سبع .

يأتي هذا الكتاب في جزأين، تناول الجزء الأول منه دراسة وتحليل عالم ما قبل القرآن والذي يعتبر كمقدمة وتمهيد للحضارة القرآنية ، فكان الباب الأول في معنى الحضارة والثقافة والبداوة .. ثم تحدث في الباب الثاني عن الديانات التي كانت سائدة قبل القرآن الكريم وعلى وجه الخصوص اليهودية والنصرانية .

أما الباب الثالث والذي له صلة بموضوع هذه الأطروحة فكان بعنوان "حضارات قديمة وصفها القرآن الكريم "حيث قام بتحليل بعض الحضارات التي ذكرت في القرآن الكريم، ووقف معها وقفات تأملية لفهم نشأة تلك الحضارات وتطورها ثم ضمورها واختفائها .

ومن التوصيات التي نبه إليها د توفيق عند تناوله لهذا الباب ، أن هذه الآيات بحاجة إلى دراسة وبحث حيث قال :"وجدير بالذكر أن نشيد بهذه الآيات الموضوعية التي تحمل إلينا التاريخ السحيق في أجمل صياغة وأروع تعبير ...إلى أن قال :وإشادتنا بهذه الآيات تعني أن تصبح بالذات محورا لدراسة موضوعية تتشابك فيها معارف شتى وتتشاحن فيها علوم كثيرة ثم تستنبط منها العبر والعظات ."

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فكان دراسة لقيم القرآن الكريم حيث أفرد بابا للحديث عن خصائص الحضارة القرآنية ،وبابا آخر لقيم الحضارة القرآنية ،وأفرد الباب الأخير للحديث عن المد والجزر الذي تتعرض له حضارة القرآن خاتما إياه بالتوصيات والنتائج .

رابعا: دراسة بعنوان القيم التربوية في القصص القرآني في قصة سيدنا يوسف ،وهي رسالة ماجستير للطالب سعيد عبد الحميد السعدي .

تناول الباحث في دراسته أثر القيم في كل من الفرد والمجتمع وأثرها التربوي من خلال قصة يوسف عليه السلام ،حيث قام بتقسيم القيم إلى ستة ميادين القيم الأخلاقية والاجتماعية والذاتية والجسمانية والترويحية والاقتصادية ،ثم قام بتحليل قصة سيدنا يوسف بناء على هذا التقسيم ، وخلصت الدراسة إلى أن أهم مصدر للقيم الإسلامية هو القرآن والقصص القرآني بصفة خاصة .

إلا أن هذه الدراسة اقتصرت على الجانب التربوي كما هو ظاهر من العنوان ، ولم تتناول هذا الجانب إلا من خلال قصة واحدة هي قصة سيدنا يوسف عليه السلام .

خامسا: دراسات تحدثت عن القيم الحضارية في الإسلام ، وهذه الدراسات على كثرتها إلا أنها لم تتحدث عن اقصة القرآنية والحضارات المذكورة فيها ،ـ أو أنها أشارت إليها إشارات عابرة ، وأذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

القيم الحضارية في رسالة الإسلام للدكتور محمد فتحي عثمان .

قيم الحياة في القرآن الكريم محمد شديد

القيم الروحية في الإسلام أحمد فؤاد

الحضارة الإسلامية لأبي الأعلى المودودي

من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي

الإسلام في المعترك الحضاري لعمر بهاء الدين

منهجية البحث

١-المنهج الاستقرائي : ويقوم على جمع آيات الموضوع في القرآن الكريم واستقراء المواطن التي ذكرت فيها قصص الأمم السابقة .

٢-المنهج التحليلي : ويقوم على تحليل النصوص القرآنية واستخراج كل ماله علاقة بالقيم الحضارية على اختلاف تقسيماتها ومن ثم تبويبها حسب العناوين المناسبة ، ثم الخروج بالنتائج والخلاصات .

٣- المنهج المقارن :ويقوم على المقارنة بين القيم في المجتمعات الإيمانية والمجتمعات التي حادت عن منهج الله وبيان ما بينها من اتفاق وافتراق وإسقاط هذه النتائج على واقع مجتمعات المسلمين .

الفصل التمهيدي

مفهوم القيم والحضارة والقصة القرآنية

<u>المبحث الأول</u>

مفهوم القيم والحضارة

المطلب الأول: مفهوم القيم

القيمة لغة: واحدة القيم، وقومت الشيء فهو قويم أي مستقيم[1].

وفي المفردات للراغب: "دينا قيما" أي ثابتا مقوّما لأمور معاشهم ومعادهم، وقوله :﴿ ذلك دين القيمة ﴾ فالقيمة هنا اسم للأمة القائمة بالقسط[2].

وفي لسان العرب: القيمة : الاستقامة، والاستقامة اعتدال الشيء واستواؤه و قوله تعالى:﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ﴾ (النساء:٥)، قال الزجاج: وقرئت "جعل لكم قيما" ، يقال هذا قوام الأمر وملاكه الذي يقوم به ... ومعنى الآية: أي التي جعل الله لكم قياما، تقيمكم فتقومون بها قياما، ومن قرأ "قيما" فهو راجع إلى هذا، والمعنى: جعلها الله قيمة الأشياء فيها تقوم أموالكم .

وقَيِّمُ الأمر مُقِيمهُ وأمرٌ قَيِّمٌ مُسْتقِيم، ... والملة القيمة: المعتدلة [3].

---

[1] الجوهري الصحاح، إسماعيل، دار الكتاب العربي ط٢ -٢١٧/٥

[2] الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، حققه: مصطفى العدوي، مكتبة فياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٥٢٩.

[3] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، ٢٢٦/١٢، قوم.

وفي المعجم الوسيط: قيمة الشيء قدره. وقيمة المتاع: ثمنه، جمعه قيم، ويقال: ما لفلان قيمة: ما له ثبات ودوام على الأمر[1].

وكما نلاحظ فإن معنى القيمة يتراوح بين المعاني التالي:

١-الاستقامة
٢-الثمن
٣-الأحكام القيمة
٤-الاستقامة بالحجة والدلالة
٥-ما به قيام الشيء
٦-الثبات والدوام على الأمر

والقيم اصطلاحا: هي مجموعة القوانين والمقاييس التي تنبثق من جماعة ما، وتكون بمثابة موجهات للحكم على الأعمال والممارسات المادية والمعنوية، ويكون لها القوة والتأثير على الجماعة بما لها من صفة الضرورة والإلزام والعمومية، وأي خروج عليها يصبح بمثابة خروج عن أهداف الجماعة ومثلها العليا[2].

- **طبيعة القيم " ثابتة أم متغيرة"**

هناك اتجاهات فكرية متباينة حول طبيعة القيم، ويمكن إجمال أهم هذه الاتجاهات بما يلي:

أولا: اتجاه فكري يرى أن القيم نسبية مردها إلى الواقع الاجتماعي، ومن ثم فهي متغيرة متطورة، ويمثل هذا الاتجاه جماعة الوضعية الفرنسية بزعامة أوجست كونت، وستيوارت مل، ووليم جمس[3]، وهؤلاء ينادون بأن القيم مردها الواقع الاجتماعي، والخبرة والممارسة وحاجات الأفراد، ويرى هؤلاء أن

---

1 المعجم الوسيط، دار إحياء التراث ـ٤٤٧/٢

2 أحمد، لطفي بركات، القيم والتربية ، الرياض، دار المريخ، ص ٥

3 * أوجست كونت: ١٧٩٨-١٨٥٧: عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، له نظريات في السياسة والاجتماع ، يعتبر في الغرب الأب المؤسس لعلم الاجتماع، علما بأن ابن خلدون وضع مقدمته المشهورة قبل كونت بكثير.

*ستيوارت مل:١٨٠٦-١٨٧٣:فيلسوف واقتصادي بريطاني، من رواد المدرسة الليبرالية التي تهدف إلى تزويد المجتمع بالحقائق المجردة ، له العديد من المؤلفات : نظام المنطق، مبادئ الاقتصاد السياسي، عن الحرية..

*وليم جمس:١٨٤٢ـ١٩١٠: فيلسوف أمريكي من رواد علم النفس الحديث، له العديد من المؤلفات منها: مبادئ علم النفس، الإدارة ، الاعتقاد.

القيم المطلقة سلبت من الإنسان إرادته ،وبالتالي حريته ، وجعلته يدور في عجلة الزمان لا حول له ولا قوة[1].

ويرى الفيلسوف "سارتر"[2] أن خضوع الإنسان للقيم وتسليمه لها واعتبارها مطلقة يشكل إلغاء لحرية الإنسان ووجوده على السواء ومن بعد سارتر سخر كثير من فلاسفة الغرب من القيم الثابتة ووصفوها بأنها تزييف لقيم الإنسان الحقيقية، وهؤلاء يرون أن الذات هي مصدر القانون والواجب والحق[3].

ثانيا: اتجاه يرى أن القيم موضوعية ومطلقة، يمثل هذا الاتجاه قديما الفيلسوف اليوناني أفلاطون، خصوصا عند تناوله لقضية العفة والاعتدال والشجاعة والفضيلة، ويمثل هذا الاتجاه في عصر النهضة مجموعة فلاسفة أشهرهم الفيلسوف الألماني "كانت"[4] الذي يحتم على الإنسان أن يكون سلوكه قانونا عاما، والقيم عند أصحاب هذا الاتجاه تتسم بعدة سمات منها أنها خالدة وثابتة ومعيارية وإلزامية، أما مصدرها فاغلبهم يردها إلى الإرادة العليا[5].

ويكاد يجمع علماء المسلمين على ثبات القيم لثبات مصدرها وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

المطلب الثاني: مفهوم الحضارة

الحضارة لغة: جاء في لسان العرب: الحضور نقيض المغيب والغيبة، حضر يحضر حضوراً وحضارة.. وكلمه بمحضر فلان: أي بمشهد منه، وتأتي بمعنى عنده، وتأتي بمعنى الحضر خلاف

---

[1] أحمد، لطفي بركات، القيم والتربية ، الرياض، دار المريخ، ص٧

[2] جان بول سارتر-١٩٠٥-١٩٨٠: فيلسوف وروائي وكاتب فرنسي، من مؤلفاته: الوجود والعدم، نقد العقل الجدلي، والعديد من الروايات.

[3] مطر، أميرة حلمي، عن القيم والعقل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١١

[4] إيمانويل كانت:١٧٢٤-١٨٠٤: فيلسوف ألماني ، له نظريات هامة في القانون والدين والتاريخ والأخلاق، من مؤلفاته: نقد المنطق المجرد،

[5] أحمد، لطفي بركات، القيم والتربية ، الرياض، دار المريخ، ص٧-٨

البدو، والحاضرُ خلاف البادي، والحِضارة: الإقامة في الحضر ،بالكسر أو الفتح ، والحَضَرُ والحَضْرَةُ والحاضرُ خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، والحاضرة الحي العظيم[١].

وعرّف المعجم الوسيط الحضارة بأنها: الإقامة في الحضر، وهي ضد البداوة، وتمثل مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، ومظاهرها الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي، ويراد بالحضر المدن والقرى المزدهرة[٢].

الحضارة اصطلاحا: إن مفهوم الحضارة، من المفاهيم التي يكتنفها الكثير من الغموض، وهذا مرده إلى اختلاف مدارس المفكرين والباحثين من الناحية العقائدية والفكرية، والنظرة إلى الكون والإنسان، وعليه فلا بد من بيان وجهة النظر الإسلامية وغير الإسلامية لاختلاف طبيعة المنبع الثقافي الذي استقى منه كلا الطرفين رؤيته لمفهوم الحضارة.

مفهوم الحضارة عند علماء المسلمين :

يعرفها ابن خلدون: بأنها نمط من الحياة المستقرة، ينشئ القرى والأمصار ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منظمة من العيش والعمل والصناعة وإدارة شؤون الحياة والحكم وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية، والتفنن في الترف واستجادة أحواله [٣].

ويعرفها د توفيق الراعي، في كتابه (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية)، بأنها: "مجموعة الأسس والمبادئ التي أتى بها الإسلام لتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق وبين المخلوق والمخلوقات باعتباره خليفة الله في الأرض[٤]".

[1] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، ١٤٨/٤.
[2] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث ١٨١/١
[3] ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط١/٢٠٠٤ ص ٤٥٠
[4] الراعي، توفيق، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، دار الوفاء، ص٤٠

أما الدكتور حامد غنيم فيعرفها في كتابه "مراكز الحضارة الإسلامية " بأنها: مجموعة القيم المعنوية والإنجازات المادية التي تشكل في مجموعها واقع أمة وصلت في مضمار التقدم والرقي وسيطرة الإنسان النابعة من إبداعه الخلاق إلى درجة عالية بالقياس إلى مستوى العصر الذي تعيش فيه هذه الأمة[١].

ويرى الدكتور نور الدين حاطوم، في كتابه تاريخ الحضارة، أن الحضارة صورة الحياة البشرية على مدى الزمن، ومحاولات الإنسان المستمرة لتحقيق مستوى أفضل من الحياة، وتتجلى الحضارة بمعناها الواسع لتشمل كل ما يتعلق بحياة الحضر من نظم ثقافية ودينية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفنية وعمرانية، والتي تشكل الثقافة جزءا لا ينفصل عنها[٢].

مفهوم الحضارة عند غير المسلمين

يعرفها توينبي[٣]: بأنها ثمرة تحدي الإنسان للبيئة ونوع استجابته لها[٤].

ويرى تايلر: بأنها ذلك الكيان المعقد الذي ينظم المعرفة والمعتقدات والفنون والأدب والقوانين والعادات ،وجميع القدرات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع[٥].

ويعرفها ول ديورنت بأنها: نظام اجتماعي ينمي ثقافة البشر، ويرقى بحياتهم، وهذا النظام مشروط بعوامل تسبقه وتواكبه، ومركب من عناصر تصنعه وتطوره.[٦]

هناك تعريفات عديدة للحضارة، وما ذكرته بعض النماذج لمفهومها عند المسلمين وعند غيرهم ، وأرى أن تعريف ابن خلدون عند المسلمين، و تايلر عند غير المسلمين يعتبران من أشمل التعاريف التي عرّفت الحضارة.

---

1 غنيم، حامد، مراكز الحضارة الإسلامية،ج١/ص٢٦

2 حاطوم، نور الدين، تاريخ الحضارة، مطبعة جامعة دمشق،١٩٦٤م،ط١،ص ١٨.

3 أرنولد توينبي-١٨٨٩-١٩٧٥: فيلسوف بريطاني، ويعتبر من أهم المؤرخين الذين بحثوا في الحضارات بشكل مفصل وشامل.

4 الإسلام والحضارة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٧٧.

5 زريق، قسطنطين، معركة الحضارة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٣م،ص٣٤

6 ول ديو رنت، الوجيز في الحضارة ، دار طلاس ١٩٩٥ ص١٥

وباعتبار أن الحضارة مرتبطة ارتباطا قويا بالثقافة والمدنية، كان لا بد من توضيح هذه المفاهيم.

مفهوم الثقافة : الثقافة في اللغة من ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفةً حَذَقَه ورجل ثَقْفٌ حاذِقٌ فَهِم وأَتبعوه فقالوا ثَقْفٌ لَقْفٌ ، والثَّقاف والثِّقافةُ العمل بالسيف[1].

الثقافة اصطلاحا :

تتعدد معاني الثقافة، سواء عند علماء العرب والمسلمين أم عند المفكرين الغربيين، وهذا مرجعه أن الثقافة من العوامل المشتركة بين الشعوب، وكل يعرفها حسب بيئته ومحيطه، ويرتبط بالثقافة مجموعة أخرى من المفاهيم الثقافية، كالخصوصية الثقافية ،والصراع الثقافي، والعولمة الثقافية، والانبهار الثقافي ... وكلها مفاهيم ذات دلالات، لا أريد الخوض في تفاصيلها لأنها ستأخذ مساحة كبيرة، وأود الإشارة إلى بعض التعريفات للثقافة عند المسلمين وعند غيرهم لارتباطها بمفهوم الحضارة.

يعرف مالك بن نبي الثقافة: بأنها مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح "لا شعوريا" العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه[2].

ويعرفها الدكتور عمر الأشقر: بأنها تراث الأمة الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية التي تمتاز به تلك الأمة، وهذا التراث الذي يشكل ثقافة الأمة متداخل مترابط يشكل إطارا ومحيطا يحكم الأفراد والأسر والمجتمع في كل أمة[3].

1 ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، ٢٨/٣
2 مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر دمشق، ٢٠٠٠، ص٧٤
3 الاشقر، عمر،نحو ثقافة إسلامية أصيلة ،دار النفائس، ص٢١

التعريفات الغربية: يعرف الفيلسوف تايلر الثقافة بأنها: ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع[1].

وتعرفها منظمة اليونسكو: بأنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والأدب وطرق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات[2].

والثقافة عند هنري لا وست: هي مجموعة الأفكار والعادات الموروثة التي يتكون منها مبدأ خلقي لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحتها وتنشأ فيها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها[3].

مفهوم المدنية

لغة : مَدَنَ بالمكان: أقام به، ومنه المدينة وتجمع على مدائن ومدن، والمدينة النسبة إليها مدني، ومدن الرجل إذا أتى المدينة[4].

واعتبر ابن خلدون أن تطور المدينة يشكل المرحلة الأخيرة في عمر الدولة، فعندما تحدث عن الحضارة كان يقصد بها ظهور المدن حيث يقول:" ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفاه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتفانوا في الزيادة على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر"[5].

[1] في فلسفة الثقافة /ادوارد بيرنت تايلور /ص٧٨
[2] نقلا عن : الوجيز في الثقافة الإسلامية /ص١٠-١١
[3] نقلا عن: الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة /ص١٤
[4] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، ٤٠/١٤.
[5] ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط٢٠٠٤/١ ،ص ١٦١

ويعرفها ول ديورنت في كتابه فقه الحضارة بأنها: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وهي تتألف حسب هذا المفهوم من الموارد الاقتصادية والنظم السياسة والتقاليد ومتابعة العلوم والفنون[1].

مما سبق يمكن أن نبين العلاقة بين كل من القيم و الحضارة والثقافة والمدنية على النحو التالي:

الحضارة والثقافة: الحضارة أوسع من الثقافة، فالحضارة تطلق على المنهج الفكري للأمة المتمثل في الإنتاج المادي والمعنوي، والثقافة تطلق على مجموع المعارف والقيم الحاكمة للسلوك، والثقافة مرتبطة بالحضارة ارتباطا فكريا، فثقافة كل أمة هي أساس فكرها وأسلوب حياتها، والحضارة والثقافة مكملان لبعضهما البعض، فالحضارة نتاج الثقافة، والثقافة انعكاس لحضارة معينة.

الحضارة والمدنية: كل حضارة قامت على أسس مدنية، و ليس كل أمة لها حضارة، فهناك أمم ليس لها فكر واضح، وبالتالي ليس لهم حضارة، كذلك ليست كل أمة لديها مباني فخمة وتكنولوجيا متقدمة ذات حضارة، فقد تكون هذه الأشكال مستوردة، فهي أمة لها مدنية وليس لها حضارة.

المدنية والثقافة: المدنية تركز على الإنتاج المادي المشاهد، كالعمران والتكنولوجيا والفنون وبعض الأنظمة والقوانين، أما الثقافة فتركز على القيم والمعارف والسلوك والأعراف لأمة ما، كما أن الانفتاح في الميدان الثقافي حذر، خلافا للميدان المدني، والحضارة نتاج الثقافة، والمدنية نتاج العلم والتكنولوجيا.

القيم والثقافة: لا يشترط في القيم أن تكون جيدة أو موافقه للدين في العرف الثقافي، فهناك مثقفون ملحدون، وهناك قيم لكل ثقافة من ثقافات الشعوب، والثقافة الإسلامية لا بد أن تكون موافقة للقيم

[1] ول ديورنت، فقه الحضارة، ترجمة د زكي نجيب ، القاهرة، ط٢، ج١/ص٣ .

الإسلامية الثابتة لثبات مصدرها "القرآن والسنة" والمنظمة لكافة جوانب الحياة الفكرية والاعتقادية والاجتماعية والسياسية[1].

من هنا قد أطلق على بعض السلوكيات في المجتمعات غير الإسلامية مصطلح "قيم" وأقصد بذلك، وجهة نظرهم الثقافية .

عوامل قيام وسقوط الحضارات:

هناك عدة دراسات ونظريات لتفسير أسباب ظهور أو انهيار الحضارات، وقامت هذه الدراسات على تتبع عوامل التحضر المادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إن أية حضارة لها مقوماتها المادية ومقوماتها المعنوية، وإن أي دراسة في نظرية نشوء الحضارات لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار

هذه المقومات، وفيما يلي إطلالة سريعة على تصورات بعض المفكرين المسلمين وغير المسلمين لأسباب نشوء وسقوط الحضارات.

أولا: التصور الإسلامي

يمكن القول بأن النظرية الإسلامية تقوم بالعموم على عدة محاور، فالله الخالق والإنسان المخلوق وبينهما المنهج، وبما أن الإسلام هو رسالة الأنبياء جميعا، فإن أسس الحضارة في المفهوم الإسلامي موجودة في ثنايا كل الرسالات، فالكون مخلوق لله تعالى، والله سخر الكون عونا للإنسان على أداء رسالته، وزوده بالعقل ليستفيد من ثروات الأرض، فالعلاقة بين الكون والإنسان مبنية على التسخير والاستكشاف، خلافا لتصورات الحضارات الأخرى التي بنت العلاقة بين الكون والإنسان على الصراع والتضاد.

---

[1] السويدان، طارق،صناعة الثقافة ، مؤسسة الإبداع الفكري للنشر، ط١، ٢٠٠٧،ص٤٦.

وحركة الإنسان في الكون تقوم على مبدأ الاستخلاف، ومن معاني الاستخلاف العبادة بمفهومها الواسع فهي لا تقتصر على الشعائر التعبدية بل تتعداها لتجعل حركة الإنسان مرتبطة بالهدف الذي خلق له كخليفة ، وبذلك تكون حركة العمران عبادة.

ابن خلدون:

من أبرز المفكرين الإسلاميين الذين درسوا الحضارات، عبد الرحمن بن خلدون، الذي يرى أن الظلم مؤذن بخراب العمران حيث يقول: "إن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من النتائج، أما سائر مقاصد القرآن الكريم من الأحكام فكلها مبنية على المحافظة على العمران، والملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والميزان، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال لا يكون إلا باستقامة الوزراء[١]".

ومن أسباب سقوط الحضارات كما يرى ابن خلدون الترف، يقول:" والترف مفسدة للخلق، وبه تذهب خلال الخير، فيكون دلالة على الإدبار" – أي السقوط– ويقول:" إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم"[٢] لقد استقى ابن خلدون كثيرا من نظريته للتاريخ من القرآن الكريم، أما آراؤه فقد كانت كثير منها مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الأمم التي شاهدها أو عرف تاريخها، فركز على قانون الحياة الاجتماعية والتاريخية.

مالك بن نبي

يرى مالك بن نبي أن أسباب تطور الأمم ونهوض الحضارات يعود لسببين، نفسي واجتماعي، ويقصد بالنفسي الفرد وذاته الإنسانية في محيطها الاجتماعي، ولقيام الحضارات لا بد من نظام تربوي

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط١/٢٠٠٤ ص٣٥١
[2] المرجع السابق ص ١٨٤

ثقافي فكري، يحسّن استخدام كل الطاقات البشرية المادية ، ويعتبر العقيدة الصحيحة من أهم الأمور التي تحدث أثرا وتغييرا على مستوى الفرد والجماعة .

كما أن ظهور المفاسد في عالم الأشخاص، وتفشي أمراضه في المجتمع هو بداية منحى السقوط الحضاري الذي خلفته واستحدثته عوامل نفسية ، ومن سنن الله أنه في الوقت الذي تتكمش تأثيرات الروح والعقل، تنطلق الغرائز الدنيئة من عقالها بالإنسان إلى التدني للحياة الحيوانية[١].

أبو الأعلى المودودي

يرى أبو الأعلى المودودي أن قيام الحضارات وسقوطها قائم على أساس المهمة التي جاء الأنبياء والرسل لتحقيقيها، فالعقيدة الاطار الأول، ثم الجماعة التي تتجسد بها وتبلغها وتجمع الناس عليها، ثم المجتمع الذي تطبق به هذه العقيدة في إطار منظم في كل الاتجاهات ، هذا من الناحية الإسلامية، أما من ناحية الحضارات الغربية والتي تقوم على أساس القومية السياسية والوطنية المجردة والمصلحة المادية، ومفهوم الديمقراطية، والعلمانية فقد وجه إليها النقد واعتبر هذه الثلاثية "القومية، الديمقراطية، العلمانية" قواعد الحضارة الغربية، وبعد نقده لها أعلن الإيمان بالله تعالى بديلا لها، وأن حاكمية الله بديلا لحاكمية الجماهير[٢].

ويذهب المودودي إلى أن المفكرين كثيرا ما يخلطون بين الحضارة ونتائجها ، ويظنون أن الحضارة علوم وفنون ومعارف، ومناهجها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، هذه مظاهر الحضارات، والشيء الجدير بالبحث في الحضارات هو تصور الحضارة للوجود ونظرته للكون ومنزلة الإنسان في هذا الكون ولأي غرض هو يكدح ويشقى[٣].

[1] نقلا عن كتاب: خليل، عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية ، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م ، ص٢٦
[2] المودودي، الإسلام والمدنية الحديثة ، ص٣٧
[3] المودودي، الحضارة أسسها ومبادئها ، ص٩

ثانيا: المفكرون الغربيون

نظرية كارل ماركس

وقد قسّم ماركس التاريخ إلى خمس مراحل:

المرحلة البدائية وكان الإنسان يعيش من صيد الحيوان ونبات الأرض، والمرحلة المستعبدة حيث عاش الناس سادة وعبيد، والمرحلة الإقطاعية المبكرة حيث الاعتماد على الفلاح، والمرحلة الرأسمالية التي استعبدت العامل وقتلت اليد العاملة، والمرحلة الخامسة مرحلة الصراع الطبقي.

ويرى ماركس أن تطور تاريخ الحضارات سببه الأساس قانون التطور نتيجة الصراع بين الأضداد، فكل شيء يحمل في صميمه جرثومة نقيضه، وجميع الأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحضارات نابعة من الوضع الاقتصادي.[1]

نظرية توينبي : لتوينبي مؤلف في التاريخ ، وضع من خلاله نظرية التحدي والاستجابة كسبب لنشأة الحضارات، فهو يرى أن التحدي ضروري لنشأة الحضارة واستند للواقع التاريخي لإثبات صحة نظريته، وهو يرى أن نشأة الحضارة وتطورها يرجع إلى بصيرة القيادة الرشيدة للخاصة أو النخبة، والتي تستطيع أن تجد للتهديد والتحدي الذي يواجه المجتمع الاستجابة والرد السليم، وتتابعها الجماهير، وذكر أمثلة من التاريخ تبين فعل الأفراد في نشأة الحضارات كالأنبياء والمفكرين السياسيين ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم.

ويرى أن أهم أسباب التدهور الحضاري تحدث حين تفشل النخبة المختارة التي لها القيادة، على التأثير في المجموع ، فهي ظاهرة تفتت وانقسام تبدأ من الباطن، وعلى الرغم من أنه ذكر أكثر من عشرين حضارة إلا أن معظم هذه الحضارات اندثرت ولم يبق منها إلا ست حضارات، هي الأرثوذكسية

[1] البهي، محمد، تهافت الفكر المادي التاريخي، مكتبة وهبة، ط٣/ ١٩٧٥ ص ١٣-١٥-٢٤ بتصرف

المسيحية البيزنطية، والأرثوكسية الروسية، والإسلامية، والهندوسية، والصينية والكورية، ويرى أن من أهم الأسس التي سوف تعتمد عليها الحضارات العالمية المستقبلية مستمدة من الإيمان الديني، وأن الديانات العالمية سوف تجمع بين الديانات الكبرى مثل المسيحية والإسلام والبوذية، وينتهي توينبي إلى أن اتجاه التاريخ يسير نحو تحقيق غاية وإرادة الهيه[1].

نظرية ول ديو رانت :صاحب كتاب قصة الحضارة ، حيث حدد في كتابه الشروط التي تقوم بها أي حضارة، ومن أهم هذه الشروط: العوامل الجيولوجية والجغرافية، والعوامل الاقتصادية والعوامل النفسية، والحضارة تسقط أو تنهار بانعدام هذه العوامل أو واحد منها، أما المدنية فهي شيء يكتسبه كل جيل اكتسابا جديدا، ويعتبر ول ديو رانت العوامل المادية أساسية في نشوء الحضارات، ويجعل الأمور المعنوية في الدرجة الثانية[2].

غوستاف لوبون : يؤكد لوبون أن الأمم والحضارات لا ترتقي إلا إذا كان على رأسها مجموعة رجال عظماء ذوي خبرة وقدرة فعالة على إدارة الأمور، ويؤكد على أهمية المبادئ والقيم وتأثيرها، فالمبادئ في نظره هي المحرك الباطن للأمور، فإذا هبطت المبادئ في أمة من الأمم فإن حضارتها تذبل وتموت[3].

هذه خلاصة بعض النظريات الغربية والإسلامية في مسالة أسباب قيام وسقوط الحضارات ، ومما لا شك فيه أن هذه النظريات تعرضت للكثير من الانتقادات ليس مجال تفصيلها هنا لأن بحثنا عن النظريات كما هي، أكثر من بحثنا عن النقد الذي يوجه إليها.

---

[1] مطر، أميرة حلمي، عن القيم والعقل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٤٧

[2] ول دي ورنت، قصة الحضارة، ترجمة د زكي نجيب ، دمشق، دار العراب، ط١، ص٧، بتصرف.

[3] لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ،ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار احياء التراث، ط٣/ص٦٠٨.

المبحث الثاني

مفهوم القصة القرآنية وأهدافها

المطلب الأول: مفهوم القصة القرآنية

القصة لغة: قال ابن فارس: القصّ يدل على تتبع الشيء، مأخوذ من قولك: اقتصصت الأثر إذا تتبعته، ومن ذلك القصة والقصص، حيث يتتبع فيذكر.[1]

وقال الراغب: القص تتبع الأثر والقصص الأخبار المتتابعة ومنه قوله تعالى:" إن هذا لهو القصص الحق" [2].

والمعنى أن مادة قصص تقوم على التتبع، سواء أكان التتبع ماديا كقص الأثر، أو كان التتبع معنويا كقص الأخبار وقص الكلام.

القصة القرآنية اصطلاحا: هي كل خبر موجود بين دفتي المصحف، أخبر به الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بحوادث الماضي، بقصد العبرة والهداية، سواء أكان ذلك بين الرسل وأقوامهم أم بين الأمم السابقة أفرادا وجماعات[3].

يستفاد من التعريف السابق أمور:

١-لا يدخل تحت هذا التعريف القصص النبوي والحوادث التي وقعت مع المسلمين

٢-هناك قصص غير قصص الأنبياء ذكرت في القرآن ويعتبر من القصص القرآني.

٣-يدخل في هذا التعريف ما ذكره القرآن من قصص الكائنات غير البشرية كقصة الهدهد والنملة مع سليمان عليه السلام.

---

[1] ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٤م، ١١/٥.

[2] الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، حققه: مصطفى العدوي، مكتبة فياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م،١٧٥.

[3] العدوي، محمد خير، القصة في القران، دار العدوي، ص٣٣.

المطلب الثاني: الفرق بين القصة القرآنية والقصة الإنسانية

القصة في اصطلاح أهل الأدب:

هي عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة في صورة فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى الأذهان، محاولا أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه[١].

وقد نبه العدوي إلى مسألة في غاية الأهمية فقال: إن تعريف القصة بالمعنى الحديث إنما هو وليد القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، نتيجة لما توفر في أيدي الباحثين الغربيين من تراث وجدوا فيه ما وجدوا من أساطير مغرقة في الخيال والكثير من الخرافات الموجودة في أدبياتهم، وهذا التراث يختلف تماما في مدلولاته وتاريخه وبيئته عن التراث العربي ،والخلط بين التراث العربي والإسلامي، وبين التراث الغربي واعتباره تراثا واحدا ثم الخروج بمصطلحات واحدة فيه نظر، فلا يمكن تطبيق هذه التعاريف وأمثالها على القصة العربية وأصل نشأتها وتطورها، فضلا عن محاكمة القصص القرآني لمدلولاتها[٢].

ويفترض الأدباء في القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هي: الموضوع والشخصيات والحوار، ثم يضعون شروطا لهذه العناصر، ومن أمثلة القواعد التي يقررونها في هذا المجال:

١-أن تكون للقصة وحدة فنية.

٢-أن يراعى في عرضها جانب التلميح ما أمكن.

---

[1] شيخ أمين ، بكري، التعبير الفني في القرآن ، بيروت، دار الشرق، ط٢،١٩٧٦،ص٢١٥.

[2] العدوي، محمد خير، القصة في القران، دار العدوي، ص٣٨ بتصرف

٣-أن يعنى كاتبها برسم شخوصها.

٤-أن يكون للقصة هدف ومغزى.

٥-ألا تخلوا من عنصر التشويق.

٦-أن يكون أسلوبها طبيعيا لا هو بالمتهافت، ولا بالبالغ الصعوبة[١].

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وجدنا أنه خارج في قصصه عن حدود القيود التي تواضع عليها الكاتبون في هذا الفن، لأنه كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، فهو يسخر القصة للهدف الديني، ومن ثم فالمحور الرئيسي للقصص القرآني ليس الأبطال أو الشخصيات، أو الزمان أو المكان، إنما هو المقاصد والأهداف السامية التي جاء لإقرارها وتثبيتها[٢].

والقصة إحدى وسائل القرآن لتبليغ الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث، وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها، والأمثال التي يضربها، إلى آخر ما جاء في آي القرآن الكريم من موضوعات[٣].

فالقصة القرآنية جزء من القرآن الكريم، تأخذ كل ما يتميز به القرآن من صفات وخصائص، كربانية المصدر، وسمو الهدف، وإعجاز المعنى والأسلوب واللفظ، كما أنها في غاية الصدق بحيث لا تشوبها شائبة من وهم أو خيال أو مبالغات أو تزوير للحقائق والأحداث، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦٢). خلافا للقصص الأدبي الذي تختلط فيه الحقيقة بالخيال، بل لا يحسن ولا يعذب إلا بالإغراق والمبالغة.

---

[1] شيخ أمين ، بكري، التعبير الفني في القرآن ، بيروت، دار الشرق، ط٢،١٩٧٦،ص٢١٦
[2] سرحان، محمد أحمد، نظرات في الأسلوب القرآني، ط١، ١٩٩٧م،ص٥٤
[3] قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار المعارف، ١٩٦٣م،ص١١٠

إن القصة القرآنية تعنى بالمواقف والعبر والعظات، يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾(الكهف:٨٣)، فكلمة منه تشير إلى منهج القرآن في عرض القصة، فهو يركز على المواطن التي تؤخذ منها العبر والدلالات ، لذلك يعرض من القصص ما يحقق له أهدافه التي يريد بيانها، ويعرض من القصة المشاهد واللقطات والمقاطع التي فيها القيم والفوائد والعبر[1].

المطلب الثالث: أهداف القصة القرآنية:

لا تنفصل أهداف القصة القرآنية عن أهداف القرآن الكريم باعتباره كتاب هداية ومنهج حياة، فجاءت القصة القرآنية للتأكيد على القيم الإسلامية والتحذير من السلوكيات التي تتنافى وهذه القيم، بالإضافة إلى العديد من الأهداف الأخرى، ومنها:

١- تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من خلال عرض صور لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب من قبل أقوامهم، وكيف صبروا على ما أوذوا [2]، ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود ١٢٠.

٢- تعليم المؤمنين فضائل الأخلاق من خلال القدوة العملية الماثلة في قصص القرآن الكريم، والزجر عن الأخلاق الذميمة والفواحش، وذلك من خلال تقديم أمثلة لشخصيات تمثل جانب القدوة الإيجابية، كأيوب عليه السلام في صبره، ويوسف عليه السلام في عفته، وأمثلة أخرى تمثل الجانب السلبي، كقارون في اغتراره بالمال والجاه، وفرعون في تعاليه وكفره، وقوم لوط في إصرارهم على

[1] الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٨٩ ، ٣١٩/٢.
[2] عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس، ط٢/٢٠٠٧ ص٤٤

الفواحش، والقرآن يحض من خلال عرض قصصهم على البعد عن مسلكهم الوخيم العاقبة في الدنيا والآخرة.[1]

٣- التأكيد على أن مضمون الرسالات السماوية واحد، من خلال بيان أن دعوة جميع الأنبياء كانت قائمة على التوحيد والإيمان، وتثبيت أسس العقيدة الإسلامية في النفوس: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦) .

٤- الاطلاع على أحوال الأمم السابقة، والإفادة من تجاربهم، وأخذ العبرة منهم، وبيان منزلة المؤمنين ، ومكان الكافرين، وعاقبة كل منهما، قال تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (غافر:٢١). يقول سيد قطب:" إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى ، ولكنه دستور شامل، دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها، وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لدن آدم عليه السلام وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها، تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة، كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع، ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع ، وبهذا الإيحاء."[2]

---

[1] عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس، ط٢/٢٠٠٧ ص٤٤

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ٢٦١/٢.

٥- من أهداف القصة القرآنية التأكيد على المضامين التي جاء بها القرآن الكريم لإثبات صحة ما يدعو إليه[1]، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١).

٦- نص القرآن الكريم على أن من أهداف إيراد القصة فيه، إثبات الوحي وتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ،وأن القرآن كلام الله، فبعد أن قص الله علينا قصة طالوت اعتبرها دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، واعتبر ذكرها في القرآن دليلا على أن القرآن كلام الله تعالى، قال تعالى :﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٢)[2].

٧- من فوائد القصص القرآني إحياء ذكرى الأنبياء السابقين وعرض لقطات من سيرهم، فيكون ذلك داعيا لمحبتهم وموالاتهم، ولا شك أن محبة الأنبياء والصالحين من أعظم أسباب دخول الجنة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المرء مع من أحب" [3].

[1] سرحان ، محمد أحمد، الاستدلال القرآني وخصائصه ، دار الحسين الإسلامية، ط١، ١٩٩٢م، ص٨٢
[2] فريد، أحمد، تيسير المنان في قصص القرآن ، دار ابن الجوزي، ط١،١٩٩٠ ،ص١٤
[3] رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، حديث رقم: ٦١٧٠. ص١١٣١. بيروت، دار الكتب العلمية، طبعة كاملة ، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

الفصل الأول: القيم الحضارية في مجتمعات العلم والإيمان

المبحث الأول

القيم المعنوية "الثقافية"

المطلب الأول: القيم الدينية

أولا: قيمة التوحيد

يشكل التوحيد المحور الأساس الذي تقوم عليه الحضارات الإيمانية فيمنحها هويتها، ويربط جميع مكوناتها معا ليجعل منها كيانا متكاملا، وهو من أهم المبادئ الأساسية التي تضم أو تحكم جميع المبادئ والقيم الأخرى، سواء أكانت قيم معنوية أم مادية.

وفي حضارات العلم والإيمان يكون التوحيد هو ذلك المعيار الأعلى في التعامل مع الحقائق والأوضاع الجديدة، فما يتفق مع ذلك المبدأ يتم قبوله، وما لا يتفق يتم رفضه وإدانته، وهو بالنسبة للمسلمين بمثابة الدافع والهدف في الوقت نفسه ، لأنه يفضي إلى الاعتقاد بأن العمل الذي يقوم به الإنسان من أجل الدنيا، هو في ذات الوقت عمل من أجل الآخرة، فعمل الدنيا والآخرة وحدة متكاملة لا تناقض فيها.[١]

مفهوم التوحيد:

والتوحيد لغة: يدور معناه حول معاني الوحدة والانفراد ونفي التعدد.[٢]

---

[1] المودودي، الحضارة الإسلامية ، ص٤٥

[2] ابن منظور، لسان العرب ، ١٥ /١٦٧.

أقسام التوحيد: توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أنواع هي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات[1].

١- **ويقصد بتوحيد الربوبية:** الإقرار بأن الله وحده هو الخالق للعالم ..والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطر لا يكاد ينازع فيه أحد[2]: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٩)، وفي القصة القرآنية نجد أن الأنبياء عليهم السلام أشاروا إلى توحيد الربوبية في سياق تقريرهم لتوحيد الألوهية.

في قصة إبراهيم عليه السلام ومجادلته للملك الكافر استدل على وحدانية الله، ببيان انفراد الله تعالى بالإحياء والإماتة والتصرف بنواميس الكون: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وأشهر من عرف بتجاهله وتظاهره إنكار الخالق، فرعون ، وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال له موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً ﴾ الإسراء ١٠٢، يقول الآلوسي :" ظاهر قول موسى عليه السلام – لفرعون– يقتضي أنه كان عالماً بأن إلههم غيره"[3].

٢- **توحيد الألوهية:** ويقصد به إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. [4]

---

[1] عميرة ، د عبد الرحمن ، شرح العقيدة الطحاوية ، دار المنار ط٢٠٠٤/١ص٥٨
[2] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ،ط٢ ص٢٦
[3] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢،ج٢٨٨/١٠
[4] الفوزان ، صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ،ط٢ص٣٠

وتوحيد الألوهية هو أول ما دعت إليه الرسل يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)، وقد ركزت القصة في القرآن على هذا القسم من التوحيد باعتباره من الغاية التي خلق الإنسان من أجلها ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(المؤمنون:٢٣)، قال الإمام الرازي:" ﴿ اعبدوا الله ﴾ المعنى أنه سبحانه أرسله بالدعاء إلى عبادة الله تعالى وحده، ولا يجوز أن يدعوهم إلى ذلك إلا وقد دعاهم إلى معرفته أولاً، لأن عبادة من لا يكون معلوماً غير جائزة وإنما يجوز ويجب بعد المعرفة"[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٧٣).

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:١٦).

لقد كانت دعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام واحدة، وهي إفراد الله بالعبادة، مصداقا لقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات،٥٦ وهذا يؤكد على أن دين الأنبياء واحد، فكل نبي جاء بالإسلام وطلب من قومه الدخول فيه، وإحسان العبادة لله، قال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨).

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٨٥/٢٣.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دين الأنبياء واحد فقال: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة أبناء علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وليس بيني وبين عيسى نبي" [1].

٣- **توحيد الأسماء والصفات**، ومعناه إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات النقص، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾الشورى١١ [2]، ويقول : ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأعراف١٨٠، يقول الإمام الرازي:" الأسماء، ألفاظ دالة على المعاني فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره ، وثبوت افتقار غيره إليه"[3] ، من أجل ذلك بين الأنبياء عليهم السلام أسماء الله وصفاته أثناء دعوتهم لأقوامهم، قال تعالى:﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (العنكبوت:٢٦)،، وقال يوسف عليه السلام :﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩).

مما سبق يتبين ارتباط قيمة التوحيد بالحضارة الإيمانية، فهو يمنحها شخصيتها المتفردة، من خلال شد جزئياتها صوب هدف واحد، وذلك من خلال توجيه أفراد تلك المجتمعات قبالة الله سبحانه ومعرفة صفاته ومنها صفة الخلق التي أودعت تلك القدرات في ذات الإنسان، فيسعى إلى استثمارها حتى حدودها القصوى، ويكون هدف تلك المجتمعات من ذلك السعي، ابتغاء مرضاة الله لاعتقادهم بأنه وحده

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الانبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها)، ص٦٣٤، حديث رقم:٣٤٤٢.
[2] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ،ط٢ص١٦٦
وانظرابن تيمية، مجموع الفتاوى ، بيروت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج٣ص٤
[3]الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية ج١٥/ص٥٥

الخالق والمتصرف والمشرع، والإنسان المؤمن يحيا في ظل هذا المبدأ، ويسعى أن تكون جميع أفعاله منسقة معه لتحقيق الغاية الإلهية، ومن ثم فإن قيمة التوحيد هي محور الحضارات الإيمانية ابتداء من آدم عليه السلام، مرورا بكل الحضارات الإيمانية عبر تاريخ البشرية، وانتهاء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : قيمة الإيمان

والإيمان في اللغة : معناه التصديق، وضده التكذيب.[1]

و في الاصطلاح: يعني التصديق المتضمن القبول والإذعان، وهو تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، ويشمل القول والعمل والنية.[2]

وللإيمان أركان بينها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام وفيه:" أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"[3]ودل على هذه الأركان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ (النساء:١٣٦).

١- **الإيمان بالله:** وهو الاعتقاد الجازم دون ريب بوجود الله، وبقدرته المطلقة على الخلق والتدبير والتصرف، فهو المستحق للعبادة وعبادة غيره باطلة، وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، منزه عن كل نقص وعيب.[4]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب ،١٦٥/١.
[2] الحنفي، علي بن أبي العز، شرح الطحاوية، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة دار المنارط٢٠٠٤/١ص٣٣٢
[3] رواه مسلم، كتاب الايمان، باب سؤال جبريل، ص٢٥، حديث رقم: ٥٠.
[4] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ص٢٥

وكثيرا ما تأتي القصة القرآنية لتؤكد حقائق الإيمان بصورة واقعية عملية، قال تعالى:﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴿ ١٢٠ ﴾ قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ﴿ ١٢١ ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴿ ١٢٢ ﴾(الأعراف)، يقول الإمام سيد قطب معلقا على هذا الموقف الإيماني:" فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد، وتقبل صابرة على التنكيل والتصليب، ...وما تغير في حياتها شيء –في عالم المادة– إنما وقعت اللمسة الخفية ... وهكذا يمضي الإيمان في طريقه..لا يلتفت ولا يتردد ولا يحيد!"[١]

وفي قصة يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٦)، "إن المحن والبلايا التي مرت على يعقوب عليه السلام لم تؤثر شيئا في ثقة العبد الصالح بربه، فهو يعلم من حقيقة ربه وشأنه، ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن هذه الحقيقة، وهذه قيمة الإيمان بالله، والقلب الذي ذاق هذه القيمة لا تبلغ منه الشدائد أي مبلغ"[٢].

٢- **الإيمان بالملائكة:** وهو الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بها، والتصديق بأوصافهم وأعمالهم ومكانتهم عند الله عز وجل.[٣]

يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة١٧٧.

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج٣، ٩/ ١٣٥٢.
[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج٤، ١٣/ ٢٠٢٦.
[3] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة الفوزان ص١٩٥

وقد جاءت القصة القرآنية لتؤكد هذا الركن الإيماني بصورة محسوسة، فقصة مريم عندما جاءها جبريل عليهما السلام تؤكد هذه الحقيقة: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا* فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:١٦-١٧). قال الإمام الطبري: "فتشبه لها في صورة آدميّ سويّ الخلق منهم، يعني في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق"[١].

٣- **الإيمان بالكتب:** وهو التصديق الجازم بأنها حق وصدق، وأنها كلام الله عز وجل ، فيها الهدى والنور والكفاية لمن أنزلت عليهم.[٢]

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى أن الكتب السماوية السابقة جاءت بالهداية والحق الذي نزل به القرآن الكريم ، فالكتب السماوية مصدرها واحد، ودعوتها واحدة قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿ ١٤ ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ ١٥ ﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿ ١٦ ﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ ١٧ ﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿ ١٨ ﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى).

٤- **الإيمان بالرسل:** وهو التصديق برسالتهم، والإقرار بنبوتهم، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله، وقد بلغوا الرسالات، وبينوا للناس ما لا يسع أحدا جهله[٣].

وقد جاءت القصة القرآنية لتبين هذا الأصل، ففي قصة مؤمن آل فرعون، ذكرهم هذا الرجل الصالح بمن جاء قبلهم من الرسل، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ (غافر:٣٤).

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، لبنان، دار الفكر، ٢٠٠٥م، مج٩، ٦٨/١٦.
[2] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة الفوزان ص٢٠١
[3] الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ص٢٠٥

وقال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف:٦).

إن القصة القرآنية تبرز بوضوح من خلال هذه المشاهد واللقطات أن الأنبياء بينوا لأقوامهم هذا الركن من أركان الإيمان.

٥- **الإيمان باليوم الآخر**: وهو التصديق بكل ما أخبر به الله عز وجل في كتابه، وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، والبعث والحشر والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وكل ما وصف الله به يوم القيامة[1].

وجميع الأنبياء انذروا أقوامهم من هذا اليوم، وما يكون فيه من بعث وحساب ، وثواب وعقاب، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:٥٩).

ويعد الإيمان باليوم الآخر من أهم أسباب ثبات المؤمنين على مبادئهم وقيمهم، وبما أن الإيمان تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، جاءت قصة أصحاب الأخدود لتنقل لنا موقفا عمليا بطوليا يؤكد هذه الحقيقة، ما الذي جعل المؤمنين ثابتين على موقفهم أمام سعير الأخاديد المشتعلة بالنار؟ إنه الإيمان باليوم الآخر وما أعده الله لهم من جنات، لهذا عقب الله على قصتهم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ }(البروج:١١)، يقول سيد قطب: "كان بإمكان المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير :

[1] ياسين، محمد نعيم ،الإيمان ، الاردن، دار الفرقان ،ص١١١

معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد[1].

ومن أكثر الأمور التي لا يؤمن بها الكفار، وينكرونها أشد الإنكار، مسألة البعث والحساب يوم القيامة، ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾(الإسراء:٤٩)، لهذا أقام القرآن الحجة على الكفار بعدة أساليب، وكان منها تقديم المعجزات الدالة على إمكانية ذلك، وأخبرتنا القصة القرآنية عن بعض تلك الأمثلة كقصة أصحاب الكهف ،التي تؤكد هذه الحقيقة بصورة مادية محسوسة: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (الكهف:٢١).

٦- **الإيمان بالقدر خيره وشره** : "اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر، فمنهم من عرّفها تعريفا واحدا، ومنهم من جعل القضاء مغايرا للقدر، فقال:

القدر: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

والقضاء: إيجاد الله تعالى للأشياء حسب علمه وإرادته، وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، ومن عرفها تعريفا واحدا قال: هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود، والقوانين العامة والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها".[2]

وقصة السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام خير مثال على ذلك المعنى الإيماني، عندما وقفوا بوجه فرعون وقالوا بعزة المؤمن: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾طه٧٢

---
[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج٦، ٣٨٧٤/٣٠.
[2] ياسين، محمد نعيم ،الإيمان ، الأردن، دار الفرقان ص١٠٨

إن الإيمان بالقدر يقتضي اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، وأن الدجالين والمشعوذين والجن لا يعلمون شيئا من علم الغيب، لهذا جعل الله من مشهد موت سليمان تقريبا لهذه الحقيقة: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤).

وهكذا يصبح للإيمان بكل أركانه دوره البارز في حضارات أهله، فيغدوا الكون والعالم من صنع الله، ويتحرر المؤمن من كل الخرافات والصنميات الموجودة في المذاهب والأديان الأخرى، ما يجعل المؤمن حرا فاعلا وسيدا لهذا الكون، فيرتقي بحضارة الإيمان إلى القمة السامقة التي أرادها الله له.

ثالثا : قيمة العلم

والعلم في اللغة : نقيض الجهل ، علمت الشيء أعلَمُه عِلما، عرفته، وعَلِمَ الأمر وتعلمه، أتقنه.[١]

يعد ابن خلدون من أكثر المؤرخين وقوفا عند هذه الظاهرة بسبب اهتمامه بقوانين العمران البشري، والبحث عن عوامل ازدهارها وخمولها، وقد ناقش في الباب السادس من مقدمته هذه القيمة تحت عنوان "العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من أحوال" وخلص إلى نتيجة أن العلم يعتبر من أهم عوامل تطور الحضارات، ويعتبر في الوقت نفسه مؤشرا على تقدم حضارة وتخلف أخرى[٢].

وترتبط قيمة العلم بالتزكية والأخلاق في المجتمعات الإيمانية، الأمر الذي يجعل من هذا الترابط قاعدة متينة تضمن للأمة الترابط والاستقرار على أسس سليمة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، لقد صاغ العلم الأمة العربية صياغة جديدة، فغير كثيرا من مفاهيمها وطبائعها وقيمها ومثلها من خلال

---

[1] ابن منظور، لسان العرب ، ١٠ /٢٦٣.
[2] ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط٢٠٠٤/١ ص٥١٨

التشجيع على المعرفة، ما كان العامل الأول والفاعل الأساسي وراء الانتقال من الجاهلية وبداوتها إلى العلم وحضارته، فبالعلم تنتقل الأمة من التخلف إلى التقدم، ومن الركود إلى النهضة، ومن الخرافة الساذجة إلى الروح العلمية التي طبعت فكر الإسلام ونهج المسلمين الذين وعوا خصائص هذا الدين.[1]

والقرآن عندما قص علينا قصص السابقين، كأنما حثنا على الاطلاع على تاريخ هذه الشعوب لأخذ العبرة منها، وجاءت الإشارة في كثير من الآيات لتبين قيمة العلم وأثره في المجتمعات الإيمانية، ففي قصة خلق آدم عليه السلام، يقول سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٣١).

من الدروس النافعة التي تؤخذ من قصة خلق آدم عليه السلام، أن الله أختاره وذريته ليكونوا خلفاء الله في أرضه، لكي يصلحوا ويقدموا العمل الصالح الذي يجعلهم يحيون حياة طيبة، والعلم على رأس الأسباب التي هيأت آدم عليه السلام ليكون خليفة الله على هذه الأرض.

والآية تبين أن علم آدم عليه السلام، كان مستمدا من تعليم الله تعالى، وهذا معناه أن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ، بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله له، فإنه يكون علما مطابقا للواقع، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن طريق الإصلاح، وصاحب هذا العلم هو الذي يصلح للخلافة في الأرض، ومن هنا كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة في الأرض[2].

ومما لا شك فيه أن العلم من أبرز صفات الأنبياء والمرسلين، باعتبارهم الجهة المبلغة لدين الله تعالى والأسوة والقدوة للمؤمنين وكثيرا ما نبهت القصة على هذه المسألة، ففي قصة موسى عليه السلام

[1] عمارة، محمد، الإسلام وحقوق الإنسان ، ١٩٨٥م، ص٧٠
[2] طنطاوي، محمد سيد، القصة في القرآن الكريم ، دار المعارف، ط١، ١٩٩٥م، ج١ ص١٩

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤)، لقد بلغ موسى عليه السلام أشده في قصر فرعون، ومعنى استوى، استقامت حياته، واعتدلت شخصيته، واستقرت صفاته وأخلاقه، وعرف بين الناس بأنه ليس مثل فرعون، عرف بين الناس بأخلاقه وصفاته وعرف بنخوته وعدله، ولما كان شابا يتمتع بهذه الصفات، أكرمه الله تعالى، فآتاه العلم والحكمة وغدت شخصيته وكيانه تدين بمنطق العلم والحكمة، فصار شابا ربانيا يساعد الآخرين، وينصر المظلومين، ويواجه الظالمين.

وامتدح الله يوسف عليه السلام بهذه الصفة: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٢١ ﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٢٢ ﴾ (يوسف)، لقد عاش يوسف عليه السلام في بيت العزيز وترعرع فيه، لكن حياته كانت تختلف عن حياة من هم في سنه من الشباب، فلم يعش حياة اللهو والعبث، بل عاش حياة فكر وتأمل وعلم، ودراسة واقعية فالحكمة تقتضي معايشة الواقع، والتأمل في تفاصيل التجارب المختلفة، كي يصدر الحكم على الأشياء من قاعدة الوعي العميق بطبيعتها، وطبيعة انطلاقها وحركتها.[1]

كما امتن الله سبحانه على داود وسليمان في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على من يشاء من عباده، ومن الملاحظ أن الله سبحانه وقد من عليهما بالعلم، شرفهما بوصف آخر وهو العبودية، ﴿اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ص١٧فمع العلم تأتي العبودية الخالصة لتتوج ذلك الملك.[2]

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل:١٥) ، جاءت كلمة "علما" نكرة لتدل على العموم، فالعلم الذي آتاه الله لسليمان يشمل العلم المعنوي الرباني،

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط٢٠٠٨/١ ص٤٢
[2] عباس، فضل، قصص القرآن الكريم، دار النفائس عمان ط٢٠٠٧/٢ ص٦٦٩

كما يشمل العلم المادي، المتمثل بالاختراعات والصناعات، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾الأنبياء ٨٠، "والآية تعلمنا كيف نتعامل مع العلم الموهوب بالشكر وإرجاع الفضل إلى أهله"[1].

والمؤمن مطالب بالسعي لتحصيل العلم النافع ، والصبر على مشقته، كما توحي بذلك قصة موسى مع الخضر: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾(الكهف:٦٥)، لقد عطفت الآية العلم على الرحمة، فرحمة الله بالعلم، وإذا كان العلم مقترنا برحمة الله، كان علما نافعا بنّاء إيجابيا، وإذا خلا العلم من الرحمة كان علما مدمرا مخربا.

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (الكهف:٦٦)، وأول قيمة نأخذها من عرض موسى على الخضر؛ السعي والرحلة في طلب العلم والحرص على الإكثار منه، فالعالم لا يتوقف عن السعي والتحصيل، ومن القيم المستفادة الأدب في طلب العلم، وفي مخاطبة المعلم لشيخه، وقول موسى عليه السلام "ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا " إشارة إلى الأدب في الصحبة والرحلة والسفر، فلا بد فيها من الصبر والتواضع، ولا بد من طاعة المسافر لأميره، إشارة إلى أدب من آداب طلب العلم، فلا بد للمتعلم من أن يطيع المعلم ويوقره، وأن يتأدب بين يديه، فعلى طالب العلم أن يتمتع بالأناة وسعة الصدر وأن ينتبه لما يقوله المعلم [2].

[1] الخضر، زكريا، القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان، بحث محكم ، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، ص٩٣، مج٦، عدد١.
[2] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨،ج٣ ص٣١٢.

وللعلم ثمرات، ومن ثمرات العلم الحكمة، والحكمة كما عرفها الإمام الراغب: " حكم: أصله منع منعا لإصلاح، وحكمت الدابة منعتها لحكمة، والحكمة ، إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات".[1]

وردت الحكمة في القرآن مرادفة للعلم في أكثر من آية، ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(البقرة:١٢٩)، ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾(آل عمران:٤٨)، ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة لا تحصل إلا بتعلم كتاب الله وشرعه وأحكامه.

ومن ثمار العلم النافع أنه يمنع صاحبه من الوقوع في الفتن، ومن ذلك ما قصه الله علينا في قصة قارون: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (القصص:٨٠)، إن العلم يعطي صاحبه البصيرة النافذة التي تريه الأمور على حقيقتها، إن هؤلاء المؤمنون نظروا إلى وضع قارون بمنظار العلم، ووزنوه بميزان العلم، فإذا به ليس شيئا رغم كثرة أمواله، لأنه في النهاية هالك خاسر ، ومن ثم فهو معذب شقي، أما الحقيقة التي لا شك فيها، فهي أن ما عند الله خير من مال قارون وكنوزه وزينته، لأن الإيمان والعمل الصالح هما طريق نيل ثواب الله تعالى.

والأصل بالعلم أن يقود صاحبه إلى العزة والرفعة، وهذا لا يكون إلا بالالتزام الصادق بدين الله وشرعه، فكل من قبل أحكام الله ورضي بها والتزمها، فقد نال العزة والرفعة والكرامة، وعكس ذلك الهبوط والذلة والمهانة، وهذا لا يكون إلا بالتخلي عن شرع الله ومنهجه، لهذا كان لزاما على العلماء الارتقاء بعلمهم واستخدامه في الرفعة والدعوة إلى القيم الربانية من خلال التمسك بشرع الله والدعوة إليه وبذل

[1] المفردات ،ص٦٦٢.

الغالي والنفيس في سبيله، من هنا حذر الله تعالى الناس عموما، والعلماء خصوصا أن يتنازلوا عن دينهم و يركنوا إلى متاع الدنيا الزائل من خلال قصة الذي انسلخ من آيات الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ ١٧٥ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ١٧٦ ﴾ (الأعراف).

"إن القصص القرآني له بعد واقعي، فهو ينطبق على واقع الناس في كل زمان ومكان، وهذه القصة لها بعدها الواقعي الذي يعيشه المسلمون اليوم، وهي تصوير لنماذج متكررة ممن وظف علمه الشرعي والديني لخدمة الظالمين والمتجبرين، يقول سيد قطب تعليقا على هذه القصة:" إنه مثل لكل من آتاه الله علما، فلم ينتفع بهذا العلم؛ ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ...إن المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة نظرية للدراسة .. إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة دافقة موقظة رافعة مستعلية؛ تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل."[1]

رابعا : قيمة العبادة

العبادة في اللغة تعني: التذلل والخضوع والانقياد والطاعة، يقال: عبد عبادة عبودية بمعنى: إنقاد وأطاع وخضع وذل[2].

والعبادة بمفهومها الخاص تعني: مجموعة الفرائض والشعائر الدينية التي شرعها الله تعالى، بقصد التقرب إليه بأقصى غايات الخضوع والتذلل، وبمفهومها العام، هي كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٣، ١٣٩٩/٩.
[2] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ج١٠ص١٠

وأفعال وأحاسيس، إذا قصد بها وجه الله تعالى،[1] وقد ذكرنا سابقا أن توحيد الألوهية في حقيقته هو توحيد العبادة.

إن من حكمة تشريع العبادة ،أن الله يريد من الإنسان أن يجاهد نفسه، ويربيها ويضبطها، ويكبح اندفاعها، فيستعلي على الشهوة المحرمة، وينتصر على ضعفه، وينمي معاني الخير في نفسه، ويكون أهلا لتكريم الله ودخول جنته، ولو لم يكن تكاليف لما عرف الصالح من الطالح، ولا القوي من الضعيف، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة:١٢٤)، لقد ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالتكاليف الشرعية، فقام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي وهو المراد بالكلمات في الآية

ويمكن تقسيم العبادة إلى قسمين: العبادات التي مناطها القلب، والعبادات التي مناطها الجوارح، وبما أن العبادات هي السمة الغالبة على المجتمعات الإيمانية، فإن القصة القرآنية أبرزت هذا الجانب في كثير من لقطاتها ومشاهدها، وفيما يلي بيان ذلك.

القسم الأول : العبادات التي مناطها القلب:

وردت في قصص الأنبياء مواقف كثيرة تبرز هذه العبادات ومنها:

١-**التوكل:** والتوكل في اللغة: إظهار العجز والاعتماد على الغير،[2] والمؤمن يعتمد على الله تعالى

---

[1] إسماعيل ، شعبان محمود ، العبادة في الإسلام، القاهرة، دار الشباب للطباعة، ط١، ص١٤.
[2] ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٧٣/١٥.

ومن صوره اعتماد الأنبياء وتوكلهم على الله ما كان من موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿ ٨٤ ﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ (يونس)، لقد طلب موسى عليه السلام من قومه التوكل على الله، لأن التوكل من أهم القيم الإيمانية، وبخاصة عندما يواجه المؤمن الباطل المنتفش.

وفي قصة مريم أمرها الله تعالى بهز جذع النخلة: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ (مريم:٢٥)، بمقدور الله تعالى أن ينزل عليها الرطب بدون جهد ولا حركة، ولكنه أراد أن تقوم هي بحركة مادية خفيفة وتهز جذع النخلة، لتأخذ بالأسباب، وهذا درس إيماني لها وللمؤمنين من بعدها لتأكيد الربط بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى.

٢- **الثقة بالله:** قال الإمام الراغب: الثقة: الائتمان والسكون والاعتماد[1]، ومثاله ما كان من موسى عليه السلام عندما أدركه فرعون وجنوده: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿ ٦١ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ ٦٢ ﴾ (الشعراء)، ذلك أنهم انتهى بهم السير إلى البحر فصار أمامهم، وكان فرعون قريبا من خلفهم يوشك أن يدركهم ويلحق بهم، فقالوا أنهم مدركون محاصرون، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن قال مقولة الواثق بربه "كلا إن معي رب سيهدين"[2].

٣- **الصبر**، ومن معانيه: حبس النفس عند الجزع [3]، يعد الصبر زاد الأنبياء والصالحين لمواجهة ابتلاءات الحياة، لقد صبر يعقوب صبرا جميلا على تآمر أبنائه الحاقدين الكاذبين قال تعالى: ﴿ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨)، والصبر

[1] المفردات ، ص٣٤٣.
[2] انظر : ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٤٤٨/٣.
[3] ابن منظور، لسان العرب ، ١٩٣/٨.

الجميل هو صبر دون جزع ولا إحباط، ولا يأس ولا قنوط ،ولا تذمر ولا شكوى، لارتباط معنى الصبر بحبس النفس عند الجزع ، وهذا هو سر جمال هذا الصبر.

ولم تفارق هذه الصفة يوسف عليه السلام في كل مراحل حياته، فالتزم بها في بيت العزيز فصبر عن اجتناب الفواحش، وفي السجن عندما سجن ظلما وبهتانا، وعندما تعامل مع إخوته، ومع ذلك كان يكرمهم ويحسن إليهم ولم يعاقبهم بل قابل إساءتهم بالإحسان، وعندما كشف لهم عن حقيقة شخصه فقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿ ٨٩ ﴾ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٩٠ ﴾(يوسف)، وجعل ذلك مناسبة لتقرير حقيقة إيمانية، يعلل بها لإخوته المشدوهين السبب في إنعام الله عليه، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه، إنه من يتقي ويصبر فإن الله لا يضيع أجر الصابرين.[1]

أما نبي الله أيوب، فقد صار اسمه قرينا بالصبر، ذكرت قصة أيوب عليه السلام ليقتدي أصحاب الابتلاء بهذا النبي الكريم، فيصبروا كما صبر، ويقبلوا على التوبة كما فعل، وينتظروا من الله الفرج، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣)، يدل قول أيوب عليه السلام ﴿ أني مسني الضر ﴾ على أن الله ابتلاه ابتلاء عاما لعموم وشمول كلمة " الضر"، وكان أيوب عليه السلام يلجأ إلى الله تعالى ليكشف عنه الابتلاء، وهذا مفهوم قوله:﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ والقيمة المستفادة من هذا المشهد، أن الأصل بالمبتلى أن يطلب من الله تعالى كشف ضره ، وأن يدعو الله تعالى بأدب اقتداء بأيوب عليه السلام، من غير تسخط أو اعتراض على قدر الله تعالى، وهذه القيمة من لوازم الإيمان بالله تعالى والرضا بقضائه وقدره.

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١،١٩٩٨،ج٢ص٢٢٧

٤- **التقوى:** ومدار لفظ التقوى يدور على الصيانة والحفظ والستر والحماية والحذر[1]. والتقوى وصية الله للمجتمعات الإيمانية قديما وحديثا: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴾(النساء:١٣١)، "فجعل الأمر بالتقوى وصية، لأن الوصية قول فيه أمر بشيء نافع جامع لخير كثير...والتقوى تجمع الخيرات لأنها امتثال للأوامر واجتناب للنواهي، لذلك قالوا: ما تكرر لفظ في القرآن ما تكرر لفظ التقوى"[2].

وقد وصى بها جميع الأنبياء أقوامهم، قال تعالى على لسان نوح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٠٦)، ودعا إليها إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت:١٦)، ودعا إليها عيسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الزخرف:٦٣).

٥-**التوبة:** وهي الرجوع عن الذنب[3]، ومن أمثلتها في القصة القرآنية، توبة موسى عليه السلام من سؤاله رؤية الله عز وجل، ﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأعراف:١٤٣)، لما سمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى طمع في رؤيته، يقول ابن عاشور:" ولا نشك أنه سأل رؤية تليق بذات الله كالرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا، حتى أعلمه الله أن ذلك غير واقع في الدنيا" [4]، والمتأمل في الآية يلحظ أن ما

---

1 ابن منظور ، لسان العرب ،٢٦٦/١٥.
2 ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٢، ٢٢٠/٥.
3 ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٤٤/٢.
4 ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٤، ٩١/٩.

صدر عن موسى عليه السلام لم يكن ذنبا بقدر ما كان اجتهادا ، ومع ذلك رجع عن طلبه واعتذر من ربه ، ليبين لنا قيمة نفيسة في أدب التعامل مع الله جل في علاه .

٦- **الشكر**: ومعناه: عرفان الإحسان ونشره [1]، وكان الأنبياء عليهم السلام الأسوة الحسنة للمؤمنين الشاكرين، لقد أثنى الله على نوح عليه السلام لأنه كان شاكرا ، ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ (الإسراء:٣)، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ١٢٠ ﴾ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿ ١٢١ ﴾ (النحل)، قال الإمام الراغب في معنى الأمة: "يقال لكل ما كان أصلا لوجود الشيء أو تربيته أو صلاحه أو مبدأه: أمة، والأمة كل جماعة يجمعهم أمر واحد، إما دين واحد أو مكان واحد، وقوله: إن إبراهيم كان أمة، أي قائما مقام جماعة في عبادة الله" [2].

إن هذه اللفظة تعطينا بعدا جديدا لمفهوم الشكر ، لما تحمله من معنى يرتقي بمفهوم هذه العبادة ، وينزلها منزلة كأنها دين بحد ذاته .

وفي الشكر استزادة من النعم كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٧)، وفيه إصلاح للقلب، وتحرز من البطر، واتصال بالله[3]، وسير الأنبياء حافلة بشكرهم لله قولا وعملا، وهم الذين اختصهم الله بالنبوة وفضلهم على العالمين. ونبي الله سليمان عليه السلام، كان يقابل نعم الله بالشكر: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل:١٩).

---

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، ١١٥/٨.
[2] المفردات ، ص٦١.
[3] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٣، ٩ /١٣٧٠.

ولا يخفى أن هناك الكثير من العبادات القلبية التي أشارت إليها القصة في القرآن كقوله تعالى في حق إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (هود:٧٥)، فهذا هو مفتاح شخصية إبراهيم عليه السلام، فهو حليم من الحلم وسعة الصدر والأناة، وأواه كثير التأوه والتّحزن قال الإمام الراغب:"الأواه الكثير التأوه، ، وكل كلام يدل على الحزن يقال له الأوه، ويعبر بالأواه لمن يظهر خشيته لله تعالى"[١]. ومنيب من الإنابة وهي الرجوع الدائم إلى الله قال الراغب:" التوب رجوع الشيء مرة بعد مرة ، والإنابة إلى الله الرجوع إليه مرة بعد مرة "[٢]. قال الأمام الطبري:" إن إبراهيم خليل الله كان معلم خير يأتم به أهل الهدى، وكان قانتا مطيعا لله، وكان حنيفا مستقيما على دين الإسلام"[٣].

القسم الثاني : العبادات التي مناطها الجوارح

١- **الصلاة:** تعد الصلاة من أعظم العبادات وأرفعها شأنا ، فهي سكينة للنفس ، وطهارة للروح ، ومظهر العلاقة الحقيقية بين الخالق والمخلوق ، وكل نبي دعا قومه إلى الصلاة باعتبارها أم العبادات، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس: ٨٧) وفي قصة مريم قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(آل عمران:٤٣)، قال الإمام الألوسي:" والقنوت إطالة القيام في الصلاة،﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد من ذلك كله الأمر بالصلاة إلا أنه أمر سبحانه بها بذكر أركانها مبالغة في إيجاب المحافظة عليها لما أن في ذكر الشيء تفصيلاً تقريراً ليس في الإجمال، ولعل تقديم السجود على الركوع... لكونه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع، وفي الخبر "أقرب ما يكون العبد

---

[1] المفردات ، ص١١٤.
[2] المرجع السابق، ص ٢٣٩
[3] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، لبنان، دار الفكر، ٢٠٠٥م، مج٨، ٢٢٢/١٤.

من ربه وهو ساجد" [1]، لهذا واظب عليها الأنبياء، فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ".[2]

"إن الصلاة تجعل الإنسان على اتصال دائم بالله تعالى، مما يجعلها قوة تمد ضمير الإنسان المؤمن بما يعينه على فعل الخير وترك الشر، كما أنها تقوي نفس المؤمن بما يصدُّ عنه الجزع والهلع عند الملمات، فهي تغرس في القلب مخافة الله ومراقبته، كما أنها تنمي في نفس المؤمن الدقة في الحفاظ على مواعيدها، وتدفعه بقوة داخلية ليتغلب على نوازع الكسل والضعف والهوى، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴿ ١٩ ﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴿ ٢٠ ﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴿ ٢١ ﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿ ٢٢ ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ (المعارج)".[3]

٢- **الزكاة:** إن فريضة الزكاة تعتبر بمثابة الرابط بين الإنسان وربه من ناحية، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى، فالمسلم مرتبط بالمجتمع ومن واجبه أن يكون متعاونا مع بقية أفراده، شاعرا بحاجات الفقراء من أبنائه، فالزكاة تشريع إلهي يحفظ للفرد استقلاله، ويحفظ للمجتمع حقه على الفرد من خلال التضامن مع بقية أبنائه، لقد وصف الله أنبياءه عليهم السلام بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٣) ومن ثم طلب الأنبياء من أقوامهم أداء هذا الركن العظيم طاعة لله، وتعاونا مع المحتاجين من إخوانهم ، فكانت الزكاة بحق سمة من سمات المجتمعات الإيمانية: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج:٤١).

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٥١/٢.
[2] رواه البخاري، كتاب احاديث الانبياء، باب : أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، ص٦٢٩،حديث ٣١٦٧.
[3] إسماعيل ، شعبان محمود ، العبادة في الإسلام، القاهرة، دار الشباب للطباعة، ط١،ص١١٠

وقد ذمّ الله تعالى بني إسرائيل على تقصيرهم بهذه العبادة التي تكفل للنسيج الاجتماعي القوة والترابط وسد العوز والحاجة، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾ (البقرة:٨٣)، والنظم يوحي بعدم اقتصار الذّم على بني إسرائيل، بل يتعداه لكل جماعة تدعي الإيمان والإسلام وتتهاون في أداء هذه العبادة العظيمة.

٣- **الصيام:** تعتبر عبادة الصيام من العبادات البدنية التي فرضها الله تعالى على الأمم السابقة في المجتمعات الإيمانية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، يقول الإمام الرازي:" الصيام مصدر صام كالقيام، وأصله في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له ...والمعنى أن هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم، ما أخلى الله أمة من إيجابها عليهم لا يفرضها عليكم وحدكم وفائدة هذا الكلام أن الصوم عبادة شاقة، والشيء الشاق إذا عم سهل تحمله".[١]

وللصيام مظهر اجتماعي يتمثل بوحدة الأمة واتصالها بحبل المودة فيما بينها، وهو مجال تقرير الإرادة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، إيثاراً لما عند الله من الرضى والمتاع، وهذه كلها عناصر لازمة في إعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك[٢].

---

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٦٢/٥.
[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ١٦٧/٢.

وقد ذكرت القصة القرآنية إشارات بينت فيها هذه العبادة، يقول تعالى في معرض الحديث عن قصة مريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ (مريم:٢٦).

٤-**الحج:** أمر الله إبراهيم عليه السلام بهذه العبادة العظيمة فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:٢٧). والحج هو مؤتمر المسلمين الجامع، الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام... وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين في الحج، على أساس من التصور الذي هدى البشرية إليه. أساس المساواة، وأساس الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقة، ولا يفرقها جنس، ولا تفرقها لغة، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعاً.[١]

٥-**الذِكر**:ومعناه الحفظ، ويراد به حضور الشيء في القلب أو القول[٢]، والذكر بإطلاقه يدخل فيه الصلاة والعلم والنافع والتسبيح والتكبير والتهليل[٣].

والذكر من أجل العبادات لما له من أهمية تعبدية، لعظم أجره وثوابه، وله قيمة حضارية في المجتمعات المؤمنة لما يمثله من حضور دائم ويقظة متمثلة بالإحسان ، فيكون قلب ولسان العبد حاضرا على الدوام، وقد نال الذكر حيزا كبيرا في قصص الأنبياء، فقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بهذه العبادة العظيمة:﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه:٤٢)، ومعنى قول الله تعالى: "ولا تنيا في ذكري": لا تضعفا عن ذكري، ولا تكسلا ولا تتوقفا عن ذكري، قال ابن كثير في تفسير قوله:

---

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ٢/٢٠٠.

[2] المفردات ، الراغب ، ص٢٣٩.

[3] النووي، يحيى بن شرف،الأذكار ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٣٠

"ولا تنيا في ذكري": المراد لا يفتران في ذكر الله، بل يذكرا الله في مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة وسلطانا لهما"[1].

ومن ثمرات كثرة الذكر والتسبيح، أن الله ينجي المؤمن من الكربات والمصائب كما حدث ليونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (لصافات)، سجلت القصة القرآنية لجوء يونس عليه السلام إلى الله تعالى في هذه الظلمات الحسية والمعنوية، فما كان منه إلا أن استغاث بالله المغيث وتضرع إلى الله بقلب الواثق وقال: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" إنه أعلم الخلق بمضمون لا إله إلا الله لهذا نطق بها في تلك الظلمات، فاستجاب الله له ونجاه من الغم ، وبين لنا قيمة اللجوء إلى الله فقال تعالى : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾

٦- **الدعاء:** ومن معانيه العبادة والاستغاثة والنداء والسؤال والطلب، والثناء على الله[2]. والدعاء هو السمة البارزة للأنبياء والصالحين، وسيرهم حافلة بالتضرع والتوجه إلى الله بكل شؤونهم الدينية والدنيوية، ومن الأمثلة عليه دعاء يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ (يوسف)، إن من صفات الشخصية المسلمة التضرع والإنابة إلى الله، وهذا الدعاء من يوسف عليه السلام يختصر أهم الدروس المستخلصة من قصته، وكأن يوسف عليه السلام يعلم كل مسلم أن يمتثل هذا الدعاء، وأن يجعله هدفا له، وأن يحيا به على الأرض، لقد أسند يوسف العطاء إلى الله، ونسب الفضل إليه في أهم النعم، نعمة المنصب والسلطان ونعمة العلم والإيمان.

[1] ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٢٠٧/٣.
[2] ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٦٧/٥.

ومن دعاء موسى عليه السلام عندما توجه إلى مدين ووجد المرأتين تذودان ولا تسقيان، شعر نحوهما بالشفقة والرأفة: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤)، لقد توجه إلى الله بالدعاء يناجي ربه ويعلن مدى الحاجة والافتقار إلى الله، فهو لا يملك شيئا، ولا يعرف أحدا في هذه الديار الغريبة ، وهو لا يعلن حاجته إلا إلى الله، ولا يطلب إلا من الله، ومن ثمرات هذا الإيمان الراسخ وهذه القيم العظيمة أن الله استجاب له وساق له الفرج من حيث لا يحتسب. ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (القصص: ٢٥).[١]

وقصص الأنبياء عليهم السلام تزخر بالدعاء واللجوء إلى الله تعالى، لترسيخ قيم العبادة عند المؤمنين في كل زمان زمكان.

إن التزام أفراد المجتمعات المؤمنة بالعبادة المطلوبة على أكمل وجه، تنعكس آثاره على المجتمع، فيصان المجتمع من كل عوامل الانحراف والفساد والانحلال، لأن هذه العبادات تنهى المؤمن عن كل فساد وكذب وخيانة، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والغاية من الصيام التقوى، والتقوى تردع الإنسان عن كل ما يخالف أوامر الله تعالى، وبهذا تضمن العبادات يقظة الضمير الإنساني تجاه الله تعالى، فتنعكس آثارها رحمة ومودة وإيجابية على أفراد المجتمع المسلم، لتتشكل الحضارة المثلى على المستوى البشري الذي أراده الله تعالى لخليفته على الأرض.

[1] الخالدي، صلاح،القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٢/ ٣٣٠

المطلب الثاني : القيم الاجتماعية

أقام الإسلام منظومته الاجتماعية على أساس الذكر والأنثى كشريكين في الحياة، وعلى منظومة العقيدة بكل ظلالها وتوجيهاتها المتعلقة ببناء الفرد والأسرة ومن ثم المجتمع، وقد ركزت العقيدة على مبدأ الأخوة كرباط في المجتمع فوق رباط المواطنة، ولئن كانت معظم النظريات الاجتماعية تسعى إلى خلق المواطن الصالح، فإن النظرية الاجتماعية الإسلامية تسعى إلى خلق ما هو أوسع من المواطنة، وهو الإنسان الصالح ومن ثم الإنسان المصلح ، والذي بالضرورة سيكون مواطنا صالحا.

ولكي تستقيم هذه الرابطة ، لا بد أن تسود في المجتمع الأخلاق الفاضلة، وتظله راية العدل والمساواة بين الناس أمام القضاء، ولا بد أن تكون لهذا المجتمع نواة لتنشئة أفراده، وهذه النواة هي الأسرة، وأصل النواة هي العلاقة الطيبة بين الرجل والمرأة من خلال مؤسسة الزواج، ولتحقيق كل هذا لا بد من انحسار دائرة المنكر واتساع دائرة المعروف، وسوف ننظر في القصة القرآنية لكي نبرز هذه القيم في المجتمعات الإيمانية ، باعتبارها الامتداد التاريخي لمجتمعات المسلمين اليوم.

أولا : القيم الأخلاقية

" تعتبر القيم الأخلاقية مركز الثقل في حضارات الأمم، وشحنات الدفع في مسيرتها، وتكاد علاقتها المؤكدة بالنمو الحضاري تبدو طردية باستمرار على مستوى الكيف والكم، فكلما التزمت جماعة ما بالقيم الأخلاقية، وسعت إلى صقلها وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية تمكنت من حماية وحدتها ومدّ عمرها الحضاري، وإبعاد شبح التدهور والسقوط، وكلما بدأت أمة ما بالتخلي عن هذه الالتزامات

وطرحها جانبا، ولم تسع لبلورتها وتعميقها في الممارسات الاجتماعية، عرّضت وحدتها للتفكك وآذنت معطياتها الحضارية بسوء المصير" [١].

والمتأمل في القصة القرآنية يجد أن الأنبياء والمؤمنين والصالحين كانوا ملتزمين بالمنظومة الأخلاقية دعوة وسلوكا وتطبيقا، وفيما يلي بيان لأهم عناصر المنظومة الأخلاقية:

١- **بر الوالدين:** عرف العلماء البر بأنه كلمة جامعة لكل صفات الخير، من هنا فالبر يشمل الخير والفضل والطاعة، ويطلق في الأغلب على الإحسان بالقول اللين والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحة،[٢] وعلى هذا يكون بر الوالدين هو الإحسان إليهما والطاعة لهما في غير معصية، وبذل الجهد للفوز برضاهما، وأداء حقهما في حياتهما.

وقد أمر الله تعالى الشعوب المؤمنة بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (الإسراء:٢٣)، إن لفظ القضاء يعطي لقيمة البر بعدا أوقع في النفس ، يقول الإمام الرازي: "القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ.. ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه.. وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين.. إن اهتمامهم بإيصال الخيرات، وفي دفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات.. فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين،[٣]ومن أمثلة البر في القصة القرآنية ما كان من نبي الله إبراهيم عليه السلام وبره بأبيه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴿٤٢﴾ (مريم).

---

[1] خليل، عماد الدين، الوسيط في الحضارة الإسلامية، الأردن، دار حامد،ط١، ٢٠٠٤م ، ص٣١٧

[2] ابن منظور، لسان العرب، ٥٨/٢.

[3] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٥٠/٢٠-١٥١. باختصار

هنا يضرب إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة في بر الوالدين، وهذا ملاحظ في أسلوبه ومنطقه وحواره ، كما ويظهر بره جليا في حرصه وإشفاقه على أبيه مع أن والده عامله بمنطق الغلظة والحدة والتشنج يقول سيد قطب:" إن شخصية إبراهيم الرضي الحليم.. تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكيها القرآن الكريم، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه، كما تتجلى رحمة الله به وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفيها الصالحون[١]،

٢- **الحياء:** قال الإمام الراغب:" الحياء: انقباض النفس عن القبائح وتركها"[٢]، والحياء فضيلة من فضائل الفطرة كما بينته قصة آدم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف:٢٢)، إن هذا التصرف من آدم عليه السلام وحواء في تغطية السوءات تصرف فطري فوري سريع، وقصّ الله علينا هذا المشهد من قصة آدم عليه السلام، ليبين لنا أن الحياء والستر متأصل في النفس الإنسانية السوية، وأن كشف العورات تصرف جاهلي شاذ يخالف هذه الفطرة.

"إن الحياء في الحقيقة جزء من الإيمان، والمراد به أن تشعر نفس المرء بانقباض فطري من السيئة والمعصية، والذي يكون على هذه الصفة، فإنه لا يجتنب القبائح في نفسه فحسب، بل لا يصبر على رؤيتها في غيره أيضا."[٣]

وتطالعنا قصة موسى عليه السلام بهذا المشهد الحي المؤثر: ﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ ﴾ (القصص:٢٥)، لقد صور القرآن حالتها عندما أتت موسى "تمشي على استحياء" وكأن الآية تهمس بأن أبرز قيم الفتاة المؤمنة الصالحة الحياء والأدب.

---

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٣١١/١٦.
[2] المفردات ،ص١٩٠
[3] المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية، ١٩٧٩ص٢٢٨

٣-إكرام الضيف: من قيم أهل الإيمان كرم الضيافة، والقرآن الكريم يساعد على توضيح هذه القيمة وتجليتها من خلال قصة ضيف إبراهيم ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾(هود:٦٩)، حيث سارع إبراهيم عليه السلام بتقديم الطعام لضيوفه، وكان كرمه منقطع النظير عندما قدم لهم عجلا مشويا مع أن عددهم قليل، وهذا دليل على مبالغته عليه السلام في إكرام الضيف، وهو قدوة لأهل الإيمان، الذين يسيرون على سير الأنبياء والمرسلين، وشتان بين هذا الموقف، وبين ما حدث مع موسى عليه السلام والخضر عندما مروا على أهل قرية، وكان الجوع قد بلغ منهم مبلغا، وطلبوا الضيافة طلبا، ومع ذلك لم يضيفوهم وأغلقوا الأبواب أمامهم.

ومن الأمثلة الأخرى دفاع نبي الله لوط عليه السلام عن ضيوفه، لقد حاول قوم لوط عليه السلام أخذ ضيوفه وطالبوه بتسليمهم ليفجروا بهم، لكنه أبى أن يفعل ودافع عن ضيوفه دفاع المستميت، بكل وسيلة ممكنة، حيث قال لهم: ﴿ اتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾ (هود: ٧٨)، والمتأمل في الآية يلحظ أن لوط عليه السلام خاطب قومه بمنطق المروءة وأثار فيهم معاني الحياء.

والمروءة والحياء يقتضيان أن لا يصل بهم الأمر إلى الاعتداء على ضيوف أحد سكان القرية عنوة، لهذا قال لهم: ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾؟ يستخدم عقله ورشده فيساعد في الوقوف أمام الجنون الشهواني المسعور؟ [1]

وهذه قيمة عظيمة تحثنا على إكرام الضيف ودفع الأذى عنه، وبذل أقصى الجهد والطاقة في ذلك، اقتداء بنبي الله لوط عليه السلام.

---

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ١/٥٠٠

٤- **العفة:** العفة هي الكَفُّ عما لا يَحِلّ ويَجْمُلُ، وقيل الاستعفاف الصبْر والنَّزاهة عن الشيء ومنه الحديث اللهم إني أَسأَلك العِفّة والغِنى، والعَفِيفة من النساء السيدة الخَيْرةُ، وعَفٌّ عن المسأَلة والحَرْصِ والجمع.[1]

ومن التعريف السابق يتضح أن لهذا الخلق العظيم عدة صور، كالتعفف عن المال، والتعفف عن المحارم والشهوات، ومثال التعفف عن المال في القصص القرآني، ما حدث مع سليمان عليه السلام، عندما جاءته الهدايا من ملكة سبأ: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿ ٣٦ ﴾(النمل)، وما من رسول ولا نبي إلا قال لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(الشعراء:١٠٩).

وهناك التعفف عن الشهوات المحرمة، كما حدث مع يوسف عليه السلام، حين دعته امرأة العزيز لنفسها فقال: ﴿ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(يوسف:٢٣)، وحين اجتمعت عليه نساء المدينة، وهدد بالسجن إن لم يرضخ لرغباتهن، ما كان منه عليه السلام إلا أن لجأ إلى الله بتضرع وخشوع وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(يوسف:٣٣).

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية:" وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، إنه مع شبابه

[1] ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٨/١٠.

وجماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه"[1].

٥- **الصدق** : الصِّدْق نقيض الكذب، يقال صَدَقْتُ القومَ أي قلت لهم صِدْقاً، والصِّدِّيقُ الدائمُ التَّصْدِيقِ ويكون الذي يُصَدِّقُ قولَه بالعمل.[2]

وكان هذا الخلق ملازما للأنبياء والصالحين، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾(مريم:٥٤)،إن المعنى اللغوي للصدق يساعد على توضيح المعنى في النظم، قال الإمام الألوسي:" إذا روعي الصدق في المواطن كلها كالخاطر والفكر والنية والقول والعمل صدقت الأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات، فهو أصل شجرة الكمال وملاك كل خير وسعادة "[3]. وكان يوسف عليه السلام يلقب بالصديق ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾(يوسف:٤٦)، وهنا قيمة أخرى تظهرها دلالة الآية ، لأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، و الصِّدِّيقُ درجة أسمى من الصدق، والمتأمل لسيرة يوسف عليه السلام يلحظ هذا الملحظ، فيوسف عليه السلام صادق في كلامه، وفي تأويل أخباره، وفي وناصح في صحبته وصداقته، يؤكد هذا قوله تعالى عن مريم عليها السلام :﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾(المائدة:٧٥)، يقول الإمام الرازي: "وفي تفسير ذلك وجوه: أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها . قال تعالى في صفتها: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ ،وثانيها : أنه تعالى قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾، فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة، وثالثها: أن المراد بكونها صديقة غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة

[1] ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٦٢٧/٢.
[2] ابن منظور، لسان العرب، ٢١٤/٨.
[3] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،٥٢/٦.

مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقاً قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين ﴾[1].

٦-**العزة:** العِزُّ خلاف الذُّلِّ والعِزُّ في الأَصل القوة والشدة والغلبة والعِزَّة الرفعة والامتناع.[2]

فالعزة صفة من صفات المؤمنين، ومن صورها المطالبة بالحقوق، لقد ترفع يوسف عليه السلام وامتنع عن الخروج من السجن، لأن خروجه جاء على صورة عفو من الملك، ولم يكن نتيجة تحقيق في القضية أثبت براءته ، وهذه القيمة من الأهمية بمكان إذا أخذنا بالاعتبار أن من أكبر أسباب الفساد تراخي الناس عن المطالبة بحقوقها، مما دفع الفاسدين إلى التمادي في الفساد حتي عمَّ المجتمع، وأصبح وباءا يصعب التخلص منه ، وكان من نتائج ترفع يوسف وعزته، أن الملك أعاد التحقيق في القضية، وخرج بنتيجة براءة يوسف عليه السلام ، ووقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه، فقال: ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾(يوسف: ٥٤).

يعلق سيد قطب على هذا الموقف العظيم من يوسف بقوله :"فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام وهم أبرياء، مطلقو السراح، فيتهافتون على نظرة رضا وكلمة ثناء، يا ليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز، تدر من الربح حتي المادي أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء"[3].

٧- **كظم الغيظ:** في قصة ابني آدم يقول الله تعالى :﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴿ ٢٨ ﴾ (المائدة)،إن القصة تظهر لنا لطيفة دقيقة ، وهي أن الأخ المقتول

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٥٢/١٢.
[2] ابن منظور، لسان العرب، ١٣٤/١٠.
[3] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٠٠٥/١٣.

بين سبب سكوته عن مقابلة الإساءة ،﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾، إن مراقبة الله، والاستعلاء على دوافع النفس بالانتقام، ورجاء تحصيل الأجر المترتب على كظم الغيظ، هو السبب الذي من أجله يدفع المؤمن الإساءة بالإحسان، لقد قال إخوة يوسف عليه السلام زورا وبهتانا: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:٧٧)، لقد كان بإمكان يوسف عليه السلام أن يرد على التهمة، وأن يبرئ نفسه منها، لكن يوسف أسرها في نفسه وكظم غيظه، إن هذه القيم النبيلة لا تجدها إلا في المجتمعات المؤمنة، لأن تقوى الله في الأقوال والأفعال هو الذي يحفظ للمجتمعات وحدتها، ويحول دون تمزقها وتفرقها.

٨- **النجدة:** النَّجْدة: الشجاعة، وجمع نَجِد أَنجاد ورجُل نَجْدٌ ونَجِيدٌ شجاع ماض فيما يَعْجِزُ عنه غيره وقيل هو الشديد البأس وقيل هو السريع الإجابة إلى ما دُعِيَ إليه،[1] وكل هذه المعاني يظهرها النظم من خلال قصة موسى عليه السلام ، يقول تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾(القصص:١٥)، لما سمع موسى عليه السلام استغاثة الإسرائيلي، تذكر ما يلاقيه شعبه من ظلم وإذلال، فتوجه نحو الرجلين ووكز القبطي المعتدي، "والوكز: الطعن، والدفع والضرب بجميع الكف"[2]، وهو موقف نبيل يدل على أصالة هذا الخلق في النفس المؤمنة.

ولما توجه موسى عليه السلام إلى مدين، كان له موقف آخر في نجدة المحتاج الضعيف: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ

[1] ابن منظور، لسان العرب ، ١٩٤/١٤.
[2] المفردات ، ص ٦٨٧.

كَبِيرٌ ﴾(القصص:٢٣)، لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين، وقد بلغ الإعياء منه مبلغ ،فاستظل تحت شجرة ، لكنه اطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس الغيورة، وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء، والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما.

"فثارت نخوة موسى عليه السلام، وتقدم لإقرار الأمر في نصابه، تقدم ليسقي للمرأتين أولاً، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة، وهو غريب في أرض لا يعرفها، لا سند له فيها ولا ظهير، وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد، وهو مطارد، من خلفه أعداء لا يرحمون، ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس، مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله"[1].

٩- **العفو والصفح:** العَفْوِ هو التَّجاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العِقابِ عليه وأَصلُه المَحْوُ والطَّمْس، وكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبةً فَتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه،[2] والصفح: نسيان الإساءة، وإزالة أثرها من القلب، وهو أبلغ من العفو، و صَفَحَ عنه يَصْفَح صَفْحاً أَعرض عن ذنبه،والصَّفُوحُ الكريم لأَنه يَصْفَح عمن جَنى عليه[3]، والعفو والصفح من أخلاق الأنبياء والصالحين، وما حدث مع يوسف الصديق عليه السلام خير مثال على ذلك، فقد حسده إخوته على حب أبيه له، فكادوا له، وألقوه في البئر، وحدث ما حدث، وحين آتاه الله الملك، وجاءه إخوته يطلبون الطعام، وقالوا عنه قولتهم: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" وكان بإمكانه أن يقتص منهم ويعاقبهم، بعد كل تلك الإساءات عفا عنهم وصفح عن ذنبهم، بل ودعا لهم بالمغفرة، وقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢).

---

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٢٦٨٦/٢٠.
[2] ابن منظور، لسان العرب ،٢١٠/١٠.
[3] ابن منظور، لسان العرب، ٢٤٨/٨.

كذلك فعل يعقوب عليه السلام بعد أن اعترف أبناؤه بذنبهم فقال لهم: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(يوسف:٩٨). قالها بعدما تسببوا له بكل هذا الألم جراء فقدان أصغر أبنائه وأحبهم إلى نفسه، فعفا عنهم، واستغفر لهم.

بعد هذا العرض لأخلاق الأنبياء عليهم السلام، يمكن القول بأن الحضارة الإيمانية هي: منظومة من القيم التي تهدف إلى تكريم الإنسان. ولأن الأخلاق في أبسط غاياتها هي تحقيق السعادة للفرد والمجتمع والدولة، فالحضارة كذلك في أبسط غاياتها هي تكريم الإنسان وتحقيق السعادة له، فلا سعادة بغير أخلاق، إذن فالحضارة هي الأخلاق لأنها تعطي معنى للحياة وبها تغدو متناغمة مستقرة .

و تكامل الأخلاق في المجتمع معناه: عمارة الأرض وتحقيق الحضارة الإسلامية المنشودة، التي يسعد العالم بإقامتها ويخسر بغيابها.

فالحضارة الإيمانية مجموعة متكاملة من القيم الراقية التي تحقق لأمة من الناس نفعاً وسعادة ماديا ومعنويا في كافة مناحي الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا وغيره وكل ناحية من النواح لا تكون راقية ولا متطورة بغير الأخلاق، وبهذه المنظومة المتكاملة لجوانب الحياة تترقى الإنسانية وهذا هو ما يسمى التطور الحضاري المنشود الذي يحقق النفع والسعادة للبشرية فكل تطور يثمر عملاً نافعا للناس يصبح ذا قيمه حضارية.

ثانيا : قيمة الأسرة .

تعتبر الأسرة في التصور الإسلامي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، والركيزة الأساسية التي يقوم عليها صرحه المتين، وبقدر تماسكها المستمد من العقيدة الإيمانية والقيم الأخلاقية، تتوقف البنية الاجتماعية في قوتها وسلامتها وفاعليتها، وقدرتها على الاستقرار والعطاء، فهي الرافد الأول المسؤول عن صلاح الأمة، والمسؤول الأول عن حمل الرسالة الإيمانية إلى البشرية كافة.

والأسرة في اللغة: الدرع الحصينة، وأهل الرجل وعشيرته، وتطلق على الجماعة يربطها أمر مشترك[1]، وقد استبدل الإسلام الولاء للعرق والدم بالولاء للعقيدة، وجعله الأمر المشترك بين أفراده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة:٢٣)، وعمل على تهذيب عواطف الدم والعرق، فللعشيرة والأقارب الحب والنصرة إذا انصهروا في بوتقة الإسلام[2].

وعلى ضوء ذلك نفهم قول الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود).

وقد حثّ الأنبياء عليهم السلام على تكوين الأسر من خلال الزواج، وشجعوا أقوامهم عليه، وقصصهم حافلة بالشواهد على ذلك، فقد حثّ لوط عليه السلام قومه إلى هذه السنة الربانية عندما قال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود:٧٨).

[1] المعجم الوسيط ١٨/١

[2] الابراهيم، محمد عقله، نظام الأسرة في الإسلام ، الأردن، مكتبة الرسالة، ط٢، ١٩٨٩م، ١/ ٢١ .

لقد دعا لوط عليه السلام قومه الشاذين إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، من خلال دعوته لقومه بترك الشذوذ، والتوجه إلى النساء لا يفهم منه الاتصال المحرم، فالمراد أنه عليه السلام دعاهم إلى التزوج بهن[١]، لأن معاني الطهارة في قوله "هن أطهر لكم" تأبى هذا الفهم ،وإنما قصد الزواج الشرعي الذي يشمل الطهارة النفسية، والطهارة الشعورية والطهارة الصحية والطهارة الأخلاقية والطهارة الاجتماعية الحضارية المبنية على تقوى الله واتباع أوامره .

وفي هذا السياق يستوقفنا مشهد الشيخ المؤمن في قصة موسى عليه السلام، وهو يختار عن الزوج الصالح لبناته: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿ ٢٨ ﴾ (القصص).

إن من حكمة ذاك الشيخ أنه هو الذي عرض على موسى عليه السلام أن يزوجه إحدى بناته، ولم يجد حرجا من ذلك، لقد وجد في موسى عليه السلام صفات الصلاح ومكارم الأخلاق ، وهو لا ينظر إلى الأمور المادية بقدر اهتمامه بالأولى والأصلح لبناته، و بهذا يؤكد قيمة من قيم مجتمعات الإيمان، وهي أهمية الأسرة والزواج الشرعي باعتباره الوسيلة الوحيدة للعلاقات بين الجنسين، فالأب الحكيم يبحث لابنته عن الزوج الصالح، باعتبار أن الدين والخلق من أهم صفات الزوج المناسب، وهو عين ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال:" إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"[٢].

---

[1] المرجع السابق ٢٧/١٨

[2] رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه، ص٢٦١، حديث رقم:١٠٨٥، حسنة الألباني.

فالشيخ يقول لموسى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص:٢٧)، فهو حريص على تيسير المهر، ويخبره أنه سيكون صالحا معتمدا في ذلك على الله تعالى. وموسى يرد على صهره بقوله: ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (القصص:٢٨)، فهو ملتزم بالمطلوب، وسيتكرم بزيادة سنتين، وهو في هذه المدة معتمد على الله تعالى.

ومن أهم أهداف الزواج في المجتمعات المؤمنة، طلب الذرية الصالحة، ويطالعنا مشهد زكريا عليه السلام وهو يدعو ربه الدعاء الخافت المصحوب بالأدب والإنابة والرجاء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴿٦﴾ (مريم).

إن السبب الذي جعله يطلب الولد، هو خوفه من الموالي قال ابن كثير:" أراد بالموالي العصبة...ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدا، يكون نبيًّا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده... وقوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أي مرضيا عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه."[1].

وفي سورة آل عمران قال زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴿٣٨﴾ (آل عمران)، قال ابن عاشور:" وسأل الذرية الطيّبة لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة"[2]، إن زكريا عليه السلام يريد أن تكون ذريته طيبة طائعة لله تعالى، فالغاية ليست الولد، إنما الولد

[1] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ١٥٢/٣.
[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٢، ٢٣٨/٣.

الصالح ليكون أهلا للخلافة التي كلفه الله بها، وشتان بين من قام بتربية أبنائه على طاعة الله وحفظ أوامره، وبين من ترك أولاده دون تربية ولا توجيه ، فكانوا ضحية للشهوات والشبهات.

واستجاب الله لدعاء زكريا عليه السلام ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:٣٩)، فكان يحيى مصدقا لما جاء به المرسلون من حقائق الإيمان بالله تعالى، وكان سيدا شريفا في قومه لما اكتسبه من العلم والحكمة في بيت النبوة، وكان عليه السلام حصورا لنفسه من الوقوع في الفواحش والانغماس في الشهوات، قال ابن كثير: "والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور، ليس معناه أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلائل وغشيانهن" [1].

ومن نماذج الأسر المؤمنة أسرة آل عمران، التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣)، وعمران المذكور في قصة مريم ليس عمران والد موسى عليه السلام، كما أن هارون شقيق مريم ليس هارون النبي شقيق موسى عليه السلام، أخرج مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران، فقالوا: ألستم تقرأون: ﴿يا أخت هارون﴾؟ قلت: بلى، قالوا: وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ فرجعت إلى رسول الله فأخبرته، فقال: ألا أخبرتهم بأنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟[2].

وتعتبر الأم الصالحة الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الأسرة، وهذه قيمة مهمة تركز عليها القصة في القرآن: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران:٣٥)، قال سيد قطب: "وقصة النذر تكشف لنا عن قلب امرأة عمران – أم مريم – وما يعمره من إيمان، ومن

[1] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٤٨٢/١.
[2] رواه مسلم، كتاب الاداب، باب النهي عن التكني بابي القاسم، ص٨٤٨، حديث رقم:٢١٣٥.

توجه إلى ربها بأعز ما تملك. وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربها، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه[1].

لقد اعتبرت امرأة عمران تنشئة الأجيال المؤمنة الهدف الأسمى في حياتها، لأنها تدرك الغاية التي خلقها الله من أجلها، فهي بهذا العمل تسهم أكبر الإسهام في تأسيس الأمة المؤمنة، وما فائدة المرأة إذا وصلت إلى أرفع المناصب وقد ضيعت أولادها فلم يعرفوا الله تعالى؟

ولأن الأسرة لها الدور الأكبر في تربية الأبناء، تقدم لنا القصة القرآنية نموذجا عمليا للآباء في تعاملهم مع الأبناء من خلال وعظ لقمان لابنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿ ١٣ ﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿ ١٤ ﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٥ ﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿ ١٦ ﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ ١٧ ﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ ١٨ ﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ ١٩ ﴾ (لقمان) .

لقد جاءت قصة لقمان لتبين للأسرة المؤمنة أبرز المبادئ والقيم التي يجب أن يغرسوها في أبنائهم، كما يجب أن تشمل التربية للأبناء كل موضوعات الإسلام العامة، كالعقيدة السليمة، والقيم الأخلاقية، والفضائل السلوكية، فموعظة لقمان لابنه كانت شاملة لكل هذه المعاني.

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ٣٩٢/٣.

وينبه لقمان على أن قيمة التوحيد والإيمان وبيان صفات الله تعالى، من أهم الأمور التي يجب أن تغرس في نفوس الأبناء، واعتبرت الآيات أن الشرك ظلم عظيم، لما له من أثر عميق في تصدع القيم المعنوية للمجتمعات المسلمة، ولما يترتب عليه من آثار على السلوكيات والأخلاق العامة.

وبعد ترسيخ قيم التوحيد يأتي مقام العبادة ، وعلى رأسها الصلاة ،لأنها تمثل صلة الإنسان بخالقه، ومن ثم تأتي الأخلاقيات الاجتماعية، وتقدم لنا الآيات قيم اجتماعية في التعامل مع أفراد المجتمع خصوصا الوالدين، وفي قوله: ﴿ وفصاله في عامين﴾ إشارة إلى حقوق الطفل في الرضاعة لكي ينشأ نشأة سليمة، إن بداية التنشئة الصحية للطفل تكون من خلال الرضاعة الطبيعية، والأفضل أن ترضع الأم وليدها مدة حولين كاملين.

ومن أهم الأمور التي أشارت إليها قصة لقمان، علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، وذلك من خلال تنشئة الجيل على القيم الإيجابية، وعلى رأسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الخير والصلاح في المجتمع، وهذا الأمر يحتاج إلى الصبر على ما يواجه الإنسان نتيجة تحمل مسؤوليته الاجتماعية من خلال الثبات على المبادئ التي يؤمن بها، ولكي يتقبل الناس هذه الدعوة لا بد أن يتحلى الإنسان بالقيم الأخلاقية التي أشرت إليها سابقا، من هنا جاء النهي عن التكبر وكل ما من شأنه أن يؤثر على الأخوة والتماسك الاجتماعي، وهكذا تأتي قصة لقمان كنموذج تطبيقي يحمل العديد من القيم في المجالات المختلفة في الاطار الأسري، وما أحوج الأسر المسلمة اليوم للاستفادة من هذه المنظومة القرآنية الحكيمة.

- **قيم المرأة المسلمة :**

ترتبط قضية المرأة أشد الارتباط بموضوع الأسرة باعتبارها ركيزة أساسية من ركائزها، إلا أن كثرة الكلام في الآونة الأخيرة وعلى وجه الخصوص في بلاد المسلمين عن المرأة ومركزها في الدولة

والمجتمع وحقوقها وواجباتها، كان الدافع للحديث عن قيم المرأة في المجتمعات الإيمانية من خلال القصة القرآنية.

وأول ما يطالعنا قوله تعالى في قصة آدم: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٩)، إن الله سبحانه وتعالى يخاطب الرجل والمرأة وكأنهما شيء واحد مصداقا لقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . ﴾ (النساء:١)، فكلاهما طلب منه السكن، وكلاهما وسوس له الشيطان وأغواه، وكلاهما عاتبه ربه عندما قال:{ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾، وكلاهما أعلن توبته لله تعالى، وهذه النظرة للمرأة في الفكر الإسلامي تخالف نظرة الفلسفات الإغريقية للمرأة في أنها سبب آلام العالم وأحزانه، أو أنها هي التي بدأت بالخطيئة عندما أغوت آدم كما جاء في العهد القديم[١].

ولا يوجد نص في القرآن يفرق بين الرجل والمرأة تفضيلا ذكوريا، بل صرح القرآن على اعتماد التقوى أساسا للتفضيل والتكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)، جاء في المعجم الوسيط:" الذكر خلاف الأنثى، والذكر من الحديد أيبسه وأشده وأجوده، يقال: رجل ذكر: قوي شجاع أبي، وقول ذكر: صلب متين، ومطر ذكر: وابل شديد"[٢].

[1] الخطيب ، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، بيروت، دار المعرفة ، ط٢ ،١٩٧٥، ص٦٥

[2] المعجم الوسيط ٣١٣

أما لفظ الأنثى فيدل على اللين والنعومة، " والأنثى خلاف الذكر من كل شيء، يقال: حديد أينث: غير صلب، وسيف أينث: لين، ورجل أينث: لين الكلام متكسر الأعضاء "[1] .

إن لفظ الذكر والأنثى له دلالته المهمة في السياق القرآني، فالله خلق كل من الذكر والأنثى ليقوم كل منهما بالعمل الذي يتناسب مع تركيبه، فالذكر شديد صلب ليقوم بالأعمال التي تتطلب هذه الصفات، والأنثى لينة سهلة لطيفة، لتقوم بمهمتها في رعاية وتربية الأجيال، وتلطف ورقة مع الزوج، وجعل الله العلاقة بين الذكر والأنثى قائمة على المودة والرحمة: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

وبعد ذلك نجد القصص القرآني يبرز لنا الكثير من قيم المرأة المؤمنة في مراحل عمرها المختلفة، فتذكر لنا قصة مريم، حرص الفتاة المؤمنة على عرضها وعفتها عندما جاءها جبريل ليهب لها غلاما زكيا، فكان جوابها: ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ (مريم: ٢٠).

و قصة موسى في مدين، تبرز لنا مشهد الفتاة المؤمنة وهي تتزين بأجمل أخلاق المرأة، الحياء والعفة، ﴿ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ ﴾ (القصص: ٢٥).

أما مرحلة الأمومة فتصور لنا قصة أم موسى وحرصها على تربية وليدها وحنانها عليه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧)، وفي الآية تنبيه على أهمية وظيفة الأم في الأسرة من خلال تربية الأجيال وإعداد الرجال، بداية من التنشئة الصحية من خلال الرضاعة الطبيعية، وانتهاء بزرع الأخلاق والقيم في نفوس الناشئة، وهي من أعظم القربات إلى الله، أما الرجل فهو المسؤول عن كسب العيش والتكفل بالنفقات المادية، هذا هو الأصل، وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام مع المرأتين في مدين، قولهن: ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء

[1] المعجم الوسيط ٣١٣

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، كأنهما بهذا الجواب تعتذران عن رعي الغنم، فما قامتا بهذا العمل إلا من باب الاضطرار، وفي هذا إشارة إلى أن الأصل في المرأة أن تكون في بيتها، وأن تقوم على شؤونه ، وأن لا تعمل خارجه و تنافس الرجال على أعمالهم إلا للاضطرار، وبضوابط شرعية وعلى رأسها عدم الاختلاط،[1] وإذا اعتبرت منظمات المرأة هذا الواجب المقدس عمل دوني لا يليق بها، فتلك قضيتهم، لأن قيمهم وموازينهم تختلف عن قيم المجتمع المسلم .

والمرأة الصالحة المؤمنة هي عون لزوجها على البر والإحسان، منصرفة لطاعة ربها، ففي قصة إبراهيم كانت امرأته سارة رضي الله عنها واقفة قائمة على خدمة ضيوف زوجها والترحيب بهم .

والمرأة في القصة القرآنية شأنها شأن الرجل، فهناك المرأة المؤمنة الطائعة لله تعالى الواقفة على أحكامه، وهناك المرأة الكافرة، الجاحدة العاصية لأوامر الله تعالى، إن نظرة الإسلام للمرأة وللرجل نظرة إيمان أو كفر، وهو ما جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿ ١٠ ﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ١١ ﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿ ١٢ ﴾ (التحريم) .

فقد كانت امرأة لوط عليه السلام خائنة ، وخيانتها له خيانة في الدين لأنها رفضت دين الحق، واختارت الدين الباطل وهو الكفر، ورفضها لدينه اعتبر خيانة، لأنها تركت الحق إلى الباطل والإيمان إلى الكفر، ولم تتبع زوجها وهو نبي كريم، ولأنها كفرت بالله لم ينفعها أنها امرأة نبي، ولم يدفع ذلك عنها

---

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٢/٢٨٥بتصرف واختصار

العذاب، فكانت مع الهالكين، وهكذا نجد المرأة في القرآن الكريم كائنا حيا، فيه نوازع الخير ونوازع الشر، يعلوا هذا حينا ويهوي ذاك حينا آخر، إلا أن عرض القرآن الكريم يبقى في مستواه الرباني المعجز الرفيع، آخذا بالإنسان رجلا كان أو امرأة نحو السمو والرفعة[١].

ثالثا : العدالة والمساواة.

ترتبط قيمة العدل في الإسلام بمجمل التصور الإيماني عن الكون وعلاقته بالإنسان، على قاعدة أن هذا الإنسان لم يخلق عبثا، وإنما هو خليفة الله في أرضه ،وأن هذا الكون مسخر لهذا الخليفة، ومن جملة هذا التسخير أن الله بعث الأنبياء بالشرائع التي تنظم شؤون الناس على أساس العدل .

وهذه العدالة شاملة لكل جوانب حياة الإنسان ونشاطه، فتتناول هذه القيمة من جملة ما تتناول العدالة الاجتماعية والسياسية والتكافلية وحتى المعنوية والروحية [٢].

ومعنى العَدْل: ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم وهو ضِدُّ الجَوْر، وفي أَسماء الله سبحانه العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجور في الحكم، والعَدْلُ الحُكْم بالحق يقال هو يَقْضي بالحق ويَعْدِلُ وهو حَكَمٌ عادِلٌ ذو مَعْدَلة في حكمه والعَدْلُ من الناس المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه.[٣]

ويعرض القصص القرآني لحكومة داود عليه السلام كنموذج مثالي لقيمة العدل، باعتباره مسؤولا تجاه الأمانة التي حملها، فقد جعله الله خليفة في الأرض بحكم كونه إنسانا، وجعله خليفة على الناس

---

[1] الخطيب ، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، بيروت، دار المعرفة ، ط٢ ،١٩٧٥، ص٦٨

[2] قطب، سيد، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، دار الشروق، ط٨،١٩٨٢م، بتصرف /٣١

[3] ابن منظور، لسان العرب ، ٦١/١٠.

بحكم كونه ملكا، فهو مطالب مطالبة مضاعفة أن يحكم بالحق وينبذ الهوى، قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾(ص:٢٠)، قال الإمام الراغب عن الحكمة:" حَكَمَ: أصله: مَنَعَ منعا لإصلاح، والحكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا، أو ليس بكذا" [١].

وداود عليه السلام كان حكيما في نفسه يتمتع بالفطنة والفهم والذكاء والعلم، وكان حكيما مع قومه يقضي بينهم بالحكمة، ويحكم فيهم بشرع الله تعالى، وكان حكمه وقضاؤه يمنع الفساد ويحقق الخير والصلاح في المجتمع.

ومعنى ﴿ فَصْلَ الخطاب ﴾ "الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر، وفصل الخطاب ما فيه قطع الحكم"[٢]، أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، والخطاب الخصام لاشتماله عليه أو لأنه أحد أنواعه خص به لأنه المحتاج للفصل أو الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات[٣].

إن داود عليه السلام كان يقيم العدل في مملكته من خلال تولي القضاء للحكم بين الناس بشرع الله تعالى، وكان يساعده على إرساء دعائم العدل ابنه سليمان عليه السلام، الذي آتاه الله الحكمة والعلم أيضا، وقد ذكرت لنا القصة القرآنية نماذج من حكم داود وسليمان عليهما السلام .

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿ ٧٨ ﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿ ٧٩ ﴾ (الأنبياء)، قال ابن كثير:" النَّفْشُ: الرعي بالليل، وعن ابن مسعود قال: كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته الغنم، فقضى داود

---

[1] المفردات، ص ١٧٥.
[2] المفردات، ص٤٨٣
[3] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٢/١٧٠.

بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ."[1]

الظاهر من هذه القصة أن المتخاصمين جاءا إلى داود عليه السلام ليحكم بينهم في مسألة رعي الغنم، وكان سليمان عليه السلام حاضرا لمجلس الحكم، والظاهر أن داود عليه السلام حكم في هذه الدعوى حسب اجتهاده، ولما سمع سليمان عليه السلام الحكم استدرك على القاضي داود عليه السلام وحكم بحكم آخر، وهذا لا يعني أن داود عليه السلام أخطأ في الحكم، لكن حكمه كان خلاف الأولى، وحكم سليمان كان أقرب للحق والعدل، لأن الله تعالى قال :﴿ وكلاآتينا حكما وعلما ﴾[2].

والقضية تبرز قيمة العدل وبذل الجهد للوصول إلى الحق، والآية توحي بأن داود عليه السلام رجع عن حكمه إلى حكم ابنه سليمان مع أنه أصغر منه سنا وأقل خبرة ، فأهل العلم والإيمان، يتصفون بأسمى الأخلاق، فالقاضي يتراجع عن حكمه إذا ظهر له حكم أقرب إلى تحقيق العدل، ووجود سليمان مع داود عليهما السلام في مجلس الحكم، مظهر آخر من مظاهر الحرص على تطبيق العدالة بين المتخاصمين.

أما القضية الثانية فهي قوله تعالى في سورة ص: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿ ٢١ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿ ٢٢ ﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿ ٢٣ ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ

---

[1] ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٢٥٠/٣.

[2] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١،١٩٩٨،٣٤٠/٣

وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴿ ٢٤ ﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿ ٢٥ ﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿ ٢٦ ﴾ .

ذكر بعض المفسرين روايات إسرائيلية[١]، وفسروا بها هذه القصة، إلا أن أكثر أهل العلم والمحققين من المفسرين رفضوا مثل هذه الروايات، ومن هؤلاء الإمام ابن كثير حيث قال:" ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا." [٢]

وقال الرازي تعليقا على تلك الروايات:" والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها.. الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ... وروي عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين " وهو حد الفرية على الأنبياء ".[٣]

ثم رجح الإمام الرازي المعنى الذي يليق بمقام الأنبياء فقال: "لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني، فإنه لما قال: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾، فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة، إلا أن هذا في

---

[1] ذكر مثل هذه الروايات الإمام الطبري والقرطبي وهذه الروايات تصور الأنبياء كما يصور الإغريق الآلهة ،فهم يمارسون الخيانة والغدر ، فقصة النعاج قصة رمزية للقائد أوريا ، وداود عليه السلام أعجب بزوجة قائده ، فزجه في الحروب حتى قتل ، وضمّ داود زوجته إلى زوجاته.

[2] ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٤١/٤.

[3] انظر: الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٧٣/٢٦-١٧٦.

باب ترك الأفضل والأولى فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه... كما أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة واستهزأوا به حيث قالوا: ﴿ رَبَّنَا عَجّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾، فقال تعالى في أول الآية: اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه"[1].

وبعد هذه القصة، جاء التعقيب من الله ليبين للمؤمنين القيم والدروس المستفادة منها، فقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، إن من أهم القيم المستفادة من القصة أن الحاكم لا بد أن يحكم بين الناس بالعدل والحق، والعدل والحق لا يكون إلا من خلال شرع الله الموصوف بالعلم والحكمة والخبرة في طباع البشر وأهوائهم، بعيدا عن الظلم المفضي إلى انهيار الحضارات في الدنيا، والعذاب الشديد يوم القيامة ،فهذا تذكير للمؤمنين بأهمية قيمة العدل بين الناس وأثره على النهوض بالأمة.

والقيام بالعدل في المنظور الإسلامي، لا يقتصر على المجتمعات المؤمنة، بل يتعداه إلى المجتمعات غير المؤمنة، انطلاقا من الاعتقاد أن الناس جميعا متساوون في طبيعتهم البشرية ، فالتفاضل بين الناس يقوم على تفاوتهم في الكفاية والعلم والأخلاق والأعمال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣)، وهو ما فهمه وطبقه

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٧٨/٢٦.

ذو القرنين عندما أرسى قواعد المساواة بين الناس فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴿٨٨﴾ (الكهف)، لقد فتح البلاد وجاهد لإعلاء كلمة الله، وتعامل مع المغلوبين في البلاد المفتوحة وفق شرع الله القائم على العدل والمساواة والإنصاف، فلم يظلم ولم يتجبر ولم يعيث في الأرض فسادا كما هو الحال مع "المستعمرين" قديما وحديثا، بل تعامل مع القوم بما يصلح أن يكون دستورا لكل حاكم أو مسؤول يتعامل مع الآخرين لأنه يعلم أنه حيثما تفقد المساواة تفقد العدالة، فالظالم والفاسد أيا كان منصبه لا بد أن يعاقب، والإنسان الصالح المصلح لا بد أن يعامل بالتكريم والتحفيز .

وهكذا تتحقق المساواة بين أفراد المجتمع، فيأخذ صاحب الحق حقة، وينال الظالم جزاءه، وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[1].

لكن هذا القانون الشرعي، سيلاقي الكثير من الاعتراض، خصوصا من الفاسدين والمستغلين والمنحرفين، من هنا فرق التعبير القرآني بين كلمتي "مُنْكَر" و" نُكُرْ " في قول ذي القرنين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾، فالمنكر هو الشيء الباطل الحرام في شرع الله ودينه، أما النُكُرْ،

[1] صحيح البخاري – حديث ٣٢١٦

فهو الشيء الذي قد ينكره بعض الناس، ويعتبرونه مرفوضا وخطأ، لكنه في حقيقة الأمر صحيح وصواب في حكم الله وتقديره [1].

ولهذا كان سبب كفر أهل الكتاب رفضهم للتحاكم وفق شرع الله الذي لا يحابي أحدا والذي يقوم على العدل والمساواة، يقول تعالى في ذم أهل الكتاب: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٤٣ ﴾ .(المائدة:٤٣)

يقول الشهيد سيد قطب:" والسياق القرآني يقرر توافي الديانات التي جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزله الله؛ وإقامة الحياة كلها على شريعة الله؛ وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر؛ وبين الإسلام والجاهلية؛ وبين الشرع والهوى... فالإيمان هو الإقرار لله سبحانه بهذه الخصائص... والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص .. والاعتراف بسلطانه الممثل في شريعته. فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو- قبل كل شيء - الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه. ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة ، واتخاذ شريعة غيرها في أية جزئية من جزئيات الحياة، هو - قبل كل شيء - رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه .. وهي من ثم قضية كفر أو إيمان؛ وجاهلية أو إسلام. ومن هنا يجيء هذا النص: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . . ﴿ الظالمون ﴾ . . ﴿ الفاسقون ﴾ [2].

من هنا كان العدل بمفهومه الشرعي، سنة ربانية، وقيمة حضارية، وضرورة إنسانية، دعا إليها الإسلام، وأمر بها وحث عليها ورغب فيها؛ لتكون سلوكاً وواقعاً يمارسه الأفراد في جميع جوانب حياتهم، وتمارسه المجتمعات والأمم في كل شؤون حياتها؛ لأن العدل سبباً من أسباب سعادتها وأمنها

[1] الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق، دار القلم، ط١،١٩٨٩ ، ٢/ ٣٣٠
[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٢، ٦/ ٨٨٩.

وصلاح أبنائها وازدهار حضارتها ورقي مجتمعاتها قال – تعالى –: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل/٩٠]

رابعا: التكافل الاجتماعي:

تقوم المجتمعات الإسلامية على قواعد ثابته تضمن من خلالها تماسكه وقوته، وأول هذه القواعد الأخوة في الله باعتبار أن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، ولما كان الفقر من أبرز المشكلات التي تواجه المجتمع، كان للزكاة دور في تحقيق التكافل الاجتماعي بالإضافة لكونها عبادة لله كما بيناه سابقا، وهذا يؤكد على أن جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مرتبطة بالعبادات في التصور الإسلامي، فالزكاة هي حق الفقراء في مال الأغنياء، باعتبار أن النسيج الاجتماعي يرتبط برابطة الأخوة الإيمانية، وهذا ما دعا إليه جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ (مريم)، ومن صور هذا التكافل ما نلمحها في قصة سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣)، فالجفان جمع جفنة ، وهي القصعة أو الإناء أو الوعاء الذي يوضع فيه الطعام[1]. والجواب: جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يوضع فيه الماء[2]. والقدور الراسيات: آنية ضخمة ثابتة مكانها، لا يكاد أحد يطيق حملها لعظمها وضخامتها [3].

[1] المعجم الوسيط ١٢٧
[2] المرجع السابق ١٤٤
[3] المرجع السابق ٣٤٥

والمعنى أن هذه الأدوات كان تستخدم في إطعام الفقراء والمحتاجين وأبناء السبيل ، وهذا من باب التكافل الاجتماعي، ومن الفوائد التي ذكرها الإمام الرازي تعليقا على الآية:" ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب، وفي حق سليمان بحالة السلم ... فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام ".[١]

إن ضمان الحاجات الأساسية للحياة ، كتأمين الغذاء والكساء والمسكن يؤدي إلى إشاعة الازدهار والسعادة بين أفراد المجتمع، بحيث لا يشعر أي فرد من أفراده بالحرمان، وإذا كان النمط المعيشي الذي يحكم الحياة الغربية هو اللهاث وراء تحقيق أكبر قدر من الأرباح ، فإن الغاية في المفعوم الإسلامي تتركز أساسا حول تحقيق العبودية لله ...وهذا لا يكون إلا من خلال تحقيق حد الكفاية من الاحتياجات الضرورية لأفراد المجتمع [٢].

خامسا : قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يقول الإمام الغزالي عن هذه القيمة:" إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد ، وهلك العباد ..."[٣].

من هنا كانت الدعوة إلى الله، من أبرز ما تتميز به المجتمعات الإيمانية، و تكاد هذه القيمة أن تكون المحور الأساسي في قصص الأنبياء عليهم السلام .

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٢١٧/٢٥.
[2] المخزومي ، السيد أحمد، الزكاة وتنمية المجتمع ، دعوة الحق ،كتاب شهري محكم ،رابطة العالم الإسلامي ،العدد ١٤١٩/١٨٧هـ،ص ١٩٧
[3] الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م، ٣٠٦/٢

والدعوة إلى الله قسمان: دعوة خارج المجتمع لغير المسلمين، ودعوة داخلية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسأكتفي بذكر نماذج تؤكد أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار أسلوبها الدعوي.

يقول الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ ١٦٣ ﴾ وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ ١٦٤ ﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿ ١٦٥ ﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿ ١٦٦ ﴾ (الأعراف).

إن قصة أصحاب السبت تحث الدعاة والمصلحين على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستمرار في نصح الأمة ووعظها وإرشادها وتذكيرها، لتبقى ذاكرة الأمة مستحضرة للتوجيهات والأحكام، وليبقى التفكير في الحلال والحرام والممنوع والمسموح به حيا في شعور الأمة.

وتبين لنا هذه القصة الموقف الذي يسلكه كثير من الناس تجاه ما يراه من المنكرات ، وهؤلاء يقفون موقفا سلبيا تجاه المنكرات التي يشاهدونها في مجتمعاتهم بدعوى الحرية الشخصية والتي يتذرع بها الكثير من الناس اليوم، و يا ليت أنهم يكتفون بالسكوت عن إنكار المنكر، بل يضيفون إليه جريمة لا تقل بشاعة عن جريمة الجبن والسكوت، فتراهم يوجهون اللوم للدعاة والمصلحين لقيامهم بالنصح والتبليغ .

وهو ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ،ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا"[١].

لكن أهل الإيمان يقفون في وجه المعصية والاحتيال على شرع الله وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة، ولديهم دوافع تملي عليهم القيام بهذا الواجب المقدس، وهو الاعتذار إلى الله تعالى من خلال التبليغ والتنبيه ، فالله تعالى أمرنا بالدعوة: ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل:١٢٥)، ولم يطالبنا الله تعالى بالنتائج باعتبار أنه يعلم خفايا القلوب ، ويعلم من هم أهل الإيمان ومن هم أهل الضلال [٢].

والدافع الآخر للقيام بواجب النهي عن المنكر ما تحمله عبارة " لعلهم يتقون " من دلالة، أي لعل تلك الكلمات تورث عندهم التقوى والالتزام، وقد أمرنا الله تعالى بتوصيل كلمات القرآن للكافرين فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾(التوبة:٦)، فالكلمة هي الوسيلة لكي يعلم الناس مضمون رسالة الإسلام.

من هنا كان للدعوة أساليب، وجب على الدعاة الاطلاع عليها والتسلح بها، ومن خلال سير الأنبياء نجد أن القصة القرآنية أبرزت الكثير من الأساليب الدعوية، وسنتحدث عن بعضها :

<u>أولا: لين الخطاب مع الآخرين</u>، قال تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾(طه)، طلب الله تعالى من موسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا، فقد يسمع لهما

---

[١] رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الامر والنهي، ص٦٠٩، ٣٧٧٤، قال الألباني: سنده ضعيف لكنه صحيح المعنى وله شواهد
[٢] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٢٠٢/١٤.

ويتفاعل معه، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾(النازعات:١٨)، شريطة أن يكون هذا القول اللين في أسلوب التعبير، وليس في مضمون العبارة، ولا في حقائق الفكر والتصور، فهذا المضمون لا يقبل الليونة، لأن الليونة فيه تعني التحريف والتبديل والتغيير.

ثانيا: ومن الأساليب الدعوية ما يسمى بمجاراة الخصم للوصول إلى النتيجة المنطقية بالحجة المقنعة، والحوار الهادف كما بينته سورة الأنعام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿ ٧٤ ﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿ ٧٥ ﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿ ٧٦ ﴾ الآيات (الأنعام).

هناك أقوال في فهم حديث إبراهيم عليه السلام عن الكواكب وقوله "هذا ربي" فكيف يقول ذلك وهو نبي؟ ذهب بعض العلماء والمفسرين إلى أن هذه الآيات تخبر عن فترة متقدمة من حياة إبراهيم عليه السلام، وهذه المرحلة كانت في شبابه وقبل نزول الوحي عليه، ذهب إلى هذا القول الإمام الطبري[1] من القدماء والإمام سيد قطب من المعاصرين[2].

لكن جمهور العلماء والمفسرين يذهبون إلى أن هذا المشهد كان بعد نبوته، وأن كلام إبراهيم عليه السلام كان في مقام المناظرة والجدل والحجاج ، يقول الإمام الرازي:" هذا يدل على أن تلك الحجة إنما

[1] أنظر: تفسير الطبري (جامع البيان) مج٢٩٣/٥،٧ قال الإمام الطبري رحمه الله : وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول وقالوا: غير جائز أن يكون للهنبيٌّ ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقتٌ من الأوقات وهو بالغٌ إلا وهو لله موحدٌ... وزعموا أنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه.. قالوا: وإنما قال ذلك لهم، معارضةً... إلى أن قال : وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر:"لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين"، الدليلُ على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم،وأنّ الصوابَ من القول في ذلك، الإقرارُ بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه.

[2] انظر تفسير الظلال، مج٢، ١١٣٧/٧ ،يقول الشهيد سيد قطب عن فطرة إبراهيم عليه السلام : ويرسم – السياق- مشهداً رائعاً حقاً للفطرة السليمة ، وهي تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في أعماقها ، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تجده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس! ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق.

حصلت في عقل إبراهيم عليه السلام بإيتاء الله وبإظهاره تلك الحجة في عقله، فإن المراد أنه تعالى رفع درجات إبراهيم بسبب أنه تعالى آتاه تلك الحجة "[1].

ثالثا: من أهم وسائل الإقناع ، التزام الداعية بما يدعوهم إليه، كما فعل شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(هود:٨٨)، فهو لن يدعوهم إلى شيء ثم لا يفعله، ولن ينهاهم عن شيء ثم يرتكب ما نهاهم عنه، وعلى الدعاة إلى الله أن يعوا جيدا هذا الموقف من شعيب عليه السلام، وأن يقتدوا به في ذلك الالتزام الصادق.

رابعا: مطالبة الخصم بالموضوعية واتباع الحق وترك العناد إذا تبين وجه الصواب، وهذا مأخوذ من قول هود عليه السلام لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾(هود:٨٩)، أي لا تعتبروا الأمر خلافا شخصيا، بل يجب عليكم أن تنظروا إلى دعوتي نظرة موضوعية، علمية منهجه وأن تبحثوا عن الحقيقة باعتبارها قيمة مطلوبة لذاته .

خامسا: وتعتبر المناظرات أسلوبا آخر من أساليب الدعوة، كما فعل إبراهيم عليه السلام في مناظرته للملك الكافر، الذي ادعى الألوهية ، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن توجه إليه وأقام عليه الحجة والدليل، وسجلت آيات سورة البقرة مشاهد من هذه المناظرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(البقرة:٢٥٨)، لقد تمتع إبراهيم عليه السلام في خطابه للملك الظالم بالجرأة والعزة والشجاعة، إضافة إلى علمه بأساليب الحوار والمناظرة وإفحام الخصم ، فلم يرهبه

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٥٢/١٣.

سلطان الملك، ولم يجبن عن قول الحق، وكان عليه السلام قويا في حجته راسخا في علمه، متوكلا على ربه، فلم يداهن ولم يتراجع، وكل هذه قيم دعوية للدعاة الحريصين على أداء واجب الدعوة.

هذه بعض الأساليب الدعوية، التي نبهت عليها القصة في القرآن لتكون منارة للدعاة إلى الله تعالى في كل زمان وكان، بحيث يقوم الدعاة باستخدام كل الوسائل المتاحة لنشر الدعوة، ولا يخفى علينا أن العصر الذي نعيشه اليوم، فيه الكثير من الوسائل التكنولوجية التي تحتاج منا إلى زيادة تفعيلها لخدمة هذا الهدف العظيم.

على ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن القيم المعنوية في التصور الحضاري الإسلامي بكل ما تحويه من عقائد وأفكار وعبادات وأخلاق ومعاملات، أرفع شأنا وأسمى هدفا وأجل غاية من القيم المادية، ليشكل هذا التصور الفارق بين نظرة المسلمين للحضارة ونظرة غيرهم لها، وهذا لا يعني بحال إغفال القيم المادية في التصور الإسلامي، وهو ما سأتحدث عنه في المبحث الثاني .

<u>المبحث الثاني</u>

القيم المادية

المطلب الأول: القيم الاقتصادية:

إن دراسة القيم الاقتصادية في المجتمعات الإيمانية لا تتم منفصلة عن القيم المعنوية، وعلى وجه الخصوص القضايا العقدية، ولهذا كان لا بد أن يكون للنشاط الاقتصادي طابع تعبدي، تطبيقا للمبدأ العام الذي أشرت إليه، وهو أن عمل المسلم اقتصاديا كان أو غير ذلك، يمكن أن يصير عبادة يثاب عليها إذا قصد بعمله وجه الله تعالى.

والنشاط الاقتصادي الإسلامي لا يهدف إلى نفع مادي فقط كأي نشاط اقتصادي وضعي، وإنما يتخذ من هذا الهدف وسيلة لغاية عظيمة وهي إعمار الأرض على المنهج الذي يرتضيه الله تعالى، فكان لا بد من خضوع النشاط الاقتصادي إلى شريعة الله في أرضه لتحقيق هذه الغاية.

من هنا كانت نظرة الإسلام للموارد الطبيعية على أنها تسخير من الله لهذا الإنسان لكي يستطيع القيام بوظيفته كخليفة، ومن ثم فإن هذه الموارد كافية لإشباع حاجات الإنسان إذا ما استغلت بالشكل الصحيح، يقول تعالى: ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾(فصلت:١٠).

كما اعتبر العمل في الإسلام الدعامة الأساسية للإنتاج، والعنصر الفعال لإشباع حاجات الإنسان الأساسية، وإذا لم يتمكن الفرد من العمل لأي سبب من الأسباب، فإن حمايته من الفقر والعوز تكون مسؤولية تكافلية من المجتمع المسلم والدولة المسلمة .

وباعتبار أن الإسلام بمفهومه التاريخي الممتد لعصور الأنبياء السابقين، جاء ليحقق الغايات التي أرادها الله تعالى لسعادة البشر في كافة جوانب الحياة، فإننا سنتعرف إلى أبرز ملامح القيم الاقتصادية في المجتمعات الإيمانية من خلال القصص القرآني.

أولا : قيمة العمل :

يعتبر العمل من أهم عناصر الإنتاج في علم الاقتصاد إضافة إلى الموارد البشرية ورأس المال، وحيث أن مفهوم العمل في الإسلام مفهوم واسع، فإن المقصود به في المجال الاقتصادي يقتصر على الجهد المبذول لإنتاج السلع والخدمات المقبولة شرعا كالاشتغال في الصناعة والزراعة والتجارة وغيرها من المهن[1].

من هنا تتضح أهمية العمل باعتباره العنصر الأساسي في الإنتاج والمصدر الحقيقي في الرزق، وقد سبق المفكر الإسلامي ابن خلدون غيره من أصحاب المدارس الاقتصادية الحديثة في الإشادة بأهمية عنصر العمل واعتباره العنصر الرئيسي في الإنتاج والمقياس الصادق للقيمة، حيث يقول: "فلابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني، وإلا لم يحصل ولم يقع فيه الانتفاع..".[2]

وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام القدوة الحسنة لأقوامهم في التأكيد على أهمية هذه القيمة، فكانوا يعملون بأيديهم، وفي قصة داود قال تعالى:﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(سبأ:١١)، لقد حرص داود عليه السلام على أن يكون له عمل ، مع أنه ملك بني إسرائيل، وهذا

---

[1] مرطان، سعيد، مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام ، مؤسسة الرسالة ،ط١ ،٢٠٠٩م،ص ٨١

[2] ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط٢٠٠٤/١ ص ٤٦٢

من مروءته وشهامته وقوته عليه السلام، حيث كان يرفض أن يكون عالة على غيره، وقد دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بداود عليه السلام في ذلك، فقال:" ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده "[١].

ومن عظمة شخصية داود عليه السلام أنه اختار مهنة تخدم أمته بالمقام الأول، ولم يكن العمل عنده مقصودا لأجل المال والمتاع فقط، وإنما ليقدم الخير لأمته، وهذه قيمة أخرى من القيم الاقتصادية في الفكر الإسلامي.

ثانيا : استثمار الموارد الطبيعية :

تعتبر الأرض وما تحويه في باطنها من موارد طبيعية كالمعادن والمياه والتربة عنصرا هاما من عناصر الإنتاج الاقتصادي، ويعد استثمارها بالشكل الصحيح مؤشرا على قوة الدولة أو تخلفها، ويأتي اهتمام المسلمين باستثمار الموارد الطبيعية من صميم اعتقادهم بأنهم خلفاء الله في أرضه، ومن مقتضى هذه الخلافة يأتي إعمار الأرض، وبقدر التزام المسلمين بمفهوم الخلافة يكون انعكاسه على استثمار ما أودعه الله في الكون سلبا وإيجابا.[٢]

وبالعودة للحضارات الإيمانية في القصص القرآني نجد مصداق هذا الفهم ،لقد من الله على داود عليه السلام بنعمة الخلافة ، فكان أول خليفة لبني إسرائيل، وقد زوده الله بالوسائل التي تقوي ملكه، ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾(ص: ٢٠)، قال الألوسي:" ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة"[٣]، لهذا وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ

---

[1] رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ص٣٧٣، حديث رقم ٢٠٧٢

[2] مرطان ، سعيد، مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام، مؤسسة الرسالة ط٢٠٠٩/١ ص٩٥

[3] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٦٩/١٢.

أَوَّابٌ﴾(ص: ١٧)، ومعنى الأيد كما قال أبو حيان: أي ذا القوة في الدين والشرع والصدع بأمر الله والطاعة لله[1].

ويجب التفريق بين الأيدي والأيد، والكلمتان واردتان في القرآن الكريم، فالأيدي، جمع يد وهي مشتقة من فعل "يدى" تقول يَدى، يدي، وأيدي الناس جوارحهم المعروفة قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا . . . ﴾(الروم: ٤١).

أما الأيد، فهو القوة ، وهو مشتق من فعل "آد "، تقول: آد أيدا، بمعنى قوي واشتد فهو أيد وذو أيد، ولم ترد " الأيد" إلا مرتين في القرآن، الأولى في الأخبار عن خلق الله للسماء: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾(الذاريات: ٤٧)، والثانية في وصف داود عليه السلام بأنه ذو أيد أي ذو قوة في العلم والعمل، وقد استخدم قوته في توطيد سلطان دولته ، وتقوية خلافته، والحكم في بني إسرائيل بالحق، ونشر العدل في الأرض[2].

وهذه القوة تمثلت في الجوانب الاجتماعية كالقضاء والحكم، كما تمثلت في الجوانب المادية سواء أكانت جوانب صناعية، أو عسكرية، فقد كان داود عليه السلام أول من استخدم الثروات المعدنية بشكل واسع، من خلال صناعة الدروع والآلات الحربية لإقامة الحق ونشر العدل في الأرض، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾(الأنبياء:٨٠)، فكان أول من صنع الدروع الحربية التي يلبسها الجنود والمقاتلون وذلك لتحميهم من سلاح الأعداء في المعارك ، جاء في تفسير الرازي: أول من صنع الدرع داود عليه السلام ، وإنما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقاً [3]، وهذا يشير إلى

[1] أبو حيان، تفسير البحر المحيط ج٩ ص٢٣٠

[2] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٤٣٢/٣

[3] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٩٠/٢٢

السبق العلمي في المجال الصناعي أو ما يسمى "براءة الاختراع" والتي تعتبر من أبرز مقومات التقدم الصناعي في الحضارة الحديثة، أي أن داود عليه السلام كان يسخر العلم الدنيوي لخدمة الغرض الديني لتحقيق العدل في الأرض.

وقد ذكرت القصة القرآنية كيف كان داود عليه السلام يقوم بهذه الصناعات العسكرية، قال تعالى: ﴿ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿ ١١﴾(سبأ)، قال الراغب: درع سابغ: تام واسع، وعنه استعير إسباغ الوضوء وإسباغ النعم، "[1].

والسرد: خرز ما يخشن ويغلظ ، كنسج الدرع، وخرز الجلد، واستعير لنظم الحديد"[2]، قال ابن عاشور في معنى الآية:" ﴿ ألنا له ﴾ من معنى: أشعرناه بتسخير الحديد ليُقدم على صنعه فكان في {ألنا} معنى: وأوحينا إليه:﴿أن اعمل سابغات﴾، ومعنى ﴿ قَدِّر ﴾ اجعله على تقدير، والتقدير: جعل الشيء على مقدار مخصوص بحيث تجيء فتحة الحلقة على قدر المسمار، فلا هي أوسع من المسمار فيتخلخل، ولا هي أضيق من المسمار فلا يدخلها، و﴿ السَّرْد ﴾ صنع درع الحديد، أي تركيب حلقها ومساميرها التي تَشُدّ شقق الدرع بعضها ببعض فهي للحديد كالخياطة للثوب، والدِرع توصف بالمسرودة كما توصف بالسابغة" [3].

فالآية تخبرنا أن الله علم داود عليه السلام صنع الدروع المحكمة من الحديد الذي ألانه له، ويدل قوله تعالى "ألنا له الحديد" على أن داود عليه السلام أسس مناجم للحديد واستخرجه من باطن الأرض واستخدمه في الصناعات المختلفة الضرورية للدولة، وكان عليه السلام يحسن استخدام الثروات الطبيعية من خلال الصناعات العسكرية، فكان يقوم بصناعة الدروع لحماية الجنود في المعارك، و يحسن تقدير

[1] المفردات ، ص٢٩٠
[2] المفردات ، ص٢٩٩
[3] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٩، ١٥٦/٢٢.

ثقب الحديد فتكون الحلقة مناسبة للمسمار تماما، وهذا يشير إلى قيمة الإتقان في العمل، ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله:﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، منبها على الغاية التي من أجلها تقوم الصناعات، وتشن الحروب، وتخترع الاختراعات، وتكتشف الاكتشافات، في حضارات أهل العلم والإيمان، ذلك هو العمل الصالح الذي يتناغم مع الغاية التي خلق لأجلها الإنسان، وهي الإصلاح في الأرض ومحاربة الفساد، وشكر الله تعالى على نعمه ، وهو ما طبقه أنبياء الله داود وسليمان عليهما السلام، حيث اعترفا لله بالفضل والمنة، وحمداه على ذلك: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل:١٥) .

ومن بعد داود كان سليمان عليهما السلام، وكانت مملكته متقدمة تقدما صناعيا وعمرانيا واقتصاديا، ومن مظاهر هذا التقدم قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (سبأ:١٢).

قال ابن عاشور: ومعنى تسخيره الريح : خلق ريح تلائم سيرَ سفائنه للغزو أو التجارة ، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحاً موسمية تهبّ شهراً مشرّقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهبّ شهراً مغرّبة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين.[1]

ومن مظاهر تأييد الله تعالى لسليمان عليه السلام، تسخير المعادن وعلى وجه الخصوص النحاس، وقد استفاد سليمان عليه السلام من الثروات الطبيعية فاستخدمها في إنتاج مختلف أنواع الصناعات المعدنية، ولهذا أثره الكبير في تقدم الدولة الإيمانية من جميع النواحي الصناعية والحربية والعمرانية، وقد

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٩، ٢٢/ ١٥٨.

ذكرت القصة القرآنية بعض تلك الصناعات والغاية منها، قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لقد كان سليمان عليه السلام حريصا على استثمار الموارد الطبيعية التي أودعها الله الأرض، فقام عليه السلام ببناء المحاريب، وهي دور العبادة، وهذا فيه إشارة إلى أن المساجد التي يعبد بها الله تعالى كانت منتشرة في مملكة سليمان الإيمانية، فكان الطابع العام للعمارة الإيمانية المساجد، باعتبارها مظهرا حضاريا يميز المجتمعات المؤمنة.

وقد أشرت إلى أن مدلول الجفان والقدور يؤكد على مفهوم التكافل الاجتماعي، والمعنى أن من القيم البارزة في المجتمعات الإيمانية، استثمار الموارد الطبيعية، و ازدهار الصناعات الحديدية والنحاسية، وتشييد المساجد، وبذل الأموال لإطعام الفقراء والمحتاجين، وهذا مؤشر على التقدم الاقتصادي والعمراني والصناعي وارتباطه بالقيم الاعتقادية والأخلاقية، وهو ما يميز الفكر الإسلامي بجذوره الضاربة في التاريخ .

وقصة ذي القرنين تلقي الضوء على ملك مؤمن قام باستغلال الثروات الطبيعية في عمارة الأرض ونشر الحق وفق المنهج الاستخلافي الرباني، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴿ ٨٤ ﴾ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴿ ٨٥ ﴾ (الكهف)، لقد مكن الله له في الأرض، فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة [1].

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٢٩٠/١٦.

فأتبع سببا، من خلال استغلال تلك الثروات في البناء الحضاري، يدل على ذلك أنه استغل معادن الحديد والنحاس في بناء السد لمنع هجمات قبائل يأجوج ومأجوج الهمجية، ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف:٩٦).

إن هدف وجود الإنسان في الحياة في الفكر الإسلامي هو تحقيق العبودية لله، ومن أبرز معاني تلك العبودية الاستخلاف من خلال عمارة الأرض واستغلالها لتمكين دين الله، ونشر القيم الإسلامية، ولأجل هذه المهمة فقد سخر الله الأرض للإنسان ،يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥). يقول سيد قطب: " لقد بعث الله الرسل ومعهم البينات، والنص يقول ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها ﴿ والميزان ﴾ مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية ،وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع. ميزاناً لا يحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

وقوله ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾.. فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وأنزل الله الحديد ﴿ فيه بأس شديد ﴾ .. وهو قوة في الحرب والسلم ﴿ ومنافع للناس ﴾ .. وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾. وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح" [1]، وأن استخدام الحديد للصناعات العسكرية هو الطريق لنشر دين الله تعالى، لذلك

---

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٦، ٣٤٩٤/٢٧.

أمرنا الله بالإعداد الصناعي في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ثالثا :التنمية الاقتصادية:

تعتبر التنمية الاقتصادية طريقا لمعالجة التخلف الاقتصادي وسببا لرفع الانخفاض النسبي في متوسط دخل الفرد، والنظام الاقتصادي الإسلامي يحث على التنمية باعتبارها إجراءات وسياسات وتدابير متعددة تهدف إلى تحقيق زيادة سريعة ودائمة لمتوسط الدخل للفرد والمجتمع من خلال استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة، و لكي تتحقق عملية التنمية على أرض الواقع لا بد أن تبدأ من الأصل أو القاعدة، أي من الإنسان، فهو وفق المنهج الرباني أهم وأسمى ما في الوجود، ومن ثم فهو بحق العنصر الأساسي لعملية التنمية[1].

والأنبياء عليهم السلام كانوا على دراية تامة لهذا المفهوم، فكان نبي الله موسى عليه السلام وخلال الأربعين سنة التي قضاها مع قومه في سيناء، يحاول إخراج جيل جديد يترك مظاهر الترف والتنعم والإسراف، ويعرف وظيفته المقدسة، فبدأ عليه السلام بتنمية طاقات الشباب، وينمّي فيهم معاني الرجولة والعزة والطاعة، ومن وسائله في تربية الجيل الجديد، أنه كان يذكرهم بأيام الله، ويحدثهم عن نماذج لانتقام الله من الكافرين والظالمين، كما فعل بفرعون وهامان وقارون، ويحدثهم عن إنعام الله على الصالحين المؤمنين ، كما فعل مع مؤمني بني إسرائيل، وكان موسى في هذا التذكير المتواصل ينفذ

[1] الوادي، محمود،وآخرون، الاقتصاد الإسلامي، دار المسيرة ، ط٢٠١٠،١م، ص ٢٧١

أمر الله له، قال تعالى: ﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم:٥) .

وكان لجهوده عليه السلام أثرا في ظهور الجيل المنشود، فبعد وفاته ظهرت فئة من بني إسرائيل تريد استرجاع العز والمجد والأرض .

ومن الأمثلة المهمة في تنمية الإنسان ودفعه للعمل والإصلاح، ما كان من ذي القرنين عندما عرض عليه أهل البلاد المفتوحة المال مقابل بناء سد يحول بينهم وبين أعدائهم، لكن ذي القرنين رفض المال، وسعى لتنمية الطاقات البشرية لأهل تلك المناطق، ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿ ٩٤ ﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿ ٩٥ ﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿ ٩٦ ﴾ (الكهف).

هكذا هي نظرة الحاكم المؤمن للإنسان والحياة والكون، لقد رفض المال، وأراد من أهل تلك المناطق المتخلفة أن يعتمدوا على أنفسهم ،من خلال تنمية طاقاتهم، فقال لهم أعينوني بقوة، وآتوني زبر الحديد .. وأتوني أفرغ عليه قطرا .. إن هذه الكلمات على وجازتها وقلتها، تكشف لنا قواعد الفكر الاقتصادي عند الحضارات الإيمانية، كما تظهر لنا أصالة هذا المنهج وسمو أهدافه.

رابعا : الإدارة :

ما من ريب في أن النشاط الإداري يرتبط أشد الارتباط بالممارسات الاقتصادية في إطارها الشامل، ويأخذ معها علاقة طردية، فكلما كانت القيادة عادلة ، كان الجهاز الإداري في أحسن أحواله، وكلما كانت القيادة ظالمة أصيب الجهاز الإداري بالتفكك والاضطراب، وثمة صيغ شتى للقيم الإدارية أشارت لها القصة القرآنية، كوضع الرجل المناسب في المكان المناسب﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)، والتركيز على العناصر الكفؤة بدءا بالقادة والوزراء وانتهاء بالموظفين .

أخبرنا القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام، وما كان ينتظر مصر آنذاك من قحط وجدب، مما دفع يوسف عليه السلام لتبني سياسات إدارية كان لها أكبر الأثر في إنقاذ مصر من مجاعة مؤكدة.

كما أنه عليم، يملك من العلم والمعرفة والخبرة والدراية، ما يعينه على أداء هذه المهمة الخطيرة، وهنا يقدم لنا يوسف عليه السلام مجموعة قيم اقتصادية وعلمية، ويبين لنا أهمية العلم في شتى المجالات للنهوض بالحضارات، ويربط لنا بين القيم المادية والقيم المعنوية، فالمهمة التي يقدم عليها تتطلب ممن يليها أن يتمتع بالحفظ والأمانة والعفة والنزاهة، وأن يتمتع بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط، وما قام به يوسف عليه السلام لا يعد غنما شخصيا، فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متتالية، لا يقول أحد إنه غنيمة، بل هي تبعة يهرب منها الرجال[1].

وبعد أن استلم موقع الإدارة، قام بتنفيذ الخطط للخروج بالبلاد من الأزمة الاقتصادية: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴿٤٧﴾ الآيات (يوسف).

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج٤، ٢٠٠٥/١٣.

حيث استفاد من سنوات الرخاء والخصب ، وذلك باستغلال الموارد المتاحة في الزراعة، وتوظيف كل الطاقات والقدرات، ومعنى دأبا، أي بجد واجتهاد ونشاط واستمرار [1]، أي تدأبون دأبا، وتستمرون استمرارا في الزراعة والحصاد في المواسم الزراعية طيلة سنوات الرخاء، وعند حصاد المحصول يرشدهم إلى طريقة مبتكرة في حفظ الحبوب ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾ أي إبقاء الحبوب في سنابلها لحمايتها من السوس والعوامل الجوية الأخرى، والآية توحي بأن يوسف عليه السلام جهز الصوامع لحفظ المحصول الكبير، وأوجد الوظائف للقيام بإدارة شؤون التموين، ثم وضع خطة لتقنين وترشيد الاستهلاك وذلك في قوله: ﴿إلا قليلا مما تأكلون﴾ أي لا تخرجون من المخزون إلا مقدار حاجتكم للأكل .

﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾ وهنا إشارة إلى أهمية التحليلات والتوقعات لما يحتمل أن تأول إليه الأحوال الاقتصادية عند أهل الحصافة والخبرة، ووضع الحلول المناسبة لمواجهة أسوأ الاحتمالات، وهو ما قام به يوسف عليه السلام على أكمل وجه، فمعلوم أن سنوات الجدب تأتي على المخزون الاحتياطي من المال والتموين، ولهذا قام بالتقنين في هذه السنوات المجدبة ، حتى لا يستنزف المخزون الاحتياطي، فعليهم استهلاكه بتنظيم ويبقوا منه شيئا للمستقبل ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾. وما ذكرته قصة يوسف، يعد من أهم مبادئ الاقتصاد والتخطيط والسياسات المالية عند الحضارات المتقدمة [2].

خامسا : المال والغاية منه :

يقوم النظام الاقتصادي على المال، فهو يحتل مركز الصدارة في الدراسات الاقتصادية، وللمال عدة أشكال كالأراضي والعقارات والحيوانات، وأبرز أشكاله النقود كالذهب والفضة والعملات النقدية.

---

[1] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت٢٠٣/٥

[2] نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان ، ط١٩٨٩،١م، بتصرف واختصار

والفكر الإسلامي ينظر إلى المال باعتباره مال الله، وهو مستخلف فيه ومحاسب على طرق اكتسابه وانفاقه، يوضح هذه القاعدة قول الرسول صلى الله عليه وسلم:" لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ[1].

وقد جاءت قصة قارون لتبرز لنا هذا الجانب الاقتصادي، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾(القصص)، تتضمن هذه الآية القواعد الأساسية في نظرة أهل الإيمان للمال، وتتضمن كل قاعدة قيمة إيمانية قدمها أهل العلم نصيحة لقارون ولكل من أنعم الله عليه بنعمة المال [2].

القاعدة الأولى: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾، وهي فرح الكفار بما في أيديهم، وغرورهم به، واستخدامه فيما يغضب الله تعالى، من الفسق والفجور والفساد، وهذا الفرح القائم على التكبر والبطر والطغيان هو سبب من أسباب تعذيبهم يوم القيامة، ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ (غافر) ، يقول د. فضل عباس: "والحق أن قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف، لذا إذا لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها بالعقيدة الحقة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت".[3]

[1] رواه الترمذي، أبواب الزهد، باب في القيامة، ص٥٥٠، حديث رقم:٢٤١٧.قال عنه الترمذي : هذا حديث حسن صحيح
[2] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨ج٣ص٥٦
[3] عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم ، دار النفائس عمان، ط٢/٢٠٠٧ ص٤٧٢

القاعدة الثانية: ﴿ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾،قد يرزق الإنسان من الأموال الشيء الكثير، حسب سنة الله في كسب المال، والتي يخضع لها المؤمن والكافر، ويستفيد منها المطيع والعاصي، وعلى هذا فكون الإنسان كثير الأموال لا يجعله ذلك قريبا من الله تعالى مرضيا عنه، إن الذي يقربه غلى الله إيمانه وعمله الصالح [1].

القاعدة الثالثة :﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، قال سيد قطب:" وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة."[2]

القاعدة الرابعة :﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، تقوم عقيدة المؤمن على أن المال إحسان من الله تعالى ونعمة منه، وطالبهم أن يحسنوا في هذه النعم، والإحسان يكون بشكر الله على هذه النعم، والإحسان إلى الناس من خلال نفعهم بهذا المال، والله وعدهم إن هم شكروه بالزيادة:﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(ابراهيم:٧)، لذلك طالب المؤمنون قارون أن يقابل إحسان الله إليه بالإحسان، وذلك باستخدام تلك الكنوز بنفع الآخرين.

القاعدة الخامسة: ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾،جاء في التحرير والتنوير: ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد وإنما نص عليه لأنه لما تعددت موارد الإحسان والإساءة فقد يغيب عن الذهن أن الإساءة

1 زيدان، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن ، دار الرسالة بيروت، ٢٠٠٦ ط١ ص٣٨٥
2 قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٢٧١١/٢٠.

إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يعتبر غير إحسان ، وجملة ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ علة للنهي عن الإفساد، لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله [١].

ومن أبرز المعاملات المالية المرتبطة بالقيم الاقتصادية نظام الزكاة، فبالإضافة إلى طبيعته التعبدية فإن له آثار اجتماعية واقتصادية، وما يعنينا في هذا المجال، الأثار الاقتصادية للزكاة والتي دعا إليها الإسلام على لسان جميع الأنبياء والمرسلين باعتبارها جوهر السياسة المالية الإسلامية يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء ٧٣.

إن مجرد تحصيل الزكاة من شأنه أن يدفع الناس إلى استثمار أموالهم، وإلا أتت عليه الزكاة، ولهذا السبب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا من ولي يتيما له مال فليتجر به ولا يتركه حتى تأكله الصدقة"[٢]، وهكذا تصبح الزكاة عقوبة على كنز المال وعدم استثماره لما يؤدي إليه هذا الاكتناز من ركود اقتصادي .

وتعتبر الزكاة أحد وسائل تفتيت الثروة ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (الحشر:٧)، ومن المعلوم أن من أبرز عيوب النظام الرأسمالي تكدس الثروة بيد مجموعة قليلة من الناس.[٣]

سادسا : القيم المعمارية في القصة القرآنية :

تعتبر القيم المعمارية انعكاسا لثقافة الشعوب في المقام الأول، وللقوة الاقتصادية بجميع أركانها في المقام الثاني، حيث كان لوحدة العقيدة الدينية أثرا ملموسا على القيم المعمارية في المجتمعات المسلمة،

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٨، ١٨٠/٢٠.
[2] رواه الترمذي في سننه، أبواب الزكاة، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم، ص١٦٤، حديث رقم: ٦٤١، والحديث تكلم به غير واحد من أئمة الحديث ، ولكن أكثرهم على أنه صحيح قابل للاحتجاج به كما صرح الترمذي، من الذين أخذوا به مالك والشافعي وأحمد.
[3] الوادي، محمود، وآخرون، الاقتصاد الإسلامي، دار المسيرة ، ط١، ٢٠١٠م،ص ٢٣٧

وأول مشهد معماري تبرزه القصة القرآنية مشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان أول مسجد يعبد فيه الله تعالى، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧)،

والقصة القرآنية تشير بوضوح إلى اهتمام أهل الإيمان ببناء دور العبادة وكل ما فيه مصلحة للبشرية ، كالسدود والقدور الراسيات لإطعام الناس وإنشاء المصانع والصوامع ، أما بناء القصور الفارهة والمبالغة بالتأنق والتفاخر في عمارتها ، فليس من القيم الإيمانية في شيء، بل إن الله توعد المسلمين إذا كان حب البيوت والأموال أعظم في قلوبهم من حب الله والجهاد في سبيله ، {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (التوبة:٢٤).

وهذا لا يعني بحال إهمال العمارة في المجتمعات الإيمانية ،فالقيم المعمارية تنقسم إلى قيم تنظيمية ، وقيم جمالية [1]، وهما من القيم المطلوبة ، وهناك الترف والمبالغة والمفاخرة ، وهي ليست من قيم مجتمعات الإيمان.

وكان اهتمام نبي الله سليمان عليه السلام واضحا في الفنون المعمارية الإسلامية، حيث سخّر لهذه الغاية كل الطاقات الممكنة ، {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } (الأنبياء:٨٢) ،{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ } (ص:٣٧) ، لقد استخدم سليمان الموارد الطبيعية في مرضات الله تعالى حيث استفاد من ثروات الأرض والبحار، واستخدامها في البناء وعمارة الأرض بما يتوافق والمنهج الرباني، قال تعالى:﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ

[1] سليمان، صباح، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ط١،٢٠١٠م،المقدمة

رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، فقام عليه السلام ببناء المحاريب، وهي دور العبادة، وهذا فيه إشارة إلى أن المساجد التي يعبد بها الله تعالى كانت منتشرة في مملكة سليمان الإيمانية،

وهذا يدل على أن الطابع العام للعمارة الإيمانية يتمثل في المساجد، باعتبارها مظهرا حضاريا يميز المجتمعات المؤمنة.

وفي قصته مع ملكة سبأ تتكشف لنا قيم معمارية في غاية الأهمية، ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤)، أراد سليمان عليه السلام أن يري الملكة وقومها، مدى التقدم الحضاري الذي وصل إليه من الناحية المعنوية والفكرية، ومن الناحية المادية المتمثلة بمظاهر قوته ومن خلال فنون العمارة المتطورة، وهذا يشير إلى أهمية التقدم المادي والعمراني في التأثير بالثقافات الأخرى، فالطبيعة البشرية مجبولة على ذلك، وما نراه اليوم من انبهار شباب المسلمين بالحضارة الغربية ما هو إلا نتيجة لما وصلوا إليه من تقدم مادي في جميع المجالات، وقد ذكرت لنا القصة القرآنية هذه الحقيقة لتؤكد أهمية القيم المادية في التأثير بالآخر، شريطة أن تكون منسجمة مع قيمنا الفكرية والعقائدية، وعلى ضوء ذلك نفهم تعمد سليمان عليه السلام التأثير في ملكة سبأ من خلال طريقة دخولها لقصره ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤).

قال الزمخشري: "الصرح: القصر، والممرد: المملس...وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحققاً لنبوته، وثباتاً على الدين"[1]، فكان هذا سببا في دخولها الإسلام والخضوع لأمر الله.

إن قصة سليمان كفيلة بإظهار القيم المعمارية كسياسة تطبع الحكم السليماني، ويمكننا أن نرجع ذلك التقدم العمراني إلى سببين رئيسيين:

الأول: الإمكانات المتاحة التي سهلت على الدولة أن تتطور مدنيا وتبني حضارة متميزة.

الثاني: القيادة الحكيمة التي تجيد استخراج الطاقات وتوظيفها فيما يخدم غرض الدولة ورفعتها.[2]

و قصة ذي القرنين تشير إلى قيمة " الغاية من العمارة "، قال تعالى: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿ ٩٦ ﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴿ ٩٧ ﴾ (الكهف)، وظاهر القصة يبين أن أهل البلاد المفتوحة كانوا قوما ضعافا لا يستطيعون صد هجمات يأجوج ومأجوج، ولا يستطيعون منعهم من الفساد، وعرضوا على هذا القائد المؤمن المال مقابل إنشاء سد يحول دون هجمات الأعداء، فرفض المال وطلب منهم أن يعاونوه على بناء السد، وتظهر هنا المواهب الهندسية والمعمارية لهذا القائد العظيم، وتسخير العلم والمعرفة والبناء لما ينفع الناس، مع الإشارة إلى أن هؤلاء القوم ليسوا من شعبه، وهذا يؤكد على قيمة أخرى، وهي أن من الواجب الحضاري للمجتمعات الإيمانية دفع الظلم عن الإنسانية ونصرة المظلوم أينما كان، ولو كان من غير المسلمين، فذو القرنين بذل الجهود الفكرية والهندسية والمالية لدفع الظلم عن المظلومين.

وقد استخدم ذو القرنين الحديد والنحاس المصهور لبناء السد، ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ وزبر الحديد هي قطع الحديد الضخمة[1]، وهذا يدل

---

[1] الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، مج٣،٣٥٨.
[2] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط٢٠٠٨/١ ص١٩٣-١٩٤

على أن البناء كان في غاية المتانة والصلابة والإتقان، بدليل قوله ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ .

ومن الدروس المستفادة في هذا الجانب، أن المسلمين يقومون بإنشاء الصناعات العسكرية منها والمدنية لخدمة الأمة وحمايتها من أعدائها، لقد كان القوم مهددين من قبل يأجوج ومأجوج، ولولا بناء السد لبقي القوم تحت رحمة الجبارين والمتغطرسين، فلا بد من العمل والجهد والتطور الصناعي والتقني والعسكري لردع العدوان.

[1] ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت٩/٧

المطلب الثاني : القيم السياسية :

ترتبط السياسة بالتجمع البشري وما يفرضه من علاقات اجتماعية تقوم على تبادل المصالح والحاجات وتحقيق الرغبات، وحيث أن البشر متفاوتون في قدراتهم واستعداداتهم ومعتقداتهم تنشأ الحاجة إلى السلطة السياسية لتنظيم الجوانب المختلفة في إطار العلاقات الدائمة بين أفراد الجماعة الواحدة[1]، من هنا يختلف مصطلح السياسة في الإسلام عن مضمونه في الفلسفات الأخرى، فالسياسة في المصطلح الإسلامي تعني التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد[2]، ولتطبيق هذه التدابير لا بد من وجود حكم ودولة تأخذ بها وتعمل على تنفيذها.

وعليه فالدولة الإسلامية هي مجموعة من الأفراد – هم في الغالب مسلمون – يعيشون على رقعة من الأرض، ويلتزمون التزاما تاما بالقواعد والأحكام والضوابط الإلهية، ويخضعون لسلطة سياسية تكفل تحقيق ما أمر به الشارع[3]،ومن ثم فأركان الدولة الإسلامية هي الأرض والشعب والقيادة والدستور "الشريعة ".

أولا :صفات الحاكم المسلم:

الحاكم في الدولة الإسلامية هو ذلك الرجل المسلم صاحب الكفاية في العقل والتقوى والقدرة والشجاعة الذي يتولى سياسة الدولة، وينظم شؤونها، ويفصل في مشكلاتها وقضاياها وفي علاقات أفراد شعبها وشؤون معاشهم وعمرانهم والدفاع عنهم، وهو أحد أسس الدولة التي لا تنبني إلا عليها ولا تقوم إلا بها، بل هو أهمها وأخطرها، إذ إن صلاح الدولة بصلاحه وفسادها بفساده[4].

[1] قاسم، محيي الدين، السياسة الشرعية ومفهوم السياسة الحديثة، المعهد العالي للفكر الإسلامي ،القاهرة ط١٩٩٧،١، ص٥٣

[2] عمارة، محمد، الإسلام السياسي والتعددية السياسية من منظور إسلامي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ٢٠٠٣،ص ١٤

[3] أبو عيد، عارف خليل،نظام الحكم في الإسلام ،الأردن، دار النفائس، ط١،ص٤٥

[4] أبو عيد، عارف خليل، وظيفة الحاكم في الدولة الإسلامية ،الكويت، دار الأرقم ، ط١٩٨٥،١م، ص١٣

وسنعرض فيما يلي بيان لأهم صفات هذا الحاكم من خلال القصص القرآني، خصوصا أن القصة القرآنية أعطت مزيدا من الاهتمام لصفات القادة المصلحين، لتؤكد أثرهم في النهضة الحضارية لشعوبهم، ولا ننسى في هذا المقام أن بعض دارسي الحضارات مثل " تونبي " جعل سبب النهوض بالحضارة وتطورها يرجع إلى بصيرة القيادة الرشيدة للخاصة أو النخبة ، والتي تستطيع أن تجد للتهديد والتحدي الذي يواجه المجتمع الاستجابة والرد السليم، وتتابعها الجماهير.

١- **أهمية القيادة والحكم:** يطالعنا في هذا السياق مشهد موسى عليه السلام عندما قال لأخيه هارون: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(الأعراف:١٤٢)، فالآية دليل على أهمية الإمارة والخلافة والقيادة، واهتمام كل دين بها، فقد كان موسى عليه السلام قائدا لبني إسرائيل، يسوسهم بأحكام الله ، ولما اضطر إلى أن يغيب عنهم ، لم يتركهم بدون أمير قائد، وإنما عين هارون قائدا عليهم، وخليفة له فيهم، وهذا فيه تأكيد على أهمية القيادة للمجتمعات الإنسانية .

والقيادة والحكم في الفكر الإسلامي مهمة تكليفية لها تبعاتها، نستشف ذلك من قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ (الأعراف:١٦٠)، لقد استسقى الرعية قائدهم موسى عليه السلام، فتوجه موسى إلى الله بالدعاء، والآية توحي وتدل على أن وظيفة القائد والإمام هي وظيفة تكليف وليست وظيفة تشريف، وأن من أوجب مهام القائد القيام برعاية شؤون رعيته.

٢- **العلم:** كان من أهم الصفات التي أهلت طالوت للملك من المنظور الإيماني، قال تعالى:﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٤٧).

قال الإمام الراغب في معنى البسطة:" بسط الشيء: نشره وتوسيعه، وقوله: ﴿وزاده بسطة في الجسم والعلم﴾: سعة، وقال بعضهم: بسطته في العلم هو أن انتفع به هو، ونفع غيره، فصار له به بسطة، أي جودا"[1].

ومن صفات الحاكم المسلم حسن اختيار أعوانه، فحكومة سليمان من أهل العلم والرأي ،يقول تعالى:{ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ{٣٨} قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ{٣٩} قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ{٤٠}(النمل) .

والملاحظ أن العفريت اتصف بصفتين: القوة والأمانة، والآية تدل على أن جنود وحاشية سليمان عليه السلام كانت تتصف بالصفات الإيمانية، وهذا ثمرة من ثمار تربية سليمان وحرصه على انتقاء أعوانه، لعلمه بأهمية الدور الذي يناط بهم في المشاورات والأعمال، وإذا كان العفريت يتصف بالقوة والأمانة، وهذا له أثره على القائد والحاكم، فالبطانة الصالحة من تمام الملك عند المسلمين، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" مَا مِنْ وَالٍ إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ وَهُوَ مِنْ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا" [2].

٣- **الكفاءة الجسمية:** بالإضافة إلى أهمية الجانب العلمي، هناك الجانب المادي وهو البسطة في الجسم، والمقصود أن يتمتع القائد بالجسم السليم، فالقائد يجب أن يكون فارسا في ميدان القتال قدوة لجنوده شجاعا في ساحة القتال، وكل ذلك لا يكون إلا بالجسم السليم.

[1] المفردات ، ص٧٧.

[2] رواه النسائي في سننه، كتاب البيعة، باب بطانة الإمام، ص٥٨٦، حديث رقم: ٤٢٠٦. صحيح / سلسلة الأحاديث الحصيصة/٥

لقد تمتع داود عليه السلام بالقوة الجسدية ، دليل ذلك عدة أمور: لقد ثبت داود عليه السلام مع القلة الصابرة في جيش طالوت بعد اجتياز جميع اختبارات الشجاعة والتحمل، وهذا يدل على قوته النفسية والبدنية، ثم إنه لم يكن جنديا عاديا في جيش طالوت، بل كان من القوة والشجاعة اللتين مكنتاه من قتل الطاغية جالوت: :{ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}، إن قوام شخصية الحاكم في المجتمعات المحاربة يتطلب قدرا هائلا من القوة الجسدية، مما جعلها مقياسا لاختيار شخص القائد أو الحاكم، ويعتبر تمتع داود عليه السلام بالقوة البدنية سببا من أسباب توليه سياسة أمور الناس.[١]

وفرق بين القادة الذين يظهرون من وسط ميدان المواجهة والقتال ويتصفون بصفات العلم والحكمة والشجاعة والقوة والتحمل، والقادة الذين يعينون تعينا دون سبر وصقل لخبراتهم وإمكاناتهم، وهذا دليل على أن الملك ليس ميراثا يورث عن الآباء والأجداد، قال الإمام الرازي: "هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة وراثة "[٢].

فالقائد والحاكم يجب أن يتمتع بالصفات والمؤهلات المادية والمعنوية المتمثلة بقوله تعالى :﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ومن لطافة التعبير القرآني أن كلمتي القوة والأمانة، لم تستخدم إلا مرتين: المرة الأولى في هذا الموضع، والمرة الثانية في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، فعندما طلب ممن حوله إحضار عرشها، عرض عليه عفريت الجن إحضاره وبين أنه قوي أمين:﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٩).

٤ – **العبادة والتقرب من الله:** وهي صفة لازمة للحاكم المسلم، والقدوة في ذلك نبي الله داود عليه السلام، ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ١٧).

---

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم المسلم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط٢٠٠٨/١ ص١٢٦

[2] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٥٦/٦.

فقد كان داود عليه السلام من أعبد الناس بالإضافة إلى مهمته كقائد وخليفة لبني إسرائيل، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لقي"[1]، ولقد حرص النبي عليه السلام على بيان التكامل في شخصية القائد القدوة ، فزيادة على أنه أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصياما، فهو أشجعهم أيضا في الميدان، ولا ننسى أنه هو الذي قتل جالوت الكافر ﴿ وقتل داود جالوت ﴾، إن هذا التكامل والتوازن بين القيم المعنوية والقيم المادية هو من أبرز سمات القادة والحكام في المجتمعات المؤمنة.

٥- **إقامة العدل** : وهي نتيجة حتمية للعبادة والقرب من الله، لقد كان للعبادة في قصة ذي القرنين، أثرها العملي الواضح في إقامته للعدل والحق ومحاربة الظلم والفساد، وخدمته لأمته ودينه كقائد لهم، ومن الصفات التي تبرزها القصة ، زهد ذي القرنين بالمال واستعلائه عليه ،وهي من أبرز قيم الحاكم العادل الزاهد، فعرض عليه أهل البلاد المفتوحة المال في مقابل بناء سد لهم يمنعهم من هجمات المعتدين من قوم يأجوج ومأجوج ، فما كان جوابه إلا أن قال: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ (الكهف:٩٥)، وهذا يدل على وجوب زهد الإمام في أموال رعيته، وشتان بين من قال: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ومن حاله ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

وبعد أن قام ذو القرنين ببناء السد، أظهر لنا خلقا آخر من أخلاق الحاكم المسلم: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ (الكهف:٩٨)، لقد نسب الخير والرحمة في بناء السد إلى الله تعالى بكل تواضع وإخبات، إن القائد المسلم لا يفخر ولا يغتر أمام منجزاته وانتصاراته، بل تراه متواضعا لله تعالى، راجيا منه قبول

[1] رواه البخاري، كتاب احاديث الانبياء، باب : أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، ص٦٢٩،حديث ٣١٦٧.

العمل، ولا يفوتنا هنا التأكيد على ما ذكرته سابقا في موضوع العدل الاجتماعي ، وكيف أن داود وسليمان عليهما السلام كانا يقيمان العدل بين الناس.

٦- **الاجتهاد في القضايا المستجدة:** قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾(طه)، لقد اجتهد هارون عليه السلام في سياسة قومه عند تعارض مصلحتين، مصلحة حفظ العقيدة، ومصلحة حفظ الجماعة والأنفس، فرجّح حفظ الجماعة على حفظ العقيدة اجتهادا منه، وكان اجتهاده عليه السلام مرجوحا، لأن حفظ العقيدة هو الأصل، ومصلحة حفظ العقيدة مقدم على ما سواه من المصالح[1].

ثانيا: السياسات الداخلية للدولة

١- تطبيق الشريعة

الغاية الأساسية للدولة الإسلامية عند التمكين في الأرض، إقامة شرع الله تعالى، والقضاء على الشرك والانحراف والفساد، وسياسة أمور الرعية في حدود ما أنزل الله، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(الحج:٤١)، ومن خلال استعراض القصص القرآني نجد أن أهم السياسات الداخلية التي يقوم بها الحاكم المسلم هي تنفيذ أحكام الإسلام في البلاد التي تخضع لسلطانه[2].

[1] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٧، ٢٩٣/١٦-٢٩٤.
[2] أبو عبيد، عارف خليل،نظام الحكم في الإسلام ،الأردن، دار النفائس، ط١،ص٢٦٨

في قصة يوسف عليه السلام، وبعد أن تولى منصب العزيز، يبرز لنا مشهد يوسف وهو يمارس سلطاته الدستورية: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) .

فالراجح أن يوسف عليه السلام كان نبيا عندما تولى منصب العزيز، وهذا معناه أن يوسف كان يحكم البلاد بشرع الله، ويدبر الأمور على منهاج الله، فهو نبي، والنبي عندما يلي الأمور لا يحكم إلا بشرع الله، يقول سيد قطب:" إن هذا النص يحدد مدلول كلمة "الدين" في هذا الموضع تحديداً دقيقاً، إنه يعني: نظام الملك وشرعة، فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته، إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه، وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعتهم، فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك في رحل أخيه، وعبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها "الدين"[1].

وفي قصة داود عليه السلام جمع الله لداود بين النبوة والملك، ليكون خليفة الله تعالى في الأرض: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص:٢٦)، وهذا معناه أن حكمة كان حكما ربانيا، وملكه كان ملكا إسلاميا يحكم بشريعة الله تعالى، وبما أنه خليفة فقد آتاه الله الوسائل والأدوات التي تساعده على القيام بالخلافة: ﴿ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وآتاه الفضل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (سبأ:١٠).

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٠٢٠/١٣.

وبهذا كان داود عليه السلام أول مؤسس للدولة المدنية الإيمانية، ولهذا ناسب أن يعطى لقب خليفة، ومن لطائف القرآن أن كلمة خليفة لم ترد في القرآن إلا مرتين، الأولى في قصة آدم: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾(البقرة:٣٠)، والثانية في وصف داود بأنه خليفة: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾(ص:٢٦)، ولعله أول خليفة في التاريخ بالمعنى الشرعي للخلافة، ومن معاني ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ كما يقول الإمام الرازي: إن الإنسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحق الإلهية انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه[1].

وفي قصة موسى عليه السلام لمّا ذهب لميعاد ربه، قال له الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:١٤٥)، لقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأخذ ما في الألواح بقوة، والمراد بالقوة هنا قوة العزيمة والإرادة، قال ابن عاشور: "والقوة حقيقتها حالة في الجسم يتأتّى له بها أن يعمل ما يشُق عمله في المعتاد فتكون في الأعضاء الظاهرة مثل قُوة اليدين والرجلْين، وتكون في الأعضاء الباطنة مثل قوة الدماغ على التفكير

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٨٣/٢٦.

والقوة هنا في قوله: ﴿ فخذها بقوة ﴾ تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الألواح، بمنتهى الجِد والحِرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، ومنه قوله تعالى: ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾، وهذا الأخذ هو حَظ الرسول وأصحابه المبلغين للشريعة والمنفذين لها، فالله المشرّع ، والرسولُ المنفذ، وأصحابه ووُلاةَ الأمور هم أعوان على التنفيذ، فقوله: ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ تعريج على ما هو حظ عموم الأمة من الشريعة وهو التمسك بها"[1].

إن من أبرز القيم السياسية في المجتمعات الإيمانية الحكم وفق التشريعات والقوانين الإسلامية، وتاريخ تلك المجتمعات يؤكد هذه العقيدة، لقد حكم يوسف وفق شرع الله، ومن بعده موسى وداود وسليمان، وفي سورة المائدة يطالب الله تعالى بني إسرائيل بالحكم وفق منهج الله، كما يطالب المسلمين بالحكم بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿ ٤٤ ﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ ٤٥ ﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ٤٦ ﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿ ٤٧ ﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ . . ﴾ (المائدة).

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٤، ٩٩/٩-١٠٠.

ومن هنا تتأكد حقيقة ارتباط القيم الإيمانية والاعتقادية بالقيم السياسية، فالشريعة والأوامر والتكاليف لا يحرسها إلا القلب المؤمن، وهذا هو سر نجاح الإسلام في تشريعاته ونصوصه، حيث أحيا قلوب المؤمنين، وربطها بالله فالتزمت بطاعته، أما الأنظمة والمناهج الأرضية، فهي غافلة عن ربط الإيمان بالسياسة والتشريع والقانون، عند ذلك لا يكون سوى التحايل على تلك القوانين من خلال الثغرات التي تعتريها، واذا ما فرغت القلوب من الإيمان والخوف من الله، أصبحت قلوب متحايلة متفلته من شرع الله، وكان نتيجة هذا البعد والفسق الابتلاء من الله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾(العنكبوت:٣٤).

٢- إقامة العدل وتحقيق المساواة .

إن إقامة العدل في الدولة الإسلامية ليست من الأمور التطوعية التي تترك لرأي الحاكم، بل تعد من أقدس الواجبات وأهمها: ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾(النساء:٥٨)، وقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم بل دون النظر إلى عقائدهم، وهذه القيمة بهذه الكيفية لا تجدها إلا بالمنهج الرباني المنزه عن الميل والهوى.

ويضع لنا ذو القرنين القاعدة الربانية في إقامة العدل بين الناس: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴿ ٨٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾(الكهف:٨٧-٨٨)، يعلق سيد قطب على الآية فيقول:" وهذا هو دستور الحكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء

إفساده عقوبة وإهانة وجفوة ، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد "[1].

٣- محاربة الفساد

إن من أهم السياسات الداخلية محاربة الفساد بشتى صوره، ابتداء من الفساد الاعتقادي وصولا إلى الفساد المالي والإداري، فعندما علم موسى عليه السلام بما قام به السامري سارع بتطبيق العقوبات على الظالمين والفاسدين، صيانة للمجتمع من شر هؤلاء: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾ (طه:٩٧)

فكانت عقوبة السامري أن يخلع من بني إسرائيل، ويعزل عنهم، قال ابن عاشور:" سلبه الله الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوساً ووسواساً وتوحشاً، فأصبح متباعداً عن مخالطة الناس، عائشاً وحده لا يترك أحداً يقترب منه، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية"[2].

ثم بين لقومه خطورة فعلهم فقال لهم: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ قصد بذلك "تنبيههم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحق، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات"[3]، وهذا هو واجب الحاكم في حفظ العقيدة وصيانتها، ومحاربة الفاسدين والظالمين وفق شرع الله تعالى ومنهجه.

---

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٢٩١/١٦.
[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٧، ٢٩٨/١٦.
[3] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٧، ٣٠٠/١٦.

إن من أهم واجباته أن يكون حازما مع الفاسدين لكي تستقيم المسيرة الحضارية للأمة، لقد وصف الله سليمان عليه السلام بالحزم في حكم الجن والشياطين: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾(سبأ:١٢)،ولم يكن سليمان يتساهل مع عماله فمن يقصر أو يتمرد أو يخالف يقيد بالقيود ويصفد بالأصفاد ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾(ص:٣٨)، وفي موقفه من غياب الهدهد، وإعلان الوعيد الشديد على أسماع الحاضرين: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾النمل٢١ في هذا الموقف إعلان للحرب على الفساد الإداري والتسيب الوظيفي، ولجم لكل فكرة تقصير وإهمال تطرأ على قلب كل سامع.[1]

٤- الشورى

الشورى في اللغة مشتقة من الفعل شور، وتأتي لمعاني عدة منها استخراج العسل من قرص الشمع، وتفحص بدن الدابة عند الشراء ولكن غلب استعمالها في طلب الرأي والبحث عن الصواب[2] .

ومعناها في الاصطلاح: استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق[3]. من هنا كان للشورى أهمية كبيرة في حياة الأمم والمجتمعات باعتبارها الطريق السليم للتوصل إلى أصوب الآراء والحلول، وتبرز قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبا هذه القيمة.

حين وصل كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ، وعلمت أنها مقدمة على أحداث عظيمة، قامت باستشارة الملأ، وعرضت عليهم الأمر، وهذا الموقف من ملكة سبأ يشير إلى طبيعة نظام حكمها ،فهو نظام يقوم على مشاركة أصحاب لرأي في اتخاذ القرارات المصيرية، من خلال الحرص على أخذ

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط١/٢٠٠٨ ص١٧٢
[2] ابن منظور، لسان العرب ، ١٦٠/٨.
[3] الأنصاري، عبد المجيد، الشورى وأثرها في الديموقراطية ،بيروت، المكتبة العصرية، ص٤

آرائهم، وفي قولها هذا دليل على حسن سياستها، ورجاحة عقلها، حيث جمعت رؤوس مملكتها واستشارتهم في أمرها، وبذلك طابت نفوسهم وزادت ثقتهم فيها.[1]

وقد ذكرت القصة هذا المشهد باعتباره مزية تسجل لحضارة سبأ رغم كفرهم بالله، لتبين للمسلمين أن قيمة الشورى تعتبر من القواعد المهمة في نهضتهم الحضارية ، من ثم وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨)، ولا يخفى ما لدلالة اسم السورة على أهمية هذه القيمة.

ثالثا : السياسات الخارجية للدولة

١- الجهاد والغاية منه :

يعتبر الجهاد أصيل في تاريخ الحضارات الإسلامية، فكل نبي جاء بالجهاد، وكل كتاب من كتب الله كان يحث على الجهاد، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(التوبة:١١١)، فالآية تخبرنا أن الجهاد من أهم السياسات الشرعية المتجذرة في الديانات السماوية، و للجهاد غايات وأهداف بينها علماء الإسلام، يقول الشيخ محمد أبو زهرة تحت عنوان "الباعث على الحرب في الإسلام": قاتل النبي صلى الله عليه وسلم لأمرين: الأول: دفع الاعتداء

[1] طنطاوي، محمد سيد، القصة في القرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة القاهرة،٢٠٠٣/ ج٢ص٦٩-٧٠

..والثاني: تأمين الدعوة الإسلامية لأنها دعوة حق،[1] ويبين د. وهبة الزحيلي في كتابه "العلاقات الدولية في الإسلام" أهم الحالات لمشروعية الجهاد فيما يأتي:

١- دفع الاعتداء عن المسلمين وديارهم وأموالهم.

٢- كفاية حرية العقيدة، وانتشار دعوة الإسلام، ومنع الفتنة في الدين.. فإذا أحيل بين التبليغ وجموع البشر وجب تحقيق المطلوب بالقوة.

٣-الحرب لنصرة المظلوم فردا أو جماعة، ويمكن تسميتها بالحرب التأديبية التي تقتضيها مصلحة السلام العام [2].

ومن الملاحظ أن القصة القرآنية ذكرت أمثلة على قيمة الجهاد لأهميتها في ترسيخ جذور الحضارة الإيمانية من جهة، وحمايتها والذود عنها من جهة أخرى، من ذلك ما قصه الله علينا من خبر طالوت عليه السلام، فبعد وصوله للحكم والملك بسبب مؤهلاته بدأ يعد قومه للجهاد لتحرير المقدسات وإعادة المجد والرفعة للأمة، من خلال الاستعداد للمعركة الفاصلة بينهم وبين أعدائهم، وتطالعنا القصة القرآنية بمشاهد من التعبئة المادية والمعنوية والإعداد والتوجيه الذي قام به طالوت لجنوده، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾(البقرة:٢٤٩) قال الإمام الرازي:" فصل بهم أي فارق بهم حد بلده وانقطع عنه، ومعنى الفصل القطع ، إذا كان يقطع بين الحق والباطل "[3].

أراد طالوت أن يجهز جنوده للجندية من خلال إخضاعهم لمجموعة من التدريبات لتشتد عزائمهم، وتقوى إرادتهم، ويصلب عودهم لأنه يعلم أن القتال ليس بالكلام وإنما بأفعال الرجال، قال سيد قطب:

[1] أبو زهرة، محمد، العلاقات الدولية في الإسلام ،القاهرة، الدار القومية،١٩٦٤م، ص٩٢.
[2] الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام ،بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م،ص ٣٠.
[3] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٦١/٦.

"هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل، إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتستعلي على الضرورات والحاجات، فلا بد للقائد المختار إذاً أن يختبر إرادة جيشه ، وصموده وصبره ،.. وصحت فراسته ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ [1].

ولكن هذا لم يثبط من عزم القائد المتوكل على الله تعالى، لذلك استمر في سيره نحو عدوه متوكلا على الله، لكنه وجد أن القلة التي نجحت في التدريبات العسكرية أصيبت في هممها، لقد سيطر عليهم الجبن والخوف والهلع ولم يقيسوا الأمور بميزان أهل الإيمان، ولكنهم وزنوها بالميزان المادي فإذا هم أقلية وأعدائهم أكثرية، فدخل الرعب قلوبهم وقالوا قولتهم ﴿ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ ﴾ .

أما أهل الإيمان فقالوا : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ إن ميزان هذه الفئة من المؤمنين مقياس ثابت يعتمد على قيم راسخة، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، والصبر على اللقاء رغم قلة العدد، وهي سبب علو هممهم في كل زمان ومكان.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(البقرة: ٢٥٠)، قال الألوسي:" وفي هذا الدعاء من اللطافة وحسن الأسلوب والنكات ما لا يخفى، أما أولاً: فلأن فيه التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، وأما ثانياً: فلأن فيه الإفراغ، وهو يؤذن بالكثرة، وفيه جعل الصبر بمنزلة الماء المنصب عليهم لثلج صدورهم وإغنائهم عن الماء الذي منعوا عنه، وأما ثالثاً:

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج١، ٢٦٨/٢.

فلأن فيه تنكير صبراً المفصح عن التفخيم، وأما رابعاً: فلأن فيه حسن الترتيب حيث طلبوا أولاً: إفراغ الصبر لأنه ملاك الأمر، وثانياً: التثبيت لأنه متفرع عليه، وثالثاً: النصر لأنه الغاية القصوى.[1]

وبدأت المعركة واشتد وطيسها، وظهر من بين المؤمنين الصابرين قائد جديد تقدم إلى جالوت الطاغية فقتله، هذا القائد هو داود عليه السلام: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾(البقرة:٢٥١)، إن الله تعالى يقرر مسألة اعتقادية وهي "النصر لا يكون إلا بإذن الله" دون اعتبار للعدد والعدة، فالاعتبار عند أهل الإيمان بالصبر والتوكل والتضرع والثبات، كما أن القصة تبين قانون من قوانين الجندية، وهي أن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه، يعد شرطا من شروط النصر في المعارك.

وتبرز لنا عند الحديث عن قيمة الجهاد ذات الشأن في المجتمعات المؤمنة، آيات سورة النمل وهي تتحدث عن نبي الله سليمان عليه السلام:﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾(النمل:١٦-١٧)، فلآيات تعرض مشهدا عسكريا لجيش سليمان عليه السلام، وحرصه على قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى باعتباره من أهم الأمور التي تشد من دعائم الحضارات وتقوم بها هيبتها، ومعنى يوزعون: الوَزْعُ كَفُّ النفْسِ عن هَواها والوازعُ في الحربِ المُوَكَّلُ بالصُّفُوفِ، يقال وزَعْتُ الجَيْشَ إذا حَبَسْتَ أَوَّلَهم على آخرهم[2]، وهذا يدل على التزام سليمان عليه السلام بمعايير الجندية من حسن التنظيم والترتيب والتناسق والانضباط، بحيث لا يكون مكانا للفوضى، وهو مظهر من مظاهر حزمه وقوة إدارته، وطاعة الجند له، وهي قيمة من قيم الجيوش الإسلامية.

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٥٦٣/١.
[2] ابن منظور، لسان العرب، ١٥/ ٢٠٣.

يدل على ذلك الالتزام قوله تعالى في سورة ص: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (ص: ٣١-٣٣)، تعتبر الآية تأكيدا على حرص سليمان عليه السلام على الجهاد واعتبار الخيل من أهم أسباب الانتصار في المعارك، لذلك أحبها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ".[1]

قال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عَن ذِكْرِ رَبِي ﴾ وفي تفسير هذه اللفظة وجوه...أقواها أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى[2].

ومن حبه عليه السلام للجهاد أنه نذر أبناءه لهذه الغاية العظيمة، فقد أخرج البخاري في كتاب الجهاد، باب من طلب الولد للجهاد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مئة امرأة، كلهن يأتين بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون"[3].

وهذا الحديث يفسر فتنة سليمان التي قصها الله علينا في قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿ ٣٤ ﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿ ٣٥ ﴾ (ص)، فلما قال سليمان لأطوفن اليوم على مئة امرأة ..قال له صاحبه: قل إن شاء الله، وهذا من باب التذكير بهذه المسألة

[1] رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، ص٥٢٥، حديث رقم: ٢٨٥٠.
[2] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٨٧/٢٦.
[3] رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، ص٥٢٠، حديث رقم: ٢٨١٩.

الإيمانية الاعتقادية، لكن سليمان نسي أن يقول: إن شاء الله، ونسيانه لا يطعن في نبوته، فهذا مظهر من مظاهر بشرية الرسل عليهم السلام.

ولهذا امتحن الله سليمان عليه السلام، فلم تحمل منه إلا امرأة واحدة، ولقد قدر الله أن يكون الجنين ناقصا مشوها، فلما وضعته نزل منها ميتا، ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ﴾ لقد فرق التعبير القرآني بين الجسم والجسد، فالجسد هو الجسم بلا روح أو التمثال الجامد كما في قوله: ﴿ فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ﴾(طه:٨٨)،أما الجسم في القرآن فهو الجسم الحي الذي فيه روح وحياه: ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾(البقرة: ٢٤٧)، فلما نظر إليه سليمان علم أنه ابتلاء من الله تعالى، فأناب إلى الله واستسلم لقضائه وذكر الله تعالى واستغفره[1].

وكان سليمان عليه السلام يراقب جيشه ويتفقده ويقوم بحملات تفتيش، يتفقد من خلالها أحوال جنوده وجاهزيتهم، وهذا من مظاهر حزمه وحسن إدارته، وفي إحدى تلك الحملات اكتشف غياب الهدهد، قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿ ٢٠ ﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ ٢١ ﴾(النمل)، لقد غاب الهدهد عن الجيش بدون إذن، وهذه مخالفة كبيرة في النظام العسكري تستدعي العقوبة والمحاكمة الصارمة، لأن النظام العسكري يختلف عن النظام المدني نظرا لاختلاف طبيعة كل منهما، فالجندي يتعامل مع العدو، لهذا يجب أن يكون منضبطا غاية الانضباط، لهذا أظهر سليمان بحقه الحزم والشدة ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ﴾ .

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج ٩، ٢٣/٢٦٠-٢٦١،باختصار . وينظر: الخالدي، صلاح،القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١،١٩٩٨،٣/٤٩٧.

ورغم شدة سليمان عليه السلام، إلا أنه ترك المجال لعذر خارج عن إرادة الجندي، وهذا معلم من معالم القيادة الحكيمة في شخصية القائد الناجح، فإن من لوازم الحزم والضبط إعطاء الفرصة للجندي للدفاع عن نفسه، فلا يعاقب إلا بعد ثبوت إدانته، وهذه القيمة في تعامل القائد مع جنوده لها أثرها العميق في نفوسهم لشعورهم بالعدل المفضي إلى الإخلاص في العمل والجرأة في قول الحق، وهو ما كان من الهدهد حيث خاطب قائده بكل جرأة ووضوح وشجاعة ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾(النمل:٢٢)، وهذه الصفات في الجندي المؤمن هي ثمرة من ثمرات عدل القائد وحكمته وعدم ظلمه.

و ذكر الجندي سبب غيابه، وكان سببا يدل على قيم الجندي المؤمن فقال: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿ ٢٣ ﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ ٢٤ ﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ ٢٦ ﴾ (النمل) .

لقد قدم الهدهد تقريرا استخباراتيا متكاملا عن أرض جديدة وشعب جديد ودين مرفوض قائم على الشرك بالله ،إن هذا الشعب تحكمه امرأة، أوتيت من كل شيء من متاع الدنيا ، فهي مملكة غنية مزدهرة ومن مظاهر غناها العرش العظيم الخاص بالملكة، لكن هذا الشعب مشرك بالله ، يتخذون الشمس إلها من دون الله، ويعبدونها ويسجدون لها، ثم أنكر الجندي المؤمن ما كان من عبادتهم، وبين أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده، ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ،وفي الاستدلال بالخبء على وحدانية الله ما يناسب طائر الهدهد، قال الألوسي:" إن تخصيص

هذا الوصف بالذكر لما أن الهدهد أرسخ في معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثارها التي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض"[1].

وفي هذا التقرير بيان لصفات الجندي المؤمن واهتمامه بدينه باعتباره أسمى القيم التي يدافع عنها، فلم يكن مجرد جندي استخبارات جامع للمعلومات، بل كان صاحب فكر ورأي وقضية، وهذه هي قيم الجندية في المجتمعات الإيمانية.

سمع سليمان عليه السلام حجة الهدهد، وتعامل مع الخبر بحكمته المعروفة ،فلم يسارع إلى تصديق الخبر أو تكذيبه بل قال: ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾، وهذا يشير إلى صفات القائد المؤمن كالموضوعية والتأني والتأكد من صحة الخبر قبل فعل أمور قد لا تحمد عقباها.

وبعد أن تثبت سليمان عليه السلام من الخبر، باشر بالقيام بواجبه كخليفة في الأرض، من خلال دعوتهم إلى الإسلام، وعلى الفور بعث الهدهد في مهمة جديدة، وهي تبليغهم الدعوة ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ٢٨ (النمل) .

بدأ سليمان عليه السلام كتابه بالبسملة، وأمرهم بالدخول في الإسلام، وهذا يدل على أن الغاية من الجهاد عند المسلمين واحدة على اختلاف الزمان، وهي إعلاء كلمة الله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:١٩٣).

بعد أن وصل كتاب سليمان ،استشارت ملكة سبأ قومها، فقالوا لها: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ٣٣ ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ٤٤ ﴾ ،

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٠/١٨٧.

لقد بين لها قادتها أنهم جاهزون عسكريا، أما قرار الحرب فهو شأن سياسي، وكثيرا ما اعتبرت هذه الآية ذما لقوم ملكة سبأ، باعتبارهم تركوا أمر اتخاذ القرار للملكة، ناهيك عن كونها امرأة، إلا أن هناك من الباحثين من اعتبر الآية قيمة مهمة تقدمها لنا القصة القرآنية، وهي قيمة الفصل بين السلطات ،فالحضارات والحكومات الناجحة تستقل فيها السلطات بعضها عن بعض، فالتجارب لا زالت تثبت على امتداد التاريخ واختلاف الأمم، أن تدخل الجيش في سياسة الدول يفسد الجيش ويدمر البلد، فالنمط العسكري لا يصلح لسياسة الأمور، لأنه نمط منفذ وليس مفكر، فإذا انقلب الأمر، فصار الساسة عسكر والعسكر ساسة، فإن النتائج تكون مأساوية[1].

ويبدو أن ملكة سبأ لم ترد الحرب، صحيح أن جيشها قوي، لكن الخسارة تعني دخول هذا الملك لبلادها، عندها ستكون الكارثة، لأن الملوك إذا احتلوا أرضا سيفسدون ويدمرون ويستذلون شعبها، لهذا قررت المداهنة وأرسلت له هدية، لكن موقف القائد المسلم الغيور على دينه وقيمة الإيمانية، يرفض المداهنة ويرفض أن يبيع مبادئه بعرض من الدنيا ، لقد رد سليمان هديتهم، وبين انه مصمم على غزوهم إن هم رفضوا الدخول في الإسلام:﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(النمل:٣٧). وهذا الموقف من سليمان عليه السلام يدل دلالة قاطعة، ويؤكد تأكيدا جليا أن الغاية من الجهاد في الإسلام ليست المصالح المادية والثروات الطبيعية، إن الغاية من الجهاد في الإسلام هي نشر دين الله تعالى وشريعته، وأقبل سليمان على الله حامدا شاكرا، واعتبر إحضار العرش ابتلاء من الله فلم يفتن بالنعمة بل زاد تواضعا وشكرا، واستخدم سلطانه لنشر دين الله تعالى.

إن الحاكم الصالح يسعى إلى إعلاء كلمة الله في الأرض، ومحاربة الفساد بكل صوره وعلى وجه الخصوص، الفساد الاعتقادي، فلا يكتفي بالبقاء في بلده ما دام يستطيع الخروج لنشر دين الله، كما

[1] الكبيسي، أحمد، من أنباء القرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٧م،ص٥٣٧-٥٣٨

فعل ذو القرنين، حيث سار شرقا وغربا ينشر دين الله ويحارب الفساد [1] والكفر والشرك وينشر العدل والأمان، امتثالا لأمره تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾الأنفال٣٩، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾التوبة٣٣ .

ومن ثم يمكننا القول: بأن من أسس بقاء الحضارات ترسيخ ثقافة الجهاد لما لها من أثر كبير في استمرار الفعل الحضاري للأمة.

[1] زيدان، المستفاد من قصص القرآن ، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢٠٠٦/١ص٣٥٠

الفصل الثاني

القيم الحضارية في مجتمعات الكفر والطغيان

<u>المبحث الأول</u>

القيم المعنوية

المطلب الأول : الثقافات الدينية

إن الكفر بالله سبحانه وتعالى قديم قدم الإيمان، وهذا يرجع إلى طبيعة النفس البشرية في ازدواجيتها وقابليتها للضلال والهدى، فكما أن هناك فئة من الناس آمنت بالله وسارت على منهجه كما بيناه في الفصل الأول، هناك فئة أخرى من الناس – أفرادا وجماعات – نظرت إلى الحياة على أساس المشاهدات الحسية والخبرات التراكمية، ولم ترق عقولها إلى تقبل الهدى الذي جاء به الرسل والأنبياء باعتبار أن الإيمان هو الأصل على هذه الأرض، فرفضوا الحكم بما أنزل الله، ونظروا للدنيا على أنها واقع محسوس مشحون بمتع الحياة ونعمها، وللإنسان أن يتصرف فيها كيفما شاء، فليس هناك من رادع أو زاجر يكون مسؤولا أمامه، ومن ثم فهو الذي يتولى التشريع والتقنين، وإليه يرجع الأمر في تحديد الطريقة المناسبة في معاملة من حوله من موجودات هذا الكون.

وكان من ثمار هذه النظرة للحياة، أن يكون الإنسان مجبولا على حب الذات والأنانية والأثرة وتعبد الشهوات النفسية، نزّاعا إلى قضاء مآربه وانتهاز الفرص السانحة لقضائها، ولا هم له في هذه الحياة إلا الاستسلام لمطالبه الذاتية، واستكمال حاجاته البهيمية، ويصبح النظام الاجتماعي المتشكل من أمثال هذا الإنسان نظاما قائما على أساس حب الذات وتعبد الشهوات، فلا يبقى في المجتمع من القيود الخلقية ما يمنع المرء من الجري وراء الشهوات والأهواء ، وتكون القيم في مثل هذه المجتمعات مرآة لتلك الأفكار،

بحيث لا تحول تلك القيم دون التمتع والانغماس باللذات، والإسراف في مطامع الحياة، كذلك تتأثر الآداب والفنون في تلك المجتمعات بتلك العقلية وتصطبغ بصبغتها، بل إن تربية الأولاد وتنشئة الرجال في هذا المجتمع تكون أيضا ملائمة لطبيعة هذه الفكرة، فتصبح الناشئة على استعداد لاختيار هذا الطريق والاندماج بهذا المجتمع بملء إرادتهم وهو من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح:٢٧).

أما الحياة الاقتصادية فأول ما يميزها الترف لشريحة معينة في هذا المجتمع والشقاء والتعاسة لشرائح كثيرة ، لأن الفكرة الأساسية السائدة في كل فرد من أفراد هذا المجتمع، عن العالم وما فيه من الثروة والغنى تكون مبنية على تصور أنها غنيمة لا يمنعه مانع ولا يردعه رادع من الاستيلاء عليها والتصرف فيها حسب ما توحي إليه أهواؤه، فينتشر الغش والتطفيف والربا كثمرة طبيعية لهذه الأفكار والمعتقدات.

والقيم السياسية في هذه المجتمعات قائمة على قاعدة الحاكمية البشرية، فالقوانين توضع حسب الرغبات والمصالح التجريبية ، وكذلك الخطط السياسية، لا تقرر أو تلغى إلا وفق ما تقتضيه المنفعة، ولا يستأثر باتخاذ تلك القرارات إلا من بلغ الغاية في الدهاء والمكر والكذب ، وحاز السبق في الخديعة والقسوة وخبث الطوية [1].

إن هذه الأفكار والمعتقدات قديمة قدم البشرية، ولا تزال منتشرة في عالمنا الحاضر، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من تلك الحضارات التي كانت تسودها تلك الأفكار والعقائد، لنتدبر شقاءها، ونتعظ من مصيرها، ونحذر من العودة إلى اتباع طرقها، وفيما يلي بيان لأهم ثقافات تلك المجتمعات.

[1] للتوسع ينظر كتاب : المودودي، أبو الأعلى، الإسلام والجاهلية ،الدار السعودية. –وكتاب قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين ،دار الشرق، ١٩٨٣

أولا: الإشراك بالله تعالى

جاء في لسان العرب: شَركه في الأَمر بالتحريك يَشْرَكُه إذا دخل معه فيه، وأَشْرَك فلانٌ فلاناً في البيع إذا أَدخله مع نفسه فيه[١].

وتباينت أقوال العلماء في تعريف معنى الشرك، وإن كانت تلتقي على أن يُجعل لله ندا في الدعاء أو الخوف أو الحب أو أن ينصرف الإنسان لعبادة غير الله أو الخضوع لسواه، فالمشرك يعتقد أن هذا الكون موزع بين آلهة مختلفة، وأن سعادة الإنسان وشقاءه ونفعه وضرره متوقفة على مرضاة ذوات مختلفة، ومن ثم تحولت حياة الإنسان وفق هذا الفهم إلى مرتع خصب للأوهام والظنون، فيفقد كثيرا من وقته عبثا لأنه مصاب بالتوهم في أعماق نفسه، فتراه يعكف على صنم أو ينظر إلى نجم، وحينا يتطير بشيء فيصيبه الوهن اتقاء سوء المغبّة .

كما أن الشرك يفضي بالمرء إلى اتخاذ طقوس طويلة لا صلة لها بالحياة اليومية كتقديم القرابين والجلوس عند القبور ووضع التمائم، فيصبح الإنسان لقمة سائغة لكل أفاك يحترف الشعوذة والدجل فيلعب بعقول السذج والبلهاء، فيجعل الناس يوقنون بأنه بلغ ذروة الألوهية وأنهم عبيده، ومن ثم يصبح لهؤلاء المشعوذين حقوقا وامتيازات تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وتصبح مجدا أصيلا للأسر والعائلات، وهكذا يصبح الناس مطية يسهل استغلالها[٢].

سبق أن ذكرنا أن أول البشر آدم عليه السلام، وأنه كان نبيا وكان على التوحيد، وبعد موته عليه السلام، تعاقبت أجيال على التوحيد ، إلى أن بدأ الشرك يظهر ، فبعث الله نوحا عليه السلام، وهو أول الرسل بعد آدم كما ينص عليه حديث الشفاعة وفيه "يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض..."[٣]، وكان قوم

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ٨/ ٦٨.
[2] المودودي، أبو الأعلى، الإسلام والجاهلية ،الدار السعودية ،ص٢٧-٣٠ بتصرف
[3] رواه البخاري، كتاب حديث الأنبياء ، باب قوله تعالى:" إنا أرسلنا نوحا إلى قومه..)، ص٦٠٩، حديث رقم ٣٣٤٠.

نوح في الواقع قد أحدثوا الشرك وعبادة الأصنام، وكانوا يدعونهم بأسمائهم التي حكاها القرآن ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح:٢٣).

جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال:"هذه أسماء قوم صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت" [1].

وهكذا خرج الناس عن ملة التوحيد وخالفوا عهد الله، واتخذت هذه الأصنام للعبادة من دون الله، فبعث الله نبيه نوحا عليه السلام ينذرهم مغبة الاستمرار في ضلالهم وكفرهم، وهذا هو الدور الذي قام به كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبعد إصرارهم على الكفر أهلك الله قوم نوح بالطوفان واستخلف من بعدهم قوم عاد، وعاد كانت تعرف الله تعالى بدليل قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (المؤمنون:٣٨)، فكانوا يقرون بوجود الله عز وجل، ولكنهم اغتروا بقوتهم وسلطانهم، كما أنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام، وكانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تضر وتنفع ، حيث زعموا أن هودا عليه السلام مصاب من قبل آلهتهم بسبب دعوته للتوحيد: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود:٥٤)، لهذا قال لهم هود عليه السلام إنه بريء من هذا الشرك حيث اعتقدوا أن هذه الآلهة تضر وتنفع.

أما قبيلة ثمود، فكانت أيضا تدين بعبادة الأصنام ،يشركونها مع الله في العبادة، وكان من صور شركهم التطير، والتطير هو التشاؤم، هو يفضي إلى إلقاء المسؤولية على الغير والتهرب منها، ولهذا حرمه الإسلام، فقد جاء في حديث ابن مسعود مرفوعا: "الطيرة شرك، الطيرة شرك ثلاثا "[1].

[1] رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب(ودا ولا سواعا..)، ص٩٢٢، حديث رقم ٤٩٢٠

وتطير الكافرون بأصحاب الحق وتشاؤمهم منهم خلق جاهلي مطرد فيهم، على اختلاف الزمان، حيث يعتبرون أصحاب الحق هم السبب فيما أصابهم من المصائب والنكبات، فقد تطير قوم ثمود بصالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، و تطير آل فرعون بموسى عليه السلام ومن معه،﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:١٣١)، وتطير المشركون بالرسل الثلاثة في قصة أهل القرية ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(يس:١٨)، وهكذا نجد أن التطير والتشاؤم من الاعتقادات المنتشرة في مجتمعات غير المسلمين.

فالملأ من قوم ثمود كعادة الملأ في كل عصر ومصر، كذبوا نبيهم، واستغربوا كيف ينهاهم صالح عليه السلام عن آلهتهم التي ورثوا عبادتها عن آبائهم وأجدادهم ﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود:٦٢)، فكان هذا الشرك بالله، ورفض دعوة رسولهم، سبب هلاكهم.

وبعد تطاول الأزمان أرسل الله رسوله إبراهيم عليه السلام ، وقد جاءت قصته في الترتيب القصصي بعد قصة صالح عليه السلام ، وكان من صور شرك قومه ادعاء ملكهم الربوبية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (البقرة:٢٥٨).

---

[1] رواه أبو داود في سننه، كتاب الكهانة والتطير، باب في الطيرة، ص٥٥٥، حديث رقم ٣٩١٠، صححه الألباني.

أما أصل شركهم فكان بعبادة الكواكب كالشمس والقمر والنجوم، إضافة إلى الأصنام التي ينحتونها من الخشب والحجارة: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٢)، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ (مريم:٤٢).

أما قوم لوط عليه السلام، فلم تذكر قصته مع قومه أنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام، لهذا وقف بعض العلماء على ظاهر ما قصه الله من خبر نبيه واستنبط أن القوم ليس فيهم شرك، وهو ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية في بعض أقواله حيث قال: "وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة، ولم يذكّروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم، وهذا يدل على انهم لم يكونوا مشركين"[1].

ونظر بعض المفسرين إلى الأصول العامة لدعوة الرسل عليهم السلام، وأهمها دعوة التوحيد: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)، وبناء على هذا قالوا بأن لوط عليه السلام نهى قومه عن الشرك، قال ابن كثير:" فدعاهم إلى الله، عز وجل، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله"[2].

واستدل الإمام محمد رشيد رضا على أن لوطا عليه السلام قد دعا قومه إلى توحيد الله تعالى ، بدلالة سياق الآيات، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠)، فقال: "النسق الذي قبل هذا يقتضي أن يكون المعنى: وأرسلنا لوطا، ولكن

---

[1] ابن تيمية، تقي الدين ، النبوات، المكتبة العصرية بيروت، ط١/ص ٥٧ ولكنه قال في مجموع الفتاوى :"فكان في قوم لوط مع الشرك إتيان الفواحش " ٢٤٩/١٦

[2] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٤٥٩/٣.

حذف هنا متعلق الإرسال وركنه الأول وهو توحيد العبادة، للعلم له بما قبله، ومما ذكر في غير هذه السورة، أي أرسلناه في الوقت الذي أنكر على قومه فعل الفاحشة فيما بلغهم من دعوى الرسالة"[1].

وهو ما أميل إليه، خصوصا أن الله عقب على القصة بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٣٥)، والمعنى أن من بقي فيها كان من المشركين الكافرين، كما جرت سنة الله في إهلاكهم.

وتعرض لنا قصة يوسف عليه السلام ، شرك قومه من خلال دعوة يوسف لصاحبي السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴿ ٣٩ ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴿ ٤٠ ﴾ (يوسف)، فالذي يفهم من هذا النص أنهم كانوا مشركين بالله تعالى، وأنهم كانوا يحكمون حسب أهوائهم، فبين لهم عليه السلام أن من لوازم الإيمان بالله تحكيم شرعه لأن عدم الحكم بشرعه يعد من الكفر والفسق.

وهو ما استغربه قوم شعيب عليه السلام عندما قالوا له: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود:٨٧)، واستنكارهم هذا يؤكد نظرتهم للحياة التي ترى بأن لا علاقة بين الدين والتشريع، يقول سيد قطب: " يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، في أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل" .[2]

---

[1] رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار، بيروت، دار الكتب العلمية١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،٥٠٩/٨

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ج٣ص١٢٣٣

إن من لوازم الشرك عدم تزويده للعمران والمدنية والاقتصاد والسياسة بتصور مستقل أو مبدأ ثابت، فمسائل الحياة ومشاكلها العديدة تقع على عاتق الإنسان، ووظيفة الإنسان أن يشرع لها القوانين ويحدد الطرق التي عليه أن يسلكها، لهذا تعتبر جميع القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية انعكاسا مباشرا لعقيدة الشرك وثمرة لها.

أما قوم موسى عليه السلام، فقد كان لشركهم عدة أشكال، فهناك شرك بني إسرائيل الذي بينه القرآن، وهناك شرك الفراعنة، فقدماء المصريين كانوا وثنيين يعبدون آلهة متعددة، يدل على ذلك قولهم لفرعون: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ (الأعراف:١٢٧)، يقول د. محمد دراز عن العصر الفرعوني: "إن الأوراق المحفوظة في برلين ولندن تدل على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد الغيبي الأزلي الذي لا تصوره الرسوم ولا تحصره الحدود، غير أن تلك العقيدة كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد في بعض الكائنات الممتازة من إنسان أو حيوان أو جماد ،فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير في الملوك، وقوة الإخصاب في النبات..وأن هذه الكائنات الخاصة أهل للتقديس بفضل تلك الصلة السرية بالإله الأعلى"[1].

يفهم من هذا الكلام بأن الملوك كان لهم المرتبة الأولى وأن من حقهم التدبير والتشريع، وعلى هذا يفهم قول فرعون: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات:٢٤)، وقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص:٣٨)، صحيح أن فرعون أنكر الخالق، إلا أن ذلك يعد من قبيل الشرك، يقول ابن تيمية: "فإن قيل: كيف يكون قوم فرعون مشركين وقد أخبر الله عن فرعون أنه جحد الخالق ... والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله؟ قيل: لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى... وكان فرعون في الباطن عارفا بوجود الصانع ، وإنما استكبر ..والمستكبر يصير مشركا... بعبادة آلهة أخرى

[1] دراز، محمد عبدالله، الدين، الكويت، دار القلم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٠

مع استكباره عن عبادة الله، وتسمية هذا شركا نظير من امتنع – مع استكباره – عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، فهؤلاء مستكبرون مشركون.. والمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر – كفرعون– أعظم كفرا منهم ..وإن كان عالما بوجود الله وعظمته"[1].

وعلى ضوء هذا يفهم قول موسى لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾(الإسراء:١٠٢)،جاء في التحرير والتنوير:" والمعنى: أن فرعون لم يبق في نفسه شك في أن تلك الآيات لا تكون إلا بتسخير الله إذ لا يقدر عليها غيرُ الله، وأنه إنما قال:﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ عناداً ومكابرة وكبرياء، وأكد كلام موسى بلام القسم وحرف التحقيق تحقيقاً لحصول علم فرعون بذلك"[2].

أما الشرك في بني إسرائيل فهو متجذر في قلوبهم حتى بعد بعثة موسى عليه السلام فيهم، قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(الأعراف:١٣٨)، فهذه الآية تخبرنا أن بني إسرائيل طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة مثل آلهة القوم الذين مروا بهم، وما إن تركهم موسى لميعاد ربه حتى عبدوا العجل:﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(الأعراف:١٤٨)، ويعلل الإمام الطبري ذلك بقوله: "كان لهم – في مصر– تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أول شأن العجل"[3].

---

[1] ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، بيروت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ٦٢٩/٧-٦٣٣، باختصار وتصرف

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج١٥،٢٢٦/٦.

[3] انظر: الطبري، جامع البيان، ٣٠/٩

ومن صور شركهم اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، لقوله تعالى : ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١)، فعن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن قوله ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ . . ﴾ فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: "حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم"[1].

كما أنهم شبهوا الله تعالى بصفات المخلوقين، حيث شبهوا الله تعالى بصفات النقص من وجوه عدة، منها زعمهم بأن لله ولد {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ ﴾ (التوبة:٣٠)، فزعمهم بأن لله ولد، تنقيص في حق ربوبيته عز وجل، سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوا كبيرا.

كما جاء في كتبهم المحرفة وصف الله تعالى بصفات النقص، من ذلك قولهم:"إن الله لمّا رأى فساد قوم نوح ، وأن شركهم وكفرهم قد عظم ، ندم على خلق البشر"[2]، وزعموا أن الله تعب من خلق السموات والأرض، فاستراح في اليوم السابع حيث قالوا :"وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل"[3].

وقد بين الله كفرهم هذا في كثير من آيات القرآن الكريم :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق:٣٨)، وقوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: ٦٤)، وقوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران: ١٨١).

[1] رواه الترمذي، أبواب تفسير القران، باب ومن سورة الأنفال، حديث رقم ٣٠٩٥، قال الألباني: حديث حسن
[2] الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٤/٣٢
[3] الكتاب المقدس – سفر التكوين ٢/٢

والمقصود أن وصف الله عز وجل بهذه النقائص يعتبر شركا، وقد بينا أن توحيد الأسماء والصفات يعتبر من أهم أنواع التوحيد، ومعناه أن الله منزه عن صفات النقص مطلقا، ومتصف بصفات الكمال المطلق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١).

أما شرك النصارى، فله عدة أشكال ،منها قولهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠)، لهذا أجمع العلماء على كفرهم بنص القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة:٧٢)، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٧٣)، والمراد بالتثليث كما ينص قاموس الكتاب المقدس:" إله واحد، الأب والابن والروح القدس إله واحد، جوهر واحد متساوين في القدرة والمجد"[1].

والمعنى كما يقول ابن القيم: أنهم" جعلوا الرب مركبا من هذه الأشياء، وتنقصوا الخالق سبحانه وتعالى وسبوه ورموه بالعظائم، حيث زعموا – سبحانه وتعالى عن قولهم علوا كبيرا – أنه نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل فرج امرأة وأقام هناك تسعة أشهر... ثم خرج من حيث دخل، ولف في القمط، وأودع السرير يبكي ويجوع ويعطش ويبول ويتغوط.. ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه وربطوا يديه وبصقوا في وجهه وصلبوه جهرا.. هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴿٩١﴾ (مريم)... وبالجملة: فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة، كما قال عمر

[1] هاكس، قاموس الكتاب المقدس ،بيروت، ١٩٢٨م، ص ٢٣٣

رضي الله عنه: إنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبا أغمض عينيه عنه وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح سب" [1].

ومن صور شركهم إعطاؤهم سلطة التشريع للرهبان والقساوسة، يقول ابن القيم: اجتمع النصارى في بيت المقدس وتشاوروا فيما يحتالون به على الأمم ليحببوهم إلى دين المسيح ويدخلوهم فيه، فاتفق رأيهم على مداخلة الأمم والترخيص لهم والاختلاط بهم، وأكل ذبائحهم والانحطاط في أهوائهم، والتخلق بأخلاقهم، وإنشاء شريعة تكون بين الإنجيل وما عليه الأمم ، وكانوا كلما أرادوا إحداث شيء اجتمعوا مجمعا واتفقوا فيه على ما يريدون إحداثه... فالنصارى تلقوا دينهم عن أصحاب المجامع[2].

ثانيا : أسباب الكفر والشرك بالله تعالى :

بما أن الإيمان والتوحيد موافق للفطرة منسجم معا، وبما أن الأنبياء عليهم السلام جاؤوا بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة والمعجزات الباهرة، وبما أن تلك الحضارات لم تنكر وجود الله تعالى، قد يعرض سؤال، ما هي الأسباب التي جعلت هؤلاء الكفار يصرون على كفرهم بالله تعالى؟

لقد ذكر الله تعالى الأسباب الكامنة وراء هذا الشرك والكفر من خلال آيات القصة القرآنية وفيما يلي بيان لأهم هذه الأسباب:

١- **<u>الاستكبار</u>**: تبدأ الإجابة على هذا السؤال منذ النشأة الأولى للإنسان، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٣٤)، تخبرنا هذه الآية بالسبب الذي

---

[1] ابن قيم الجوزية ، إغاثة اللهفان ، تحقيق: محمد الفقي، بيروت، دار المعرفة،٦٩٥

[2] ابن قيم الجوزية ،هداية الحيارى، تحقيق: أحمد الرفاعي، دار قتيبة، بيروت،ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م،١٦٨

جعل إبليس يعصي أوامر الله تعالى ويخالف مشيئته، إنه الاستكبار، وكان نتيجة استكبار إبليس أن طرده الله من الجنة والمنزلة التي كان فيها في الملكوت الأعلى، فقال له: ﴿ اخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾الأعراف١٣ ،ذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار، فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله وضعه.[1]

إن صفات التكبر والاستعلاء والأنانية والافتخار كلها من المهلكات التي أوصلت إبليس إلى ما وصل إليه ،ومن خلال هذه الصفة يصبغ حزبه وأتباعه من ذرية آدم ، فتراهم يحذون حذوه ويسيرون خلفه في هذه الصفات، ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا يقرر العداوة المتأصلة بين الإنسان وبين الشيطان من جهة، وبين المؤمنين و الكافرين من حزب الشيطان من جهة أخرى، والأرض هي مسرح الصراع بين الحق الذي يمثله الرسل والمؤمنون وبين الباطل الذي يمثله الشيطان والكافرون من جهة أخرى.

٢ – اتباع الهوى والشهوات: يقول تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾(النجم:٢٣)، تقدم لنا هذه الآية حقيقة طبيعة الكافر، وهي أنه إنسان متبع لهواه، ولا يمكن اجتماع الهوى والهدى، واتباع الهوى أساس كل كفر ومعصية، وهو سبب لهلاك صاحبه وضياعه في الدنيا والآخرة ،يقول الألوسي: والنفس من حيث هي إنما تهوى غير الأفضل لأنها مجبولة على حب الملاذ ، وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل[2]، ومن ثم كان اتباع الهوى من أهم أسباب الكفر:﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾(الفرقان:٤٣)، والمعنى أنه سبحانه بين أن بلوغ الكفار في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة،

[1] زيدان ، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن ، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١/٢٠٠٦ ص١١

[2] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٥٨/١٤.

فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع، لأن قوله: ﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ يفيد الحصر، أي لم يتخذ لنفسه إلهاً إلا هواه[1].

٣- إنكار الآخرة: يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٣٨)، ومعناه أنهم كانوا يدّعون بأن الشيء إذا فنى وصار عدماً، فإنه لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر غيره، وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم والمعرفة بأن عودة الشيء بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل فالإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه[2]، ويترتب على هذا التصور أنهم أحرار في تصرفاتهم وأفعالهم، وبما أنهم أحرار فليس هناك معيار أو قيمة ثابتة، والإنسان يسير في هذه الحياة حسب مصلحته وحاجاته ورغباته ،والتمتع بالحياة والانغماس في الشهوات هو الغاية القصوى من هذا الوجود، وهو مضمون الحريات التي ينادي بها الغرب في هذا العصر، لهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن:٧)، بين تعالى أن القول بالبعث ممكن عقلا لأسباب أولها: أنه سبحانه موجد للأشياء فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادراً عليه في الإعادة، ثانيا: التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم من خلال بيان الأعمال التي قام بها كل فريق، فثبت أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق[3].

٤- الجهل بالله وأسمائه وصفاته: من أهم أسباب الكفر والشرك ، الجهل بالله وأسمائه وصفاته يقول سبحانه في بيان هذا السبب: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٢٤/٨٠.
[2] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٢٠/٢٥-٢٦.
[3] انظر نفس المرجع السابق، ٢٠/٢٦.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر: ٦٧)، لهذا قال فرعون لموسى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (غافر: ٢٦)، إن عبارة فرعون الوقحة هي السبب الذي يدعو الطغاة للتجبر والطغيان، إن فرعون لا يحسب لله حسابا، ولا تخيفه دعوة موسى، إن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كانت تبجحاً واستهتاراً ،فالجهل بصفات الله تعالى من أهم أسباب الانحراف في مجتمعات الكفر، سواء أكان ذلك على مستوى القيادات، أم على مستوى تصرفات الأفراد لأنه يفضي إلى التطاول على قدْرِ الله.

ويدعونا الله إلى تأمل جهلهم بصفاته سبحانه فيقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (المجادلة:٨)، وسياق سورة المجادلة من مطلعها يظهر أن الله قد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما كانوا يقولونه في أنفسهم، وبمجالسهم ومؤامراتهم، فقد سبق في السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، فكشف مؤامراتهم الخفية، وأفشى نجواهم التي عادوا إليها بعدما نهوا عنها، وكذلك فضح ما كانوا يقولونه في أنفسهم: ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾، هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما في السماوات وما في الأرض، وحضوره لكل نجوى، وشهوده لكل اجتماع، وهو يوقع في نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح، كما يوحي للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق[1].

٥- الغلو والعناد: فقد ذم الله تعالى النصارى لغلوهم في عيسى عليه السلام وتأليههم له، قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٦، ٣٥٠٩/٢٨.

وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴿ ١٧١ ﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً ﴿ ١٧٢ ﴾ (النساء).

تبين لنا هذه الآيات السبب المباشر لكفر النصارى، وهو المغالاة في عيسى عليه السلام والخروج عن الصواب في نظرتهم إلى خلقه ومعجزاته، ثم بينت لنا أنه عبد لله ناصيته بيد مولاه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة:١٧).

لهذا دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدم إطرائه والغلو في النظر إليه، فعن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله "[1].

٦- التقليد الأعمى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠)، يقول الإمام الرازي: إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾، تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان ، وبين متابع التقليد ، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل[2]، ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ

[1] رواه البخاري، كتاب احاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم...)، ص٦٣٤، حديث رقم:٣٤٤٥.
[2] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ٧/٥.

أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٨)، ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٨).

<u>٧- حب الدنيا:</u> يقول تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل:١٠٧)، أي أنهم آثروها وقدموها و فعلوا أفعال المستحبين للدنيا على الأخرة، وإلا فهم غير مصدقين بالآخرة [1].

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٤٧٣/٧.

ثالثا : أساليب الطغاة في محاربة أهل الحق :

بعد بيان الأسباب التي جعلت الكفار يصرون على كفرهم، كان لا بد لهم من محاربة أهل الحق من الأنبياء والدعاة والمصلحين ، ذلك أن الدعوة التي ينادي بها هؤلاء كفيلة بنسف كل ما يصبون إليه من آمال، وهدم كل ما حققوه من أمجاد، لذلك اتبعوا عدة أساليب لمحاربة الدعوة ومن يقوم عليها، وكان أبرز من وقف أمام الأنبياء والمؤمنين وحاربهم دون هوادة، أصحاب المكانة، وعلية القوم أو ما يعرف بالملأ، ولتسميتهم بالملأ سبب له دلالته ،قال الإمام الراغب:" الملأ جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا، يقال فلان ملء العيون، أي معظم من رآه كأنه ملأ عينه عند رويته" [1].

وسمي هؤلاء ملأ لأنهم يملؤون عيون جماهيرهم وأتباعهم مهابة وخوفا، ويملؤون نفوس جنودهم رهبة وإجلالا، أي كانوا ملء عيون ونفوس وقلوب وعقول اتباعهم وجنودهم، ولهذا كانوا يخافون منهم ويرهبونهم، ومن ثم كانوا يتبعونهم وينفذون ما يطلبونه منهم، ويجندون لهم أعوانا في رفض الحق ومواجهة الأنبياء والمؤمنين، فهم يمثلون القيادة الشيطانية، وهم الذين يثيرون الشبهات ضد دعاة الإيمان مستخدمين وسائل الإعلام المتاحة ، وهم الذين يمكرون ويكيدون للإسلام وأهله في كل زمان ومكان، ويكفينا قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ﴾(نوح:٢٢)، في تصوير كيدهم واستخدامه كل الوسائل المتاحة ضد المسلمين، ومن أبرز الوسائل والشبهات التي استخدموها:

١ – دعوى بشرية الرسل: وهي من أهم شبهات الكافرين التي سجلتها القصة القرآنية في محاربة الدعوة والدعاة، يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء:٩٤)، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا

[1] المفردات ، ص٥٩٩.

تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾(المؤمنون:٣٣)، وهي شبهة واجه بها كل قوم رسولهم، واعتبروها مانعا من تصديقه والإيمان به، وطالبوا أنبياءهم بإنزال الملائكة ليصدقوهم ، وكل ذلك لأنهم لم يعرفوا طبيعة المنهج الرباني، وأن حياة الرسل ما هي إلا نموذج واقعي تطبيقي لذلك المنهج، فلا بد أن يكون الرسل بشرا ليكون المنهج صالحا للتطبيق[1].

ومما زاد في عنادهم أن أتباع الأنبياء من الفقراء والمساكين، وهم أقل الناس مكانة في المجتمع، وأرذلهم رأيا: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾(هود:٢٧)،ومن يدعونهم بالأرذلين إنما هم تلك الفئة التي تشكل سواد المجتمعات، ولا ينبغي أن يتبادر إلى أذهاننا أنهم حثالة الناس وضعفاء العقول والبسطاء، وإنما جاءت كلمة الأرذلين من واقع تحكم المتنفذين في كل أمة، وهؤلاء يعتبرون الأخرين دونهم، ولا يرون لهم حقا ولا لرأيهم مكانا، بل يسفهونهم ويطمسونهم ويحقرونهم[2].

٢- أسلوب التهديد: وهو المنطق الذي يجيده الكفار والذي يتقنه الملأ في كل زمان، وهو دليل الهزيمة والخسارة أمام منطق الحق الواضح: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾(الشعراء:١١٦)، وتكرر هذا الأسلوب مع الأنبياء والدعاة، ففي قصة أصحاب القرية، قال الكفار للرسل الثلاثة: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقالوا لشعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾(هود:٩١)، وقالوها لإبراهيم: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾(مريم:٤٦)، وقال أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٢٩٦١/٢٣.
[2] الكبيسي، أحمد، من أنباء القرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٧م،ص ١٢١

يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ (الكهف: ٢٠)، إنه نفس السلاح الذي يلجأ إليه الظالمون ضد المصلحين والدعاة، والتاريخ اليوم يسطر لنا صورا من الرجم والتعذيب والقتل والسجون الخاصة ضد المسلمين، في الوقت الذي يزعمون فيه أنهم بلغوا قمة الحضارة والمدنية والرقي.

٣- أسلوب الاتهام وتشويه الحقائق: من أساليب محاربة الحق، اتهام أهله بكل التهم ، كما فعل فرعون وملؤه: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٧٨)، اتهموا موسى وهارون في إخلاصهما لدعوتهما، وأنهما يريدان من ورائها المكاسب المادية، وكأن التاريخ يعيد نفسه، فما أشبه البارحة باليوم، فهذا الأسلوب هو نفس أسلوب اتهام الطغاة للمصلحين والعلماء ، يتهمونهم بأنهم يستخدمون الدين والدعوة لتحقيق مكاسبهم ومصالحهم.

كذلك اتهم فرعون السحرة بعد إيمانهم بالخيانة العظمى في قوله :﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿ ١٢٣ ﴾ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴿ ١٢٤ ﴾ (الأعراف)، لقد اتهمهم فرعون بالخيانة الوطنية، وبالتآمر مع موسى ضد الوطن، وضد النظام، وضد الدولة، وضد الأمة، فزعم أنهم مفسدون مخربون يريدون إفساد البلاد واخرج أهلها منها، وبما أن موسى من بني إسرائيل وليس من الأقباط، فإن السحرة عملاء للأجنبي، متصلون بالعدو الخارجي، خائنون لوطنهم وأمتهم، ولا بد أن يحكم عليهم بالخيانة العظمى لهذا حكم عليهم بقوله: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف:١٢٤)، وهذه التهمة الفظيعة التي وجهها فرعون للسحرة المؤمنين، هي نفس التهمة التي يوجهها كل طاغية مستبد ظالم للدعاة والمصلحين في بلاده، والتعبير القرآني بحرف الجر "في" بدل حرف الجر "على" في الآية: ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ مقصود، لأنه يريد المبالغة في التصليب، ويصب عليهم أثناء التصليب كل حقده، فكأنه من شدة حقده

شق جذوع النخل شقا، وأدخلهم فيها إدخالا، وهم مقطعو الأيدي والأرجل ، وهذا من شدة كرهه لهم، وحقده عليهم، وهذه الإيحاءات والظلال يلقيها حرف "في"، وليس حرف "على" ولهذا قال "ولأصلبنكم في جذوع النخل" ونحن نلاحظ بوضوح في آيات القصص القرآني المتكلمة عن قصة الطاغية فرعون، أنه استخدم شتى الوسائل في التضييق الجسدي على الدعاة ، فهدد موسى بالسجن، وابتدع طرق ووسائل لتعذيب السحرة المؤمنين. [1].

٤- استخدام البحث العلمي لتزوير الحقائق: من أساليب أهل الباطل استخدام البحث العلمي استخداما شيطانيا بهدف صبغ كفرهم بالمنهج العلمي، وقد أشارت سورة القصص إلى هذا الأسلوب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(القصص:٣٨)، أراد فرعون من بناء الصرح مواجهة المنطق القوي لموسى عليه السلام بالأسلوب العلمي التجريبي، وإشغال الناس عن القضية الأساسية وذلك بأن يتابعوا بناء الصرح، وأنه سيعود من جولته العلمية البحثية المزعومة بأن موسى كاذب، وأنه ذهب إلى السماء ليبحث عن إله موسى، ولكنه لم يجده ولو وجده لآمن به.

وهذه النتيجة عند فرعون قرار مسبقة، لكنه أراد أن يلبسها ثوب العلم والبحث، أي أنه يوظف العلم والبحث توظيفا ماكرا لمحاربة موسى ودعوته.

٥- أسلوب المداهنة والملاينة : ومثاله ما قام به قوم صالح عليه السلام عندما قالوا: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾(هود:٦٢)، حيث زعموا أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه معقد آمالهم ومحط رجائهم، ولكنهم فوجئوا بدعوته للتوحيد وترك ما كان يعبد

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط١/٢٠٠٨ص٢٩٨

آبائهم من أوثان وأصنام، وهذه دعوة نفسية خبيثة أرادوا منها أن يتوقف عن دعوته، ولكن صالح عليه السلام أوضح لهم حقيقة الأمر بالأساليب المنطقية والحجج العقلية، بل بالمعجزة الخارقة وهي الناقة التي أخرجها لهم من الصخر: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ (هود)، إن قوم ثمود يحترمون صالحا عليه السلام ما دام بعيدا عن أن يمس واقعهم السيء ولا ينال من عقيدتهم، ولقد رأينا هذا الأمر عند قريش وقد كانوا يصفون الرسول صلى الله عليه وسلم بكل أوصاف الخير، وهكذا أهل الباطل دائما يزينون لكثير من الناس أوصافهم وأعمالهم حتى يثنوهم عن الحق ويردوهم عن مبادئهم، [1] يقول تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾القلم٩.

٦– أسلوب القتل والاغتيال: حيث يتآمر المفسدون على اغتيال من يقف أمام مصالحهم ، فالغاية تبرر الوسيلة، يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ (النمل)، قام هؤلاء المفسدون بالتآمر على قتل صالح عليه السلام، وكانوا متنفذين لهم سطوة ومنزلة، ولهذا عقبوا على مؤامرتهم بقولهم: "وإنا لصادقون" أي كلمتهم مسموعة وقومهم لا يجرؤون على مناقشتهم أو مخالفتهم أو تكذيبهم، وأسلوب القتل والمؤامرات والاغتيالات من الأساليب القديمة الحديثة لتبرير الغايات وإزالة العقبات عن أهدافهم وشهواتهم.

[1] عباس، فضل حسن، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، دار الفرقان ط١/١٩٨٧ ص١١٩

وهو ما قام به فرعون مع السحرة المؤمنين، ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء:٤٩)، إن منطق فرعون وكل طاغية منهزم أمام الحق، هو اللجوء إلى العنف والإرهاب والاضطهاد والتعذيب والاتهامات بالخيانة وتشويه الحقائق.

رابعا : قيمة العلم :

إن من سمات المجتمعات الكافرة، والتي تفتقد إلى الإيمان الحقيقي بالله تعالى، انتشار العلوم الدنيوية ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم:٧)، قال الألوسي في تفسير هذه الآية:" وهو ما يحسون به من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلمون منافعها ومضارها ومتى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يجمعون وكيف يبنون أي ونحو ذلك مما لا يكون لهم منه أثر في الآخرة" [1].

وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود؛ وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود، والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس. ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية."[2]

وإذا فقد الإيمان بالله، فقد معه توجيه هذه العلوم لما فيه مصلحة العباد، بل إن منها ما يعد من العلوم الضارة والتي جلبت الويل والدمار للبشرية، وأكبر مثال عليها القنابل النووية التي حصدت في دقائق مئات الآلاف من الأرواح البريئة، وقد ذكرت لنا القصة القرآنية مثالا على العلوم الضارة في حضارة بابل الغابرة، قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ

---

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٢٣/١١.
[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٢١/ ٢٧٥٩.

النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وظاهر القصة أن السحر كان منتشرا في تلك الحضارة، ولعله انتشر على أيدي اليهود الذين سباهم "نبوخذ نصر" بعد انهيار مملكة اليهود، ويبدوا أن اليهود استرهبوا الناس وأوهموهم أن الساحر بيده الضرر والنفع، فأخضعوا الناس في تلك البلاد واستغفلوهم.

فأنزل الله تعالى ملكين على صورة بشر ليزيلوا ما علق في نفوس الناس من الهلع والخوف، فكانا يعلمان الناس السحر من خلال كشف حقيقته ومبادئه والأسس التي يقوم عليها، ثم بينوا لهم أن هذا السحر ضرب من ضروب الكفر، لما له من أضرار، وأن تعليمهم له من باب الحذر منه، وأن الله مختبرهم بهذا العلم فلا يجوز مزاولته.

لكن أهل بابل أخفقوا في الامتحان واستخدموا هذا العلم بالشر والفساد، ومن ذلك أنهم كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه، وإحلال الخصام والنزاع محل المحبة والاتفاق، وهي من أحب الأعمال إلى الشيطان، من هنا كان تعاطي هذا العلم الضار نوع من أنواع الكفر بالله، وعدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر المهلكة[1].

ومما لا شك فيه أن هناك علوم نافعة في تلك المجتمعات، قديما وحديثا، ولكن ما يميز المجتمعات الإيمانية هو الغاية من تلك العلوم، فالمؤمن يعتقد أن كل ما يقوم به من أعمال وأبحاث وعلوم نافعة، يدخل في إطار العبادة بمفهومها العام، ولذلك كان للعلم شروط منها: إخلاص النية لله تعالى، وأن

[1] الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق،دار القلم، ط١،١٩٨٩، ٥٢/٣

يوافق العمل والبحث العلمي الأصول والقواعد العامة للشريعة الربانية، وعلى هذه القاعدة الإيمانية قامت العلوم الإسلامية بشقيها الديني والدنيوي.

أما المجتمعات الكافرة بالله والمنكرة لليوم الآخر، فإن الغاية من العلم فيها الدنيا فقط، وتحقيق المكاسب المادية، خصوصا إذا علمنا أن الغاية من براءات الاختراع في الدول المتقدمة اليوم، احتكار هذا الاختراع لصالح الكسب المادي، بل إن التنافس المعرفي والبحث العلمي ما هو إلا نتيجة لهذه السياسات التي تستهدف بالمقام الأول الربح المادي، ولهذا انحرفت الأبحاث العلمية عن الغاية التي قامت من أجلها.

المطلب الثاني : القيم الاجتماعية :

بعد بيان الجانب الفكري والديني للأمم الكافر، كان لا بد لهذه الثقافة أن تنعكس آثارها على واقعهم الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وأول ما سنتحدث عنه ، بيان القيم الاجتماعية لتلك الحضارات.

<u>أولا :الانحطاط الأخلاقي</u>

ترتبط الحالة الأخلاقية أشد الارتباط بالوضع الحضاري، فهي تعينه على التماسك والنمو في بعده الإيجابي، وتقوده إلى التفكك والانهيار في بعده السلبي ، وقد تبدو المسألة في ظاهرها أمرا فرديا، ولكنها في الحقيقة تمس العلاقات العامة والبنية الاجتماعية في الصميم، ووفق مستويات شتى تؤدي في مجملها إلى إلحاق الدمار بالنشاط الحضاري، فبدءا بالممارسات المنحرفة التي تمس السلوك كالجنس والفجور وتفشي الخمر والميسر واللواط، وانتهاء بمنظومة القيم التي تمس العمل والسلوك كالغش والكذب والعقوق وشهادة الزور ..الخ؛ تعتبر هذه الممارسات اللاأخلاقية عاملا مهما في تراجع الأمم والحضارات و تضييق الخناق عليها، لتحل القيم والممارسات السلبية محل الممارسات الإيجابية، وهذا بدوره يقود الحركة الحضارية إلى التباطؤ ومن ثم الانهيار[١]، من أجل ذلك ساق القرآن الكريم قصص تلك المجتمعات التي تفشت فيها السلوكيات السلبية وكانت سببا في انتهاء وجودها، لنحذر من مغبة مصيرها و نهايتها، ومن أبرز تلك الممارسات السلبية ما يلي:

<u>١- العقوق وقطع الأرحام:</u> لقد كان إخوة يوسف عليه السلام نموذجا بشريا لمن فقد معاني الإيمان والورع والخوف من الله، وذلك من خلال حقدهم وغيرتهم من أخيهم الصغير، وعقوقهم لأبيهم والتعامل معه بجلافة وسوء اتهام، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ

---

[1] خليل، عماد الدين، الوسيط في الحضارة الإسلامية، الأردن، دار حامد،ط١، ٢٠٠٤م ص٣١٦

إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿ ٨ ﴾ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴿ ٩ ﴾ (يوسف).

لقد أساؤوا الظن في تفسير اهتمام أبيهم بولده الصغير، واتهموا أباهم بسوء الفعل والضلال: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾، إن إخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطيع الأواصر، ولا بد من التنبيه على أن يعقوب نبي آتاه الله من العلم ما يخص به أنبياءه، لقد كان يدرك أن حبه ليوسف ليس عاطفة أبوة فحسب، ولكن هذه العاطفة تخفي وراءها النبوة المتسلسلة في هذا البيت الكريم،[1] ولمّا كان إخوة يوسف يعلمون أن أباهم نبي، كان من المفرض عليهم التماس العذر له بمقتضى نبوته، لكن عقوقهم امتد لدرجة حاولوا معها منعه حتى من ذكر يوسف: ﴿ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ (يوسف)، وهذا من أبشع صور العقوق، فالأب حزين مكلوم على فقدان أولاده، وأبناؤه يلومونه على ذكره ليوسف، ويخاطبونه بكل غلظة وجلافة.

واستمروا على عقوقهم وجلافتهم في تعاملهم مع أبيهم حتى بعدما كشف يوسف عن شخصيته لهم، وأعطاهم القميص الذي يعد رمزا لخيانتهم ليكون سببا في عافية أبيهم: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿ ٩٤ ﴾ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴿ ٩٥ ﴾ (يوسف)، قال الإمام الراغب: "التفنيد، نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي"[2]، أي لولا تنسبوني إلى الخرف وضعف الرأي، لقلت إني أجد ريح يوسف، فقد كان يعقوب يعلم تصرفات أبنائه وعقوقهم له، وسرعان ما ردوا عليه بكلام ينم عن

---

[1] عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس عمان ط٢/٢٠٠٧ ص٣٨٥-٣٨٦

[2] المفردات، ص٤٨٩.

سوء أدب " تالله إنك لفي ضلالك القديم " لقد كلموه بغلظة وشدة وقسوة وهو النبي الكريم ابن الكريم عليه الصلاة والسلام.

٢- الحقد والحسد: الحسد داء قديم في البشر، بل هو بعض ما يحمله الإنسان في أصل خلقته، وإنما يقمع أو يستأصل من النفس بالإيمان العميق وبالمعرفة الإسلامية.[1]

تظهر لنا قصة ابني آدم بعض صفات الإنسان عندما يستولي عليه الشيطان، فيتمكن الحقد والحسد من نفسه حين يفقد الإيمان: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴿ ٢٧ ﴾ . . . ﴿ ٢٩ ﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿ ٣٠ ﴾ (المائدة)، لقد تقبل الله من أحد الابنين ولم يتقبل من الآخر، فامتلأت نفسه غيظا وحسدا، وقال لأخيه لأقتلنك، فرد عليه الأخ الطيب بأن الله يتقبل من المتقين، ومن المفترض أن يكون هذا الجواب رادعا لكي يحاول معاودة الكرة ويخلص النية، لكن العجيب من هذا الأخ أنه لم يتفكر في علة رفض قربانه، واستجاب لداعي الشر، فزينت له نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه، فقتله! [2] .

إن الله تعالى يخبرنا هذه القصة الواقعية لينتقل بنا من خسارة هذا الظالم لأخيه إلى دلالة أعم وأشمل وهي ما عقبت عليه هذه القصة: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً . . ﴾ (المائدة:٣٢)، إن هذه القصة تدعونا إلى الوحدة والأخوة والانصياع لأوامر الله تعالى، والالتفاف حول هدي مبادئ رسالة السماء، وتنهانا عن اتباع وساوس الشيطان، لأن نتيجة ذلك ستكون خسارة الأمة لوحدتها واختلاف كلمتها، واقتتال أفرادها،

[1] زيدان ، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١/٢٠٠٦ ص٧٧
[2] عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس عمان، ط٢/٢٠٠٧ ص٧١٨-٧١٩

والسماح لأعداء الصفوف من خلال غرس الفتنة والفوضى بين أبناء العقيدة الواحدة، وواقع الحال يغني عن كثرة المقال[1].

٣- انتشار الفواحش: وأبرز مثال على ذلك، ما كان من قوم لوط عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿ ٨١ ﴾ (الأعراف)، إن أول ما يقفنا ونحن نقرأ قصة لوط عليه السلام، هذا الصلف والترهل بل هذا التدني والانحدار، والتعري من كل رداء من أردية الإنسانية، ذلك بحق ما كان عليه أولئك القوم ممعنين في الغي مستغرقين في الفحش لا يبالون بما يمكن أن يقال.[2]

لقد انتشرت هذه الفاحشة في قوم لوط حتى عمت المجتمعات والنوادي، وأصبحت ظاهرة عامة، ونتج عن هذه الفاحشة الشاذة فواحش أخرى مرتبطة بها ،وهو ما حذر منه لوط عليه السلام عندما قال لهم : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (العنكبوت:٢٩)، إن هذه الجرائم التي ذكرتها الآية مرتبطة ارتباطا مباشرا بالفاحشة الشاذة، فقد كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ،وكانوا يقطعون السبيل طلبا لشذوذهم، ومن يمر بهم من الرجال يأخذوه ليفجروا به ، ويرضوا بذلك نفسياتهم المنحرفة، وكانوا يأتون في ناديهم المنكر، وهو كل التصرفات المرتبطة بذلك الشذوذ، فقد كانوا مجاهرين بانحرافهم وشذوذهم، معلنين له، لا يتورعون ولا يتحرجون ولا يستحون، وهذا يدل على أن انحرافهم وفسادهم لم يكن فرديا ، وإنما استشرى هذا المرض

[1] انظر: زيدان، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة ،ط١،٢٠٠٦م،ص٧٦-٧٧

[2] عباس، فضل حسن، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، دار الفرقان الأردن، ط١٩٨٧/١ ص٢٠٦

ليصبح وباءا عاما، ما أدى إلى فساد الأذواق والأعراف والعادات، ليصبح الشذوذ هو الأصل، ولتكون العفة والطهارة هي الشذوذ[1]!

وفي مجتمعات الكفر المعاصرة، فقد كثير من الناس فطرتهم السوية ،واستسلموا لشهواتهم ، وصار الواحد منهم يبحث عن شريكه من الجنس نفسه، بل إن بعض دولهم أقرت بشرعية هذا الشذوذ واعتبرته من باب الحرية الشخصية، فصار معظم الناس يعيشون في إباحية حيوانية، وهذا دليل على أن ملة الكفر واحدة وسننتهم مطردة، ولكن لله أيضا سنن لا تتبدل ولا تتغير، ومن ثم جاء التعقيب على فعل قوم لوط بقول أحكم الحاكمين: ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ هود٨٣.

ومن صور انتشار الفواحش، ارتكاب فاحشة الزنى، وقد ذكرت سورة يوسف عليه السلام صور من جوانب النفس الإنسانية عندما يغيب عنها الإيمان وتنحدر خلف الشهوات: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ يوسف٢٣

قال الإمام الراغب[2]: الرود التردد بطلب الشيء برفق، والإرادة منقولة من راد يرود اذا سعى في طلب الشيء، والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد.

وهذا يعني أن المرأة لما راودت يوسف أرادت منازعته في إرادته وثنيها عنها، فإرادتها غير إرادته لأنها أرادت منه الفاحشة والمعاشرة وهو أراد العفة والترفع فنازعته لتغيير إرادته، الإنسان عندما تحركه الشهوات ويسوقه الشيطان إلى الفواحش لقد حركها سعار الشهوة والمجون وسيطر عليها لدرجة فقدت أنوثتها وحياءها.

[1] الخالدي، صلاح،القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٤٨٣/١
[2] المفردات، ص٢٤٢

يضاف إلى هذه الفاحشة جريمة المجاهرة بالمعصية، حيث دعت امرأة العزيز نسوة المدينة إلى قصرها، وأعدت لهن المجلس، ثم طلبت من يوسف عليه السلام أن يخرج عليهن، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿ ٣١ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿ ٣٢ ﴾ (يوسف) .

إن امرأة العزيز لم تجد تحرجا ولا حياء من الاعتراف أمامهن بجريمتها فقالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه ﴾ بل أصرت على رغبتها في فتاها ووعدت بإغوائه أمام النسوة بدون حرج قائلة: ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أما نسوة المدينة فقد اعتبرن امرأة العزيز في ضلال مبين، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿ ٣٠ ﴾ ، لكن السبب في ضلالها ليس ارتكاب الفاحشة، ولكن حبها لفتاها، حيث اعتبرن هذا نزولا متدنيا من الحب والعشق، ولو أنها فتنت برجل مسؤول في البلاد وعاشرته لكانت على صواب، هكذا هي أعراف المترفين والمترفات وهذه هي قيمهم، فلا تعاب المرأة ولا تذم إذا بحثت عن عشيق تخادنه وتعاشره، شرط أن يكون أهلا لها وفي مثل منزلتها، أما اذا أحبت من هو أقل منها منزلة ،صارت محلا للذم والعيب![١]

إن النظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء يكفي لإلقاء الرعب في القلوب . لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط ١ ج٢ ص ١٢٧

القديمة، حطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية، وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم دول الحضارة الحديثة [1].

٤- الجشع والاستغلال: ومن صور فقدان القيم وذهاب الأخلاق، ما فعله أصحاب القافلة عندما التقطوا يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴿ ١٩ ﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴿ ٢٠ ﴾(يوسف). اعتبر أصحاب القافلة الغلام عبدا، لأنهم لا يعرفون أصله ولا نسبه، وبدل البحث والسؤال عن أهل الغلام، أخفوه معهم وعاملوه على أنه سلعة، وحولوه من إنسان كريم إلى عبد رقيق، وباعوه بثمن قليل.

ونحن نرى اليوم خصوصا في الدول الفقيرة، ظاهرة تجارة البشر، والتجارة بأعضاء البشر، حيث تقوم عصابات منظمة باستغلال فقر الناس وحاجتهم ،ويرتكبون أفظع الجرائم الإنسانية، وكل ذلك من أجل المال، ولكن لا غرابة في ذلك، فهكذا هو الإنسان عندما يغيب عنه الضمير ويغيب الإيمان.

٥- الكذب: ومن صور الفساد الأخلاقي ظاهرة الكذب، وقد تحدثت قصة يوسف عليه السلام عن نماذج لهذه النقيصة، فالكذب مرض يشير إلى فساد المجتمعات، قال تعالى: ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴿ ١٦ ﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴿ ١٧ ﴾ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿ ١٨ ﴾ (يوسف).

لقد كذبوا على أبيهم وأعطوه الأيمان والمواثيق، وزعموا أنهم ناصحون ليوسف، وبعد ارتكابهم لجريمتهم، تباكوا على يوسف مع أن البكاء عاطفة إنسانية والأصل فيها أن تكون صادقة، إلا أن اللجوء إليها لإخفاء جريمتهم ،جريمة أخرى في انحطاط الأخلاق.

[1] سيد قطب، الظلال،٥/٦٣٢

ومن ذلك أيضا، كذب امرأة العزيز: ﴿ وأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٢٥)، لقد حاولت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، ولكنه عليه السلام رفض وتمنع، وهرب باتجاه الباب، وقامت هي باللحاق به لكنها تفاجأت بوجود زوجها لدى الباب، فما كان منها إلا الافتراء على يوسف، وتزوير الحقيقة، للتخلص من هذا الموقف المخزي، إن سعيها وراء جريمة الزنا أوقعها بجريمة الكذب، فهي تعلم أنها ترتكب خطأ، لكن القلب إذا فرغ من الإيمان والخوف من الله ، استخدم كل وسيلة ليفلت من المسؤولية والحساب، حتى لو كانت تلك الوسيلة الافتراء على الآخرين وظلمهم وإلصاق التهم بهم.

٦- تقديم المصالح الشخصية والمكاسب الدنيوية على المبادئ والمصالح العامة: ومثاله ما كان من فرعون عندما سمع دعوة موسى عليه السلام، فأدرك فرعون ما في هذه الدعوة من خطورة عليه وعلى ملكه، فهي تسلبه كل المكاسب المحرمة، وتفتح عيون رعيته على فساده، فما كان منه إلا إعلان الحرب الإعلامية والعسكرية على موسى ودعوته، وهذه الصفة متمكنة من أهل الطغاة جميعا، وما فرعون إلا مثال ضربه الله لبقية المفسدين والطغاة، وما أكثرهم !

٧- النفاق ومعصية أوامر الله: وهي حالة مرضية اجتماعية قد تصيب المجتمعات المسلمة، فتظهر عليها أعراض ضعف الروح الإيمانية، وتخلخل العقيدة، ومخالفة أحكام الشريعة، وما تزال تلك الأمراض الاعتقادية والسلوكية تنهش بالمجتمع حتى تنقلب به من حالة الإيمان إلى الكفر ومن حالة النعمة إلى النقمة والغضب، وقد عرض علينا القرآن الكريم ما كان من طبيعة بني إسرائيل ليحذرنا منها ،وينبهنا إلى الطرق الملتوية التي سلكوها ليحتالوا بها على أحكام الشريعة ،فآلت بهم إلى الكفر واللعنة والغضب من الله تعالى.

اختار سيدنا موسى عليه السلام أربعين رجلا من خيار بني إسرائيل للاعتذار من الله تعالى عما فعله قومهم من عبادة العجل، فأمرهم الله تعالى بالتمسك بشريعتهم، والعمل بما فيها من أحكام بقوة وجدية ، ليتحقق فيهم الإيمان الذي يرضاه الله لهم، لكن طبيعة أهل الفسق تأبى الالتزام والانقياد ، وهذا ما كان منهم كما أخبرنا الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(البقرة:٩٣)، قال الألوسي: "أي سمعنا قولك وعصينا أمرك فلا نأخذ ولا نسمع سماع الطاعة، وقيل: المعنى قالوا بلسان القال سمعنا وبلسان الحال عصينا"[1]، فرفع الله جبل الطور فوقهم كأنه ظلة، ومن شدة خوفهم بايعوا وعاهدوا.

ولشدة عجرفتهم طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾(البقرة:٥٥)، والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ظاهر ترتيب الآيات، والآية دالة على عجرفتهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى عليه السلام[2].

ومن صور عجرفتهم وتسخطهم ما قاله تعالى عنهم :﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(البقرة:٥٧)، لقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل في صحراء سيناء بنعم عديدة ومنها نعمة الطعام والشراب، قال الألوسي: "المنّ اسم جنس ، وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة كان ينزل عليهم كالطل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في كل يوم، والسلوى اسم جنس أيضاً وهو طائر يشبه السماني أو هو السماني بعينها وكانت تأتيهم من

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٣٢٥/١-٣٢٦.
[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج١، ٥٠٦/١.

جهة السماء بكرة وعشياً"[1] لكن بني إسرائيل تعجرفوا على نعم الله تعالى وأبدوا تسخطهم وطلبوا من موسى عليه السلام الثوم والبصل.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١)، وقد علق سيد قطب على طلبهم بقوله: "إن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء، لقد أخرجهم الله من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة[2] .

ثم عقبت الآية على سبب ذلهم طوال تاريخهم الماضي، وما سيكون في المستقبل إلى قيام الساعة: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١)، إن عصيان أوامر الله والاعتداء على حرماته هو سبب ذلهم وهوانهم، وإن الذل والهوان الذي يمر به المسلمون اليوم سببه العصيان والاعتداء على شرع الله تعالى.

[1] الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج١، ٧٤/١ .

ثانيا : التفكك الأسري

يشير مفهوم تفكك الأسرة إلى انهيار الوحدة الأساسية وانحلال بناء الأدوار الاجتماعية المرتبطة بها عندما يفشل عضو أو أكثر في القيام بالتزامات دوره بصورة مرضية.

وقد يتخذ الانحلال الأسري عدة صور كالطلاق أو الانفصال أو الهجر، ومن أخطر صوره ما يسمى بالقوقعة الفارغة ، وفيها يعيش الأفراد تحت سقف واحد، ولكن تكون علاقتهم في الحد الأدنى، وكذلك اتصالاتهم ببعض ، ويفشلون في علاقاتهم معا ، وخاصة من حيث تبادل العلاقات فيما بينهم[1].

وتعتبر العوامل الثقافية واختلاف القيم والضوابط الأخلاقية من أبرز العوامل المؤثرة على التفكك الأسري، وقد ذكرت سورة يوسف عليه السلام صور من حال الأسر في المجتمعات الإنسانية عندما يغيب عنها الإيمان وتنحدر خلف الشهوات: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، وهذا التصرف من امرأة العزيز المحصنة المتزوجة يشير إلى حالة من التفكك الأسري كانت مستفحلة في بيت العزيز، وهو يشير إلى ضعف رابطة الزوجية بينها وبين العزيز ، مما ألجأها إلى مراودة يوسف عليه السلام.

ومما يدل على ذلك، ردة فعل زوجها، فبعد أن تأكد العزيز بأن زوجته خائنة ومعتدية ،لم يكن للشرف والعرض عند هذا الرجل أية قيمة، بل تعامل مع الموضوع بكل فتور وانعدام للغيرة وكأن شيئا لم يكن، وحاول تبرير فعل زوجته بأن كل نساء جنسها هكذا ﴿ انه من كيدكن ﴾ وكان كل همه المظهر الاجتماعي حتى لا تتأثر منزلته، فهو المسؤول الأول في مصر، ولذا خشي انتشار الخبر أكثر من الجريمة نفسها، وطلب من يوسف عليه السلام كتمان الأمر وكأن شيئا لم يكن، ثم عاتب زوجته بكل برود وقال لها ﴿ استغفري ربك انك كنت من الخاطئين ﴾ .

---

[1] أبو سكينة، نادية، العلاقات والمشكلات الأسرية ، دار الفكر، ط١/ ٢٠١١ ص ١٩٢

إن الأسرة هي الأساس المتين الذي يدعم استقرار البناء الاجتماعي، والمرأة هي قلب الأسرة، فإذا صلحت في أخلاقها ومقوماتها الشخصية والدينية ، صلحت الأسرة وصلح أفرادها، ولا أستبعد أن يكون سبب وقوع ابن سيدنا نوح عليه السلام بالكفر والضلال، أن أمه كانت كافرة، فالأم هي التي تربي وتغرس القيم في نفوس الناشئة، فإذا جهلت قيمتها الحقيقية ومكانتها في بناء كيان مجتمعها، وتعلقت بمظاهر فارغة في محتواها ومردودها، فانغمست في الشهوات واتبعت الأهواء، كانت النتيجة تفكك الأسرة وضياع أفرادها.

وهذا سيترك آثاره العميقة في نفوس الضحية الأولى للتفكك وهم الأطفال، وسيتولد لديهم قناعة بعدم جدوى إنشاء أسرة ، وفي نفس الوقت لا بد من تلبية الغريزة الفطرية في الإنسان، عندها سينتشر الزنى، بل والشذوذ المثلي، كما كان من قوم لوط، وهذا سيترك أثاره على النظام الصحي والاجتماعي والاقتصادي، بل ويتعداه للدور الحضاري لتلك المجتمعات ،إن المجتمعات التي ينتشر فيها الشذوذ، مجتمعات مصابة في أفكار أفرادها ونفسياتهم، لأنها تجعل من الرجل كيانا محطما مخنثا يقوم بوظيفة النساء، ومن ثم سيختل أداؤه الوظيفي في المجتمع، وسينتقل هذا الشذوذ إلى الأطفال، لأن الشاذين سيحرصون على إغوائهم وممارسة الشذوذ معهم.[1]

كما أن نتائج هذه الفواحش ستكون خطيرة على النظام الصحي لما ستنشره تلك الممارسات الشاذة من أمراض وأضرار وأوبئة في المجتمع؟ فالإيدز أدى لوفاة الملايين، فضلا عن ميزانيات علاجه التي أثقلت ميزانيات الأمم المصابة بهذه الأوبئة، ومن ثم سيؤدي التفكك الأسري إلى الانهيار الحضاري، من هنا كان لا بد للأمة الإسلامية من نشر ثقافتها واجتثاث الكفر وما يفضي إليه من أورام سرطانية، ولو

[1] المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية ١٩٧٩ص ٣٤-٦٥ بتصرف

استدعى ذلك قوة السلاح ،﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال:٣٩).

ثالثا: الترف .

وقف ابن خلدون طويلا عند مسألة الترف، واعتبره حتمية ترتبط بعملية التحضر، بانتقال الجماعات البشرية من الفقر والبداوة، إلى الغنى والتحضر والاستقرار في الأمصار، وعالج المسألة من جانبيها الاجتماعي والاقتصادي ، فبين في الجانب الاجتماعي ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكسان بالضرورة على مسيرة الحضارة، ويأذنان بتوقف تدفقها الإبداعي، ومن ثم بانحلالها ودمارها، وبين في الجانب الاقتصادي ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ومن تضخم للنزعة الاستهلاكية على الإنتاج والعطاء، الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلبا على التطور الحضاري العام[1].

والترَفُ: التَّنَعُّمُ، والمُتْرَفُ الذي قد أَبْطَرَتْه النعمةُ وسَعة العيْشِ، والمُتْرَفُ المُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّعُ في مَلاذِّ الدنيا وشَهواتِها، وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ أَي أَطْغَتْه ، وقوله تعالى:﴿إلا قال مُتْرَفُوها﴾ أَي أُولو الترفةِ وأَراد رؤساءَها وقادةَ الشرّ منها[2].

وفي القصة القرآنية، تبقى سنة الله الثابتة تعمل عملها في حركة التاريخ، وتتخذ من المترفين أداة تساق بها الأمم والدول والحضارات الكافرة إلى مصيرها المحتوم، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء:١٦)، ومعنى ذلك " أن الأمة تبدأ مرحلة إدبارها

[1] خليل، عماد الدين، ابن خلدون إسلاميا، بيروت، المكتب الإسلامي ،ط٢، ١٩٨٥م، ص٥٨-٦٥ بتصرف

[2] ابن منظور، لسان العرب، ٢٢٢/٢.

عندما يقوم خاصتها الذين يتأثرون بضلالهم وفساد أخلاقهم بممارسة الفساد، فهم الذين يرتكبون أولا الفسق والفجور والظلم والعدوان، ثم تبتلى الأمة كلها بالفساد والسيئات". [1]

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة، حتى تترهل نفوسهم وتتغمس في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، فيعيثون في الأرض فساداً، وينشروا الفاحشة في الأمة، ويهبطوا بالقيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها .

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴿١٣﴾ (الأنبياء)، يعلق سيد قطب على الآية بقوله: والآية تقرر سنة الله في الأمم، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت ، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك ، وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً. وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر

[1] المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية،١٩٧٩ ص٢٠٨

منها . وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً[1]، يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود:١١٦).

وقد صورت القصة القرآنية الترف في تلك المجتمعات يقول تعالى :﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف:٣١)، يقول سيد قطب: " ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية، فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور.. ويبدو أن الترف في القصور كان عظيماً، فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية.. والترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف؛ ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله". [2]

رابعا :الاستبداد المفضي إلى الظلم والفساد.

إذا كان تفسير كارل ماركس[3] المادي للتاريخ قد أعطى الصراع الطبقي الدور الأساس في المتغيرات التاريخية الحاسمة في عوامل قيام الحضارات وسقوطها، وفسر التاريخ تفسيرا من زاوية أحادية، وأهمل العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية في الحركة الحضارية، فإن مما لا شك فيه أن الظلم والاستبداد وسوء

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ٢٢١٨/١٥.
[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٤، ١٩٨٤/١٢.
[3] انظر عوامل قيام وسقوط الحضارات في الفصل التمهيدي

توزيع الثروة وما ينتج عنها من تحويل المجتمع إلى طبقات: أقلية تملك وتحكم، وأكثرية تجوع وتمتهن ، لهو من أخطر العوامل التي تؤدي إلى تدهور الأمم والحضارات وسقوطها.[1]

إن تلك الأقليات التي تملك وتحكم، يحقرون من تسلطوا عليهم، ويحكمونهم بقبضة من حديد من موقع القوة الذي اغتصبوه بتسلطهم، فيستأثرون بكل امتياز، ويفرضون بمنطق القوة أراءهم على العامة على صورة قوانين صاغوها بأنفسهم لتلبية مصالحهم، فيفرضون على السواد الأعظم رؤاهم حتى تغدوا مسلمات لا تناقش، وفي تلك المجتمعات يغلب على الناس عمى القلوب، فتراهم يتبعون أفكار وقوانين تلك الطبقة، وتزين لهم وسائل الإعلام تلك الأفكار حتى تصبح هي القاعدة ومخالفتها الشذوذ.

ومن خلال القصة القرآنية نتتبع هذا الخط المتصل منذ نشوء المجتمعات البشرية إلى اليوم، حيث يظهر لنا كيف يتطفل طغاة الأرض على الأمم والشعوب، ويمارسون عليها فوقيتهم، ويتسلطون على حقوقهم، بل ويسلبونهم حتى أعمارهم.

يقول تعالى في قصة إبراهيم مع الملك الظالم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ. . ﴾(البقرة: ٢٥٨)، إن أحداث هذه المناظرة تلقي تسلط الضوء على مدى الاستبداد الذي وصل بهذا الملك الظالم، فعندما عرض عليه إبراهيم عليه السلام دلائل القدرة الإلهية ومنها أن العمار بيد الله، والآجال تدور في دائرة المشيئة، قال هذا الملك المستبد بكل عنجهية :" أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته: ﴿ قال: أنا أحيي وأميت ﴾ "[2]!

[1] خليل، عماد الدين، الوسيط في الحضارة الإسلامية، الأردن، دار حامد،ط١، ٢٠٠٤م ص٣١٣

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ٢٩٨/٣.

هذه هي صفة المستبدين الظالمين، إنهم ينظرون إلى شعوبهم على أنهم عبيد لهم يستذلونهم ويتصرفون فيهم تصرف السيد بملكه، وقصة موسى مع الخضر تبرز لنا جانبا أخر من تسلط هؤلاء الظالمين على رقاب شعوبهم، يقول تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾(الكهف:٧٩)، إن الأصل في القادة والملوك المحافظة على الرعية بأشخاصهم وممتلكاتهم وأموالهم، فيقومون بحمايتها من خلال تطبيق القوانين على المعتدين وزجهم في السجون لمنع كل اعتداء على الرعية، لكن الطغيان والبغي والفساد يحوّل المسؤولين وصناع القرار، والملوك إلى لصوص ، بحيث يستغلون مناصبهم وجيوشهم للاعتداء على أموال الناس وممتلكاتهم.

وسجلت آيات القرآن مظاهر ظلم واستبداد فرعون لشعبه، لدرجة أوصلته إلى ادعاء الألوهية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي . . ﴾(القصص:٣٨)، كما ادعى الربوبية عندما قال: ﴿فَقَالَ أَنَا ربكم الأعلى﴾(النازعات:١٧)، وأخبر القرآن عن خضوع المصريين له، وقبول دعواه الألوهية والربوبية، وعبادتهم له من دون الله ، وأنه كان متجبرا متغطرسا مستهينا بقومه، وعلل القرآن سر موافقة شعبه وطاعتهم له بالفسق: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾(الزخرف:٥٤). "هذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه ، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطغاة، ولا يمكن أن يطيع لهم أمراً، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح[1].

---

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٣١٩٤/٢٥.

وإذا كانت الأمثلة السابقة تصور فساد الملوك والحكام، فإن القصة القرآنية لم تغفل الإشارة إلى أفراد المجتمعات الفاسقة وما هم عليه من ظلم وفساد وتكبر، يقول تعالى في سياق عرض أحداث قصة نبي الله صالح عليه السلام :﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾(النمل:٤٨)، قد تبدوا جملة "لا يصلحون" للوهلة الأولى مرادفة لسابقتها "يفسدون"، ولكن تقليب النظر يفضي إلى أن الناس بالنسبة إلى الفساد في الأرض أصناف أو درجات ، فهناك من يفسد ولا يصلح أبدا، وهناك من يصلح ولا يفسد كحكومة داود وسليمان وذي القرنين ،وهي نادرة في تاريخ الأمم والحضارات، وهناك من يفسد تارة ويصلح أخرى، والمسرفون الذين حذر صالح عليه السلام منهم: ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿ ١٥١ ﴾الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿ ١٥٢ ﴾(الشعراء)،هم من القسم الأول الذين يفسدون ولا يصلحون أبدا[1].

وضرب الله تعالى لنا مثلا لهؤلاء بصاحب الجنة: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴿ ٣٥ ﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿ ٣٦ ﴾(الكهف)، إن صاحب الجنة يمثل نموذجا فرديا للقيم المنحرفة في المجتمعات البعيدة عن شرع الله تعالى، لقد نظر إلى الأمور من المنظار المادي البحت، فوجد نفسه أغنى وأكثر مالا ممن سواه، فظن أنه بهذا المقياس أفضل منهم ،وهذا جعله ظالما لنفسه، وللناس من حوله لظنه أن مجال التفضيل هو المال ،وقاده هذا الظلم إلى الاعتقاد بأنه مخلد في الدنيا ، ونتج عن ركونه إلى الدنيا، نسيان الآخرة وإنكارها ،ثم زعم أنه سيكون من أهل النعيم إن كان هناك يوم آخر كما يزعمون، لأن من أكرمه في الدنيا سيكرمه في الآخرة يقول الرازي:"والمراد التنبيه على أنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرته على البعث كان واضعاً تلك النعم في غير موضعها... والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال في

[1] الكبيسي، أحمد، من أنباء القرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٧م،ص١٢١

الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له ، والاستحقاق باق بعد الموت فوجب حصول العطاء ، والمقدمة الأولى كاذبة فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية"[1].

إن القرآن الكريم يلقي مسؤولية الانهيار الحضاري على القيادات والجماهير على السواء، لأن القيادات لا تمارس فسادها إلا بإقرار صريح أو ضمني من الجماهير، من هنا وجب على الجماهير أن تتحرك وترد الظلم حتى لا تقع تحت مطرقة الظلم والتسلط والاستبداد الناتج عن سياسة القيادات الفاسدة، يقول تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٢٥).

خامسا: الفساد القضائي.

الفسادُ: نقيض الصلاح فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ وفَسُدَ فَساداً وفُسُوداً فهو فاسدٌ وفَسِيدٌ.[2]

تصور لنا قصة إبراهيم عليه السلام جانبا من الفساد القضائي: ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (الأنبياء:٦١)، إن الملأ أرادوا أن يهيجوا الناس على إبراهيم عليه السلام، وأن يشركوهم في إدانته وعقابه ويحاكمونه أمام الجماهير، ليوهموا الناس بأن محاكمته عادلة، ووقف إبراهيم عليه السلام محاميا عن نفسه فناقشهم مناقشة موضوعية عقلية، إذ كيف تجعلون هذه الحجارة التي تنحتونها بأيدكم آلهة ، وتتضرعون إليها وتظنون أن لها إرادة تضركم وتنفعكم، لهذا قال لهم ساخرا: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فسائلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإبراهيم عليه السلام لم يقل لهم هذا الكلام تهربا ولا خوفا منهم، لأنه أنذرهم وتوعدهم علانية قبل هذا فقال لهم :﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ لكنه أراد أن يبين لهم عمليا أن هذه الحجارة لا تضر ولا تنفع.

---

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية ج٢١ص١١٥
[2] ابن منظور ، لسان العرب، ١٨٠/١١

وتأثر الملأ بمرافعة إبراهيم وحججه القوية: ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾، إنها لحظة صدق مروا بها أشرقت لها أنفسهم للحظة ثم أظلمت من جديد، لأنها وجدت المصلحة تصطدم مع الحقيقة.

وبما أن تلك الحضارات تحتكم إلى الأهواء والمصالح، فإن ظلمها يتكرر عبر التاريخ وإن أخذ أشكالا جديدة ، وقصة يوسف عليه السلام خير مثال على ذلك، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (يوسف:٣٥)، لقد رأى القوم الآيات والأدلة والبراهين على إدانة امرأة العزيز وبراءة يوسف، فكل ما حول الموضوع يشهد بذلك، لكن فضيحة العزيز انتشرت بين عامة الناس، وكان لا بد من معالجة القضية بصورة قانونية، لكن بحكم مسبق هو الحفاظ على سمعة العزيز، ومع أن القضاء يعلم بالأدلة القاطعة أن يوسف عليه السلام بريء، لكنه عبد فقير، ليس له قوة مادية أو عشيرة قوية لتدافع عنه، ومنذ متى كانت قوانين وتشريعات الجاهلية حريصة على العدل؟ المهم عند هذه التشريعات قديما وحديثا حماية الطبقة الحاكمة.

وهكذا صدر الحكم الظالم ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾، وهذا الحكم يدل على أن الظالمين لم يصدروا عليه حكما بمدة محدودة ، وإنما أرادوا وضعه بالسجن مدة مفتوحة تنتهي بانتهاء القضية، حتى لو بقي في السجن سنوات طويلة، والإيقاف أقسى وأشد من الحكم، لأن المحكوم بسنوات محددة يعرف متى يخرج من السجن، أما الموقوف فلا يعرف متى يخرج ، وهذا ظلم آخر يضاف إلى ظلمهم [1].

أما النظام الفرعوني، فإن الفساد لم يخلخل أوصاله فحسب، بل كان تسويق الفساد في أجهزة الدولة سياسة متبعة من سياسات فرعون في الحكم والإدارة، وأول أنواع الفساد، الفساد القضائي، إذ إن هذه الدولة الضخمة تنعدم فيها الأسس القانونية، ويعاقب الناس فيها بأنواع العقوبات، من قتل وتصليب

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١ج١ص١٣٨

وذبح وسجن، بدون لوائح قانونية، أو تهم واضحة أو محاكمات عادلة، ويتجلى هذا النوع من الفساد في الحكم الذي أطلقه فرعون على السحرة ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾طه٧١ ، وتهديد موسى عليه السلام بالسجن دون ذنب ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾الشعراء٢٩.[1]

سادسا: الإعلام .

على مدى التاريخ كان لوسائل الإعلام الاجتماعي قدرة كبيرة على تزييف وعي الناس من خلال ما يمتلكه النظام السياسي من قدرات تنظيمية هائلة قياسا إلى عموم الجماهير التي تتصف بانعدام التنظيم وضعف التماسك، من هنا كان للإعلام السياسي دور كبير في تزييف الوعي الجماعي للجماهير حفاظا على مصالح الفئة الحاكمة ولإبقاء سيطرتها على أفكار الناس ومشاعرهم، وإذا كانت وسائل الإعلام متطورة في زماننا، فقد كان النظام السياسي قديما يجيش كل وسائل الإعلام المتاحة ليصل إلى تلك الأهداف.

يقول سبحانه وتعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿ ٣٨ ﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿ ٣٩ ﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿ ٤٠ ﴾ (الشعراء)، قام الملأ من قوم فرعون بتهيئة الناس إعلاميا من خلال حملة إعلامية واسعة، وقد حشد له فرعون السحرة من كل أرجاء البلاد، هذه هي الحملة الإعلامية التي قام بها الملأ وصورت موسى عليه السلام بأنه ساحر يريد أن يفتن الناس عن دينهم، يقول سيد قطب معلقا على قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ (الزخرف)، " إن ملك مصر و الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان، ط١/٢٠٠٨ص٢٧٥-٢٧٦

مشهود للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه، والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد، ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب! ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ "[1].

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م،مج٥، ٣١٩٤/٢٥.

المبحث الثاني

القيم المادية

المطلب الأول : القيم الاقتصادية

إن النظام الاقتصادي الذي يرضاه المجتمع لنفسه يرتبط ارتباطا قويا بعقيدة الإنسان ونظرته إلى الكون والحياة ودور الإنسان فيها، ولا يمكن عزل أي نظام اقتصادي عن جذوره العقدية، فالمجتمعات التي تنظر إلى الحياة على أنها متع وشهوات يجب إشباعها، لابد أن يصطبغ اقتصادها بتلك النظرة، ومن ثم كان هناك مجموعة من السمات تميز اقتصادات تلك المجتمعات والحضارات، وفيما يلي بيان لأهم تلك السمات من خلال عرض القصة القرآنية لها:

أولا :المال والغاية منه:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس:٨٨)، تبين لنا هذه الآية الكريمة وسيلتين استخدمهما فرعون ليصد الناس عن سبيل الله وهما الزينة والمال.

الزينة هي الدنيا وزخارفها ومصالحها ومنافعها، التي كان يعطيها فرعون لمن أطاعه وسار على نهجه، إغراء وترغيبا لهم، ويحرم المؤمنين بموسى من هذه الزينة، قال سيد قطب: " إن الأموال ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيل الله ، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة، وموسى يتحدث

هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس، ويطلب لوقف هذا الإضلال، ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغي والإغراء، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها، بحيث لا ينتفع بها أصحابها"[١].

ومن نماذج استخدام المال للصد عن سبيل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ . . ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ (القصص) .

كان قارون يمثل القوة الاقتصادية في النظام الفرعوني، حيث آتاه الله الكنوز العظيمة، ولم ترد كلمة " الكنوز " إلا مرتين في القرآن الكريم، المرة الأولى في الحديث عن كنوز قارون، والمرة الثانية في التعقيب على هلاك فرعون وجنوده: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾(الشعراء:٥٧-٥٨) .

والتعبير عن أموال قارون بالكنوز، يوحي بأنه حصلها بأدنى جهد مبذول، وأنه كان لا يخرج منها شيئا للمحتاجين، قال أبو حيان:" سميت أمواله كنوزاً ، إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته"[٢].

وقوله : ﴿فخرج على قومه في زينته﴾، أراد أن يختال على قومه، وأن ينشر فيهم الفتنة والفساد، فتزين بزينته وانتفش بماله، ليشعرهم بالمرارة والحرمان، وليثبت لهم أنه هو الأغنى والأقوى، ومن ثم فهو الأفضل والأكرم، يقول ابن عاشور: "وتعدية (خرج) بحرف ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى النزول إشارة إلى أنه خروج متعال مترفِّع"[3].

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج ٣، ١٨١٧/١١.
[2] ، أبو حيان، البحر المحيط ،ج٩ص٣٤
[3] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ج٢٠ ص١٨٣

وشاهد قوم قارون الزينة الطاغية، وانقسموا قسمين، ونبقى مع الذين فتنوا به وأعجبوا بزينته قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لقد وصف الله هؤلاء المفتونين المخدوعين بأنهم ﴿الذين يريدون الحياة الدنيا﴾، والذين يريدون الحياة الدنيا هم عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عما يكون في مطاويها من سوء العواقب فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زينة الدنيا فيتلهفون عليها ولا يتمنون غير حصولها وكل همهم وفكرهم الدنيا وما فيها من مال ومتاع [1].

وبما أن قلوبهم معلقة بالدنيا، شعروا بالحسرة والفقر والذل والحاجة، لأنهم لا يملكون شيئا من الدنيا، وقارون يملك كل شيء منها، فهو في منظارهم أكرم وأفضل منهم، لذا تمنوا أن يكونوا مثله، وصدرت منهم جملة تعكس ما في قلوبهم: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ .

ثانيا: ظاهرة الربا.

تعتبر الأثرة[2] الفاحشة السبب المباشر لظاهرة الربا وما ينجم عنها من فساد اقتصادي، وقد أسلفنا فيما تقدم أن جميع القيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مرتبطة كل الارتباط بالقيم الثقافية و الاعتقادية، وفي مجتمعات لا تؤمن بالله واليوم الأخر والحساب والمعاد، ينشأ الطغيان من جانب المترفين والأغنياء الذين يبذرون أموالهم في الملاذ والملاهي، ويقضون أوقاتهم في استثمار أموالهم وتنميتها للادخار والتوسع في ملاذ الحياة، ومن طرق تنمية تلك الأموال استغلال حاجة الفقراء والمساكين ليصبحوا أداة لهم يتحكمون في أرزاقهم .

إن الأغنياء المترفين لا يتورعون من تسخير طاقات أولئك المعدمين ليعملوا عندهم في إشباع نهمهم وإرضاء جشعهم، عن طريق استعمال ما فضل عن حاجاتهم من الأموال في استثمارها وتنميتها بكل

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ج٢٠ ص١٨٣
[2] الأثرة : بفتحتين بمعنى الاستئثار والتفرد / ابن منظور، لسان العرب، ٥٣/١.

الطرق المتاحة، كالتجارة والصناعة، وإقراض فضل أموالهم بالربا، وتكون المحصلة أن المجتمع البشري ينقسم إلى طبقتين، أقلية هنيئة العيش رخية البال تتوفر لديها كل وسائل الراحة و الدعة فتستأنف استثمار أموالها لتوفير الثراء، لتستولي بذلك على وسائل أخرى لم تكن تملكها من قبل.

وطبقة أخرى تتألف من جماعات شتى منها ما يملك من الأموال ما تسد بها حاجتها، وجماعات بائسة تعيش عيشة الشقاء لأنها لا تملك شيئا ولا تقضى لها حاجة، وهذه الطبقات تبقى في تنازع مستمر، لأن سعادة إحداهما تكون على حساب شقاء الأخرى ، من هنا كان نظام العيش في هذه المجتمعات قائما على الكفاح والمقاومة ، بدل أن يقوم على التعاون وتبادل المصالح كما هو الحال في المجتمعات الإيمانية.

ومن طبيعة هذا النزاع أن الذي يملك ثروة أكبر يستعين بفضل ماله المدخر وثروته الضخمة على جعل كل من كان أقل منه مالا أكثر فقرا وحياته أشد نكدا باتباع أساليب الغش والاحتكار واستخدام النفوذ السياسي والمالي وكل الوسائل الممكنة لتحطيم المنافسين ، ويفضي ذلك إلى أن تكون مرافق الحياة وأسباب العيش أضيق نطاقا ، ولا يملكها إلا عدد محدود من الأغنياء، أما نطاق الفقر والبؤس فيتسع ويزداد عدد أهله من البؤساء الذين يحتاجون إلى الأغنياء في قضاء حاجاتهم، فتنهار منظومة الخلاق، وينهدم صرح القيم ، ويفسر الكون والحياة على أنه اقتصاد بحت، فتتوسع رقعة المقاومة والتنافس ويتسع مجالها حتى تدخل فيه الأمم والحضارات مرحلة موتها المحتوم[1].

وظاهرة الربا ظاهرة قديمة قدم المجتمعات البشرية، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً ﴿ ١٦٠ ﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا

[1] أنظر : المودودي، أبو الأعلى، الإسلام ومعضلات الاقتصاد ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ،١٩٨١

لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿ ١٦١ ﴾(النساء)، يقول الإمام ابن عاشور:" والربا محرّم عليهم بنصّ التوراة في سفر الخروج في الإصحاح٢٢ « أن أقرضَت فضّة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تضعوا عليه ربا» وأكلُهم أموال النّاس بالباطل أعمّ من الربا فيشمل الرشوة المحرّمة عندهم ، وأخذهم الفداء على الأسرى من قومهم ، وغير ذلك[1] .

وهذا دليل على أن كل الشرائع السماوية حرمت التعامل بالربا، ومن ثم حرمه الإسلام، وصوره أبشع تصوير : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٥)، إذا كنا تحدثنا عن قيمة الصدقة في المجتمعات الإيمانية، فإن الوجه المقابل لها في المجتمعات الأخرى هو الربا، وإذا كانت الصدقة عطاء وسماحة ، وتعاون وتكافل ، فالربا شح وقسوة، واستغلال وطمع.

"ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا، لقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره، ولكن الجوانب القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر، فهذه الحملة المفزعة على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ، والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها ، وحين كان السياق يعرض دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٣، ٢٨/٦.

الذي يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة، في مقابل ذلك النظام الآخر الذي يقوم على الأساس الربوي الشرير القاسي اللئيم[1].

ثالثا :الفساد الاقتصادي.

كان كل نبي يجد عند قومه جرائم خاصة، صدرت منهم وتعمقت فيهم، إضافة إلى الجريمة الأم التي تولدت منها كل الجرائم سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، وهي الكفر بالله والشرك به.

فهود عليه السلام وجد عند قومه عاد التكبر والظلم والاستعلاء والتجبر على الآخرين، ولوط عليه السلام وجد عند قومه أسوأ جريمة وأخبث سلوك، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وصالح عليه السلام وجد عند قومه الترف والتباهي بالنعم وصرفها في غير موضعها، أما شعيب عليه السلام فوجد عند قومه جرائم اقتصادية تتعلق ببخس المكيال والإفساد في الأرض، وقطع الطريق والتعرض للذين يمرون عليها ، يتوعدونهم ، ويهددونهم ، ويسلبونهم ما معهم من أشياء، ويصدون عن سبيل الله، ويبغون الحياة معوجة بعيدة عن شرع الله تعالى.

وقد أنكر عليهم شعيب عليه السلام هذه الجرائم، ومن جملة ما قاله لهم : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ٨٦ ﴾ (الأعراف).

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج١، ٣١٨/٣.

لقد حثهم شعيب عليه السلام على الإصلاح الاقتصادي، وحثهم على الإتمام والتوفية بأسلوبين، أسلوب النهي عن البخس، وأسلوب الأمر بإتمام التوفية، فكان من صور فسادهم الاقتصادي بخس الناس أشياءهم، والبخس كما قال الإمام الراغب: نقص الشيء على قبيل الظلم[1].

هذا الظلم الاقتصادي هو المراد بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها }، لأن الحق والصلاح هو توفية المكيال والميزان، كما ويشمل إحقاق جميع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وعكس ذلك هو الإفساد، لأن مدين جمعوا بين الجرائم الاقتصادية والجرائم الأمنية، حيث كانوا يقطعون الطريق، ويرهبون الناس وهذا جرم اجتماعي، ومن جرائمهم تنحية شرع الله عن تعاملهم الاقتصادي، وهو مفهوم من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود:٨٧).

لقد كفروا بالله وأنكروا حكم الله في المجال الاقتصادي والالتزام الأخلاقي في الاقتصاد والتجارة والأموال، بل استهجنوا ربط المال بالإيمان والأخلاق، فهذا شيء وذاك شيء آخر، ونظروا لدعوته بمنظار السخرية والاستهزاء ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ والآية توحي بمشهدهم وهم يرون أنفسهم أقطاب الاقتصاد وأساتذته ، وشعيب الفقير ينظّر عليهم بنظريات يرونها أقرب إلى السخرية منها إلى التطبيق.

وهذا الكلام الصادر عن قوم مدين في الإنكار على شعيب هو نفس الكلام الذي يصدر عن الفاسدين دائما، الذين يستغربون تدخل الإسلام في تجارتهم وأموالهم واقتصادهم، وبخاصة أهل هذا العصر، إنهم يريدون أن يكونوا أحرارا في اقتصادهم وتجارتهم وتنمية أموالهم ولا يقبلون إقحام الإسلام والدين والأخلاق في أفعالهم وممارساتهم التجارية.

[1] المفردات ، ص٦٧

رابعا :القيم المعمارية.

تعتبر القيم المعمارية انعكاسا مباشرا لثقافة المجتمعات والحضارات ، وفي المجتمعات التي تسودها عقائد الكفر والشرك ، وتظهر فيها الظواهر المرضية كالترف وحب التباهي بالأموال والتفاخر بالقصور ، تكون القيم المعمارية ثمرة طبيعية لتلك المجتمعات، يقول تعالى في وصف قوم هود: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ (الشعراء:١٤٩)،"الفَرَهُ كلمة تدل على أَشَر وحَذق، والفاره الحاذق بالشيء، والفَرِه الأشر"[1]، ووصف قوم ثمود بأنهم كانوا فارهين في نحت بيوتهم يراد به أمران:

الأول: وصفهم بالحذق والمهارة والإتقان في نحت البيوت، ونحت الصخر يحتاج إلى حذق ومهارة، وهذا فيه إشارة إلى تقدمهم المعماري ، وفنهم الإنشائي الهندسي في نحت الأشكال الهندسية الجميلة.

الثاني: كانوا فارهين في نحت الجبال ، أي كانوا مترفين مسرفين متكبرين، فأفسدوا هذه المهارة والحذق عندما استخدموا ذلك في الفره والأشر والتكبر والبطر، وهذا هو وجه الإنكار عليهم.

ولم تقتصر مساكن ثمود على الإقامة في البيوت المنحوتة في الجبال ، وإنما توسعوا في تقدمهم العمراني، فأنشأوا القصور الضخمة في السهول ، وقد ذكرهم نبيهم صالح عليه السلام بهذه النعمة فقال لهم : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٧٤)، وعلماء الآثار يقولون إن مدائن صالح الواقعة شمال غرب الحجاز على الطريق الذي يربط المدينة المنورة وتبوك، تفوق في إتقانها وجمالها آثار الأنباط في منطقة البتراء[2].

---

1 المفردات، ص ٤٨١

2 الخالدي، صلاح،القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٢٧٢/١

ومن مظاهر تقدمهم المادي ما وصلوا إليه من مستوى متقدم في الزراعة واستصلاح الأراضي ، واستخدام العيون وإنشاء الحدائق والبساتين، ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿ ١٤٦ ﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ ١٤٧ ﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿ ١٤٨ ﴾ (الشعراء)، وقد أشار لهم نبيهم صالح عليه السلام، أن هذه النعم التي ينعمون بها استعمار من الله لهم ، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(هود:٦١)، أي أن الله هو الذي مكنكم من عمارة الأرض واستصلاحها وإنشاء البساتين والجنات، والاستفادة من عيونها والتنعم بزروعها ونحت بيوتها، فهو أشار لهم إلى غاية وجود الإنسان وسبب خلقه ،لكنهم كفروا النعمة واستخدموها في غير ما خلقت له.

وقوله :﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿ ١٢٨ ﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿ ١٢٩ ﴾ (الشعراء). قال الإمام الراغب عن الريع :" الريع المكان المرتفع الذي يبدوا من بعيد ، الواحدة ريعة ، ومعنى بكل ريع ، بكل مكان مرتفع"[1]، وقال السمين الحلبي عن المصانع:" هي مجاري الماء، وقيل هي الأصناع، مفردها صنع ، وهو الذي يحبس فيه الماء ، وقيل المصانع ما شيد من القصور وما زخرف من الدور، والكل مراد فإن القوم فعلوا كل ذلك"[2]،والمعنى أن قوم عاد كانوا يبنون على كل جبل مرتفع قصرا، كدليل على قوتهم، وكانوا يبنون هذه القصور لأجل السرف والبطر والعبث، ولو أن عملهم هذا كان نبيلا ، لكان في ذلك خير، .

يقول الإمام الرازي: المصانع مآخذ الماء، وقيل القصور المشيدة والحصون.. يرجون منها الخلد في الدنيا أو يشبه حالهم حال من يخلد .. وإنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف ، أو على الخيلاء ،

---

[1] المفردات ، ص٢٧٣.

[2] السمين الحلبي، أحمد بن يوسف،عمدة الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤١١/٢

و لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة ..تدل على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية ، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال: ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾.. فكان جوابهم ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده[1].

---

[1] الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية، ١٤٥/٢٤.

المطلب الثاني: القيم السياسية .

أولا: صفات الحاكم

لا تقوم أي دولة من غير حاكم يحكمها ويسوسها ، من هنا اعتبر من أهم ركائز الدولة لأنه يمثل القيادة والإدارة لتلك الدولة ، ومن ثم كانت له هذه الأهمية ، فإذا كان الحاكم يتصف بالعادل والأمانة ارتقت الدولة وتطورت، وإذا كان ظالما مستبدا تراجعت الدولة، وغالبا ما يتصف القادة والحكام في الحضارات التي لا تؤمن بالله وتحتكم لشرعه بالظلم والفساد، وهو ما نوهت له القصة القرآنية في كثير من مشاهدها.

عندما أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون، قالا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ (طه:٤٥) ، وهذا معناه أن فرعون عصبي نزق المزاج ، وليس حليما ولا متأنيا، وإذا سمع شيئا لا يعجبه ولا يتفق مع هواه ، فإنه يسارع بالعقوبة ، ويتعجل بإصدار الأوامر بالقتل والتعذيب، وهي من أقبح صفات الطغاة، ولعل نقطة المحور في شخصية فرعون هي هذه الصفة المقيتة التي وصفه الله بها، وهي علوه وطغيانه بغير حق، ولك أن تنظر إلى أسلوب خطابه وكلامه:" سنقتل"، "ونستحيي"، "وإنا فوقهم قاهرون"، هكذا نون العظمة، والفوقية القهرية التي يتبجح بها، تعكس مرض هذه النفس المستكبرة. [1]

ولما التقيا بفرعون ، حاول الأخير أن يتظاهر بالموضوعية وأن يناقش بحوار، فقال :﴿ مَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾(طه:٤٩)، وسرعان ما ظهر عجز فرعون بعد الإجابات المقنعة التي قدمها موسى عليه السلام، ولم يستطع أن يجاريه بنفس المنطق والأسلوب ، فهو لا يملك حججا يقدمها لقومه ، لهذا انتقل

---

[1] المصري، رأفت، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان ط١/٢٠٠٨ ص٢٣٥

إلى أسلوب الشتم والاتهام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء:٢٧)، لقد حاول أن ينقل القضية من الميدان الفكري الواسع، إلى الميدان الشخصي الضيق ، بدل نقض الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، تحول للشتم والسباب، وهذا يدل على هزيمته أمام موسى، لكن موسى من أهل العلم والحكمة، لم ينزل إلى مستوى فرعون، فلم ينجر للدفاع عن نفسه وإنما وجه كلامه للملأ، فعرض عليهم مسألة ربوبية الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء:٢٨)، ولمس عقولهم بخطابه لهم ، ودعاهم إلى إعمال عقولهم والتفكر بمنطقه وأدلته وآياته.

فانتقل فرعون إلى أسلوب الطغاة والمتسلطين، مع أنه حاول التظاهر بالموضوعية والأناة وسعة الصدر وأنه يستمع للرأي الآخر ، لكنه ضاق ذرعا بعلمية ومنهجية موسى في أدلته وكلامه ، فهدد موسى تهديدا واضحا صريحا :﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩)، انتقل إلى أسلوب البطش والتعذيب، الأسلوب الذي يتقنه هو وكل أمثاله ، فهو لا يسمح لمخالفيه بالحرية خارج أفكاره.

لكن موسى عليه السلام واجهه بالمعجزة الخارقة والبرهان القوي على أنه رسول من الله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴿ ٣٠ ﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿ ٣١ ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴿ ٣٢ ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴿ ٣٣ ﴾(الشعراء)، فشعر فرعون بالخطر، ومتى أحس الطاغية بالخطر تزلف وتقرب إلى حاشيته ، وتظاهر أنه يشارك الملأ بالحكم والقرار، والقيادة والتوجيه، وأنه ينفذ أمرهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴿ ٣٤ ﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴿ ٣٥ ﴾(الشعراء)، منذ متى يطلب منهم أن يأمروه؟ ومنذ متى ينفذ أمرهم؟ إنه خبث ومكر فرعون في استقطاب الملأ حوله، لأنه شعر بالخطر

وشعر بالملأ يراجع بعضهم بعضا ويتفكرون في كلام موسى ،فاتهمه بالسحر وهيج الملأ عليه ،وذكرهم بمصالحهم: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ (الشعراء)[1]، وهذا الأسلوب ليس خاصا بفرعون، إنه أسلوب جميع الطغاة الذين يحرصون على الظهور بمظهر الديمقراطية ، فيدّعون التقرب للجماهير، ليشركوهم في محاربة الحق وتحميلهم مسؤولية ذلك، كما فعل الديمقراطيون في عصرنا عندما أثاروا الجماهير ضد الإرهاب، وأشعروهم بأنها قضيتهم الأساسية، للوصول إلى ما قرروه مسبقا، فاحتلوا أفغانستان والعراق بدعوى الديمقراطية ورغبة الشعوب.

ومن صفات القادة والحكام الظالمين سيطرت شعور العظمة عليهم ، كان فرعون مصابا بمرض التأله الذي يصيب القادة والحكام عندما يبتعدون عن دين الله، ولا يدينون دين الحق لقد قال قولته: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾(النازعات:٢٤)، إن المستبدين يرون أنفسهم حكاما مسؤولين آمرين ناهين، ويرون الآخرين أذلاء مستسلمين ، فينسون أنهم بشر كباقي البشر ،عندها تسول لهم أنفسهم ادعاء أنهم آلهة وأرباب ، فيطلبون من أقوامهم تأليههم وعبادتهم ويتعاملون مع شعوبهم بمنتهى الإذلال والاحتقار ومن ثم قال لشعبه :﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (غافر:٢٩)، والمعنى أنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، وأعتقد أنه نافعاً، وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً![2]، وهذا المرض يصيب المتجبرين في كل مكان وزمان فهو نموذج مكرر في تاريخ البشرية يتمثل بكل حاكم يحكم قومه كما حكم فرعون شعبه.

---

[1] الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٩٨، ٤١٧/٢

[2] قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، مج٥، ٢٤/ ٣٠٨٠.

وفي قصة طالوت كان ميزان أهل الباطل والأهواء في وزن القائد والزعيم ميزان جاهلي ،ومؤهلات الملك عندهم مؤهلات جاهلية: ﴿قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ (البقرة:٢٤٧)، فالملك هو من كان من عائلة مالكة أو عشيرة لها وزنها بين العشائر، ولديه أموال كثيرة، وهذان المؤهلان أمران خارجان عن شخصية الإنسان ، فأين مؤهلاته النفسية الداخلية؟ وأين مؤهلاته الفردية المعنوية؟ أين العلم والإيمان والحكمة والخبرة وتحمل والمسؤولية والأمانة والنزاهة والغيرة على الأمة؟ إن هذه القيم ليس لها أي اعتبار عند أهل الجاهلية زمن طالوت وفي كل زمان يحتكم فيه الناس إلى أحكام الجاهلية!.

ثانيا: السياسات الداخلية .

يعتبر الاستبداد السياسي من أكثر العوامل خطرا في تدمير طاقات الأمة وإعاقة قدراتها الإبداعية عن مواصلة التنامي والعطاء، وله الدور البارز في سقوط كثير من الحضارات والدول، حيث يتسلم أمور القيادة في تلك المجتمعات حفنة من المترفين الظلمة، أو المجرمين الطغاة فيمارسون من موقع السلطة كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالمجتمع والأمة التي ارتضتهم قادة لها فتراهم ينشرون الفوضى والفسوق والاستغلال والمكر ، يعيشون حياة الترف، ويستخدمون أقصى درجات القسوة والاستبداد لصد شعوبهم عن أي محاولة للإصلاح أو التجديد، معتبرين قوانينهم وتشريعاتهم القاصرة هي الصواب المطلق[1].

والقصة القرآنية أشارت إلى مظاهر فساد حكم فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)، إن هذه الآية تلخص لنا أهم سياسات فرعون الداخلية والتي يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

[1] خليل، عماد الدين، الوسيط في الحضارة الإسلامية، الأردن، دار حامد،ط١، ٢٠٠٤ ص٣٠٦-٣٠٩ بتصرف

أولا: ﴿ إن فرعون علا في الأرض﴾، ومعنى علا: تكبر وتجبر وانتفش وتبختر، وقاده ذلك العلو إلى الاستكبار واستعباد الآخرين وإذلالهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (يونس:٨٣)، أي أنه كان قاهرا في أرض مصر من المبالغين في الظلم والفساد والكبر والعتو والمتجاوزين الحد في الكفر[1]، ولا يمكن أن يكون صالحا مصلحا إذا علا في الأرض، لأن العلو في الأرض هو أساس فساد وإفساد أي حاكم، فالعلو هو الصفة العامة لكل قوم كافرين مكن الله لهم في الأرض، ومن ذلك إخبار الله عن علو بني إسرائيل وإفسادهم: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ (الإسراء: ٤).

إن فرعون ما كان يستطيع أن يتجبر ويظلم الناس ويفسد في الأرض لولا أنه وجد أعوانا من جنوده وعساكره ، وقد علم أعوان فرعون هذه الحقيقة وهي أنهم حماة فرعون وبهم يحكم ويبطش ويظلم، فقاموا هم أيضا بالظلم والإفساد في الأرض، وهذا شأن كل حاكم طاغية لا يطغى ويظلم ويفسد إلا بإسناد من جنده وأعوانه، ثم لا يلبث هؤلاء الأعوان أن يطغوا ويظلموا الناس مثل سيدهم وحاكمهم، فهم يعلمون أنهم سند الحاكم وأساس ملكه، ولولاهم لما بقي في حكمه وطغيانه[2]، من ثم وصفهم الله بقوله: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٣٩)، أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد[3].

ثانيا: ﴿ جعل أهلها شيعا ﴾ أي فرقا مختلقة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم،[4] ، لقد قسم فرعون شعبه إلى شيع وأحزاب وجماعات مختلفة متعارضة وحرص على التفريق بينهم، فمنهم

---

1 القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري، الكتبة التوقيفية، مصر ج٨ ص٣١٢
2 زيدان، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة ،ط١،٢٠٠٦م ص ٢١٧
3 ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٥١٨/٣.
4 الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥ج ١٠ ص٢٥٣

المؤيد له المقرب عنده ، كالملأ والوزراء والسحرة، ومنهم المعارضون المخالفون له، الذين اضطهدهم وعذبهم كبني إسرائيل، والأصل في الحاكم أن يجمع شعبه ويؤلف بينهم، لا أن يفرق بينهم ويجعلهم شيعا على قاعدة فرق تسد، ولا يقوم بذلك إلا كل حاكم مستبد متفرعن.

ثالثا: ﴿يستضعف طائفة منهم يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾، قام فرعون باستضعاف المخالفين والمعارضين فأهانهم وأذلهم، ومن أبشع صور إذلالهم أنه أمر بتذبيح أبناء المستضعفين، بينما ترك نساؤهم يعشن حياة الذل والمهانة، وقد ذكرت آيات القرآن صور من تعذيب فرعون لبني إسرائيل في سياق تذكيرهم بنعم الله عليهم وتخليصهم من فرعون وعذابه فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة:٤٩)، ومعنى يسومونكم: يعاملونكم معاملة المحقوق بما عومل به، يقال سامه خسفا إذا أذله واحتقره [1]، لقد كان فرعون مثالا للحاكم الظالم، فبدل أن يحافظ على أرواح ودماء رعيته، مهما كانت آراؤهم ومهما تباينت اتجاهاتهم، قام بسفك دمائهم وصب عليهم جام غضبه، ولهذه الأسباب استحق بأن ينعت بالفاسد، وهي صفة لكل متفرعن سار على خطا فرعون.

ثالثا: السياسات الخارجية .

تصف القصة القرآنية طبيعة السياسات التي ينتهجها الظالمون تجاه أعدائهم بقوله تعالى عن قوم عاد ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء:١٣٠)، والبطش: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، والجبار: الشديد في غير الحق ، فالمعنى : إذا بطشتم كان بطشكم في حالة التجبر، أي الإفراط في الأذى والظلم[2]، إنهم لم يستخدموا هذه القوة في طاعة الله وعمارة الأرض والإحسان إلى العباد كما هو

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ج١ص٢٩٢
[2] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون ، مج٨، ١٦٨/١٩.

الحال في ثقافة المجتمعات الإيمانية ، لأنهم فاقدين لقيمة الإيمان، بل استخدموها في استعباد الآخرين وإيذائهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت:١٥) .

لقد اغتروا بقوتهم المادية ، فقادتهم إلى الاستكبار في الأرض واستعباد الآخرين، وأنستهم قوة الله تعالى ، بل كفروا به وجحدوا بآياته، وهذا هو المرض الخطير الذي أصاب قوم عاد فانتفشوا وتجبروا وقالوا :﴿ من أشد منا قوة ﴾، وكم من الأقوام المتجبرين في الماضي تصرفوا بمنطق {من أشد منا قوة } كالفراعنة واليونان والروم والفرس، ثم قصمهم الله وأبادهم .

وكم من الدول في العصر الحديث تصرفوا مع الآخرين بهذا المنطق { من أشد منا قوة } فكيف كانت نهايتهم؟ الإنجليز والفرنسيون وألمانيا النازية، والذين يتصرفون اليوم بمنطق {من أشد منا قوة } ويستخدمون قوتهم في استعباد الآخرين كاليهود وأمريكيا ستكون نهايتهم كنهاية قوم عاد، لأن هذه سنة من سنن الله ، وهذه هي شهادة التاريخ، ولكنهم لا يعلمون .

* **الحروب الانتقامية** : ومن صور هذا البطش ما قام به الكفار من إبادة جماعية للمؤمنين عبر التاريخ، مع أن السبب الحقيقي لتلك الحروب هو "الانتقام "، ومن أمثلة هذه الحرب الانتقامية في القصة القرآنية، انتقام الظالمين من أصحاب الأخدود بسبب إيمانهم ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ (البروج) .

إن حقد الطغاة على أصحاب الأخدود المؤمنين وانتقامهم منهم، دعاهم إلى حرقهم بالأخاديد المشتعلة بالنار، وكان هؤلاء الطغاة كما وصفتهم مشاهد القصة ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ متفرجين على منظر المؤمنين وهم يحترقون، فاقدين للمشاعر والأحاسيس الإنسانية، وهذه هي طبيعة عداء وحرب أصحاب الباطل لأصحاب الحق في كل زمان ،إنهم في حربهم للمؤمنين، يوقفون العمل بالقوانين والتشريعات والمبادئ[1].

وهو ما بينه السحرة المؤمنون بقولهم :﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا ﴾(الأعراف:١٢٦)، إن فرعون ينقم منهم إيمانهم بالحق، ولا يريد منهم التخلي عما كانوا عليه من باطل واتباعهم له ، أي أن عداء فرعون لهم عداء فكري عقدي، وليس عداء سياسي أو وطني إنه عداء بين الحق والباطل ، وتعبير السحرة عن عداء فرعون وحربه لهم بلفظ " تنقم " له دلالته، فالانتقام قائم على مرض نفسي عند فرعون، إنه يكره أهل الإيمان كرها شديدا ويحقد عليهم حقدا أسودا، وهذا الحقد هو الوقود الذي يغذي حربه ضدهم ، هذا الحقد هو الذي يدعو الحاقد إلى الانتقام من المخالف، والانتقام معناه أن يحارب المخالف بكل وسيلة ، ولا يراعي في ذلك عهدا ولا قرابة ، ولا قانون ولا عرف، فهو يلغي كل الأعراف والمبادئ والقوانين والتشريعات ، كي يبيد المخالف، لهذا وصف السحرة حرب فرعون بالحرب الانتقامية، إن فعل " نقم" لم يذكر في القرآن إلا في سياق العداء بين المؤمنين والكافرين، ليبين لنا طبيعة هذه الحرب العقائدية الانتقامية.

لقد بين لنا الله تعالى طبيعة العداء بين المؤمنين وأهل الكتاب، فهي قائمة على الحقد والانتقام: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾(المائدة:٥٩)، وبين لنا

[1] الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق، دار القلم، ط١،١٩٨٩ ، ٢٧٦/٣

طبيعة الحرب الدائرة بين المؤمنين والمنافقين، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (التوبة:٧٤).

هذه الحرب أوضح ما تكون في هذا القرن، قرن التقدم والمدنية والحضارة والحرية التي تتبجح بها أمريكيا والدول الغربية، وتزعم أنها تدافع عنها وتريد نشرها ، فإذا ما تعلق الأمر بالمسلمين والمؤمنين، فتحت لهم السجون الخاصة، ذات القوانين الخاصة، وكانت المذابح الجماعية في أفغانستان والعراق و بورما والصومال و البوسنة ... وهذا يؤكد على أن طبيعة تلك الحروب عقائدية بالدرجة الأولى، وصدق الله عندما حذرنا منهم فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة) .

الفصل الثالث

القيم الحضارية في واقعنا المعاصر

لا يتسع المجال في هذا الفصل لاستعراض تفاصيل وجزئيات القيم الحضارية في مجتمعات المسلمين وغيرهم ، فقد كتب في هذا الكثير من المصنفات وشملت كل الميادين الحضارية، ولكني أريد أن أقف وقفة قصيرة عند أبرز المعطيات الحضارية – المعنوية والمادية – لنقارن بين الملامح الأساسية في مجتمعات المسلمين وغير المسلمين في واقعنا المعاصر وبين تلك الملامح التي تناولناها من خلال القصة القرآنية، لنضع أيدينا على العوامل المشتركة بين تلك الحضارات من جهة، وسبب تراجع الفعل الحضاري للمجتمعات المسلمة من جهة أخرى

<u>المبحث الأول</u>.

القيم الحضارية في مجتمعات غير المسلمين

أولا : الواقع الثقافي " الديني ".

لكل حضارة جاهلية ملامح خاصة تميزها عن غيرها، وإن كانت كلها تشترك بالكفر بالله تعالى و الشرك به، ومن هذا الكفر والجحود للخالق جل وعلا يظهر الخلل والفساد في النظم والأفكار وعلاقة الإنسان بالكون والحياة وفي كل القيم الاجتماعية والاقتصادية و السياسية.

فحضارة عاد تميزت بالقوة والتكبر، وقوم لوط بالانحراف الجنسي، وتميزت مدين بالفساد الاقتصادي، والفراعنة بالظلم والطغيان والاستبداد السياسي ، وحضارة الهند بالنظام الطبقي البغيض، والحضارة اليونانية تميزت بعبادة العقل وظهور الفلسفة والإيمان بالمحسوسات ،أما حضارة الرومان فامتازت بالقوة والإسراف في الملذات، وكانت الحضارة الرومانية تشترك مع حضارة اليونان بتقديس المحسوس، والشك في الدين، حيث كان النظام الوثني الخرافي قائما على الأساطير وتعدد الآلهة، وكانوا

كلما تقدموا علميا ازدادوا استخفافا بالدين، يقول الراهب أغسطين:"إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بهم في دور التمثيل"[1].

وبعد اعتناق قسطنطين النصرانية ٣٠٦م، فرض المسيحية فرضا على الإمبراطورية الرومانية، ولكنه مزج كثيرا من المفاهيم الوثنية بالعقيدة الجديدة، تأليفا لقلوب الوثنيين وأملا في دخولهم الدين الجديد، فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية أن تغير من واقع الإمبراطورية الرومانية، بل تطرفت في نبذ الدنيا والابتعاد عن الشهوات، فجاءت النصرانية الجديدة بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية فضلا عن ثقافة الشعوب اليونانية والرومانية المفرطة في الشهوات، من ثم لم تستطع أن تصلح واقع الناس في شتى الميادين، ولم يكن لها سلطان على حياة الناس في الحواضر والمدن الأوروبية لهذا اعتزلت في الأديرة ولم تتجاوز جدار الكنائس.

ولأن تلك العقيدة محرفة بالمقام الأول، ومخالفة للفطرة الإنسانية ظهر الفساد أول ما ظهر بين الرهبان والباباوات فارتكبت الكبائر والمنكرات، يصف الراهب جروم ذلك الفساد بقوله: "لقد انحطت أخلاق الباباوات انحطاطا عظيما وسيطر عليهم الجشع وحب المال حتى كانوا يبيعون المناصب والصكوك وتذاكر الغفران، وأحلوا المحرمات والمحظورات وبذروا المال تبذيرا حتى اضطر البابا أنوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية ".

ومن جناياتهم التي كان لها أكبر الأثر في جنوح أوروبا إلى الإلحاد، أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ونظريات في التاريخ الجغرافيا والعلوم الطبيعية، وصبغوها صبغة دينية واعتبروها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها واعتبار كل ما يخالفها من قبيل الكفر والهرطقة، إلى أن جاء العصر الذي احتكت به الشعوب الأوروبية بالعقلية الإسلامية في الأندلس وتلاقح فكرهم بفكر علماء المسلمين وأشرقت شمس المعرفة على القارة الأوروبية، فحطم علماء الطبيعة

[1] الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار ابن كثير ط١٩٩٩،٦٦م،ص ١٩٨.

والعلوم سلاسل التقليد الديني وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية ، فقامت قيامة الكنيسة وظهرت محاكم التفتيش لتحاكم – من وجهة نظرها – أولئك الملحدين والزنادقة، فعاقبتهم أشد عقوبة وأحرقت ما يزيد عن ثلاثين ألف عالم أحياء منهم برونوا وغاليليو لأنه أثبت دوران الأرض حول الشمس.

ولكن الكنيسة لم تستطع مقاومة ذلك الطوفان من الثائرين والمجددين وأعلنت الحرب بين دعاة العلم والعقلانية من جهة، وزعماء الدين المسيحي من جهة أخرى، وكان من نتائج هذه الحرب أن الدين والعلم عدوان لا يتصالحان، وأن النصر في النهاية كان حليف العلم وثورة التجديد، وظهر اتجاه قوي إلى المادية بكل معانيها لتصبح عقيدة في ميادين الأخلاق والأدب الاجتماع والسياسة والاقتصاد، فأصبح يفسر كل شيء تفسيرا طبيعيا ميكانيكيا بحتا، وأصبح الاعتقاد بوجود آلهة لا يقوم على أساس علمي ، فجحد كل شيء لا يثبت بالتجربة ولا يخضع للبرهان.

وأصبح من يفكرون تفكيرا دينيا شواذ في تلك المجتمعات، خصوصا بعد الثورة الصناعية، ونهض الكتاب المفكرون والأدباء والفلاسفة في كل نواحي أوروبا يبشرون بالدين الجديد، وأخذوا يفسرون الأخلاق والقيم تفسيرا ماديا ويضعون لعلم الاقتصاد والاجتماع نظريات لا ترتبط بعالم ما وراء الطبيعة ،فظهرت فلسفة الحتميات الاجتماعية والاقتصادية و السياسية ،يقول ماركس :"في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس، تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهي مستقلة عن إرادتهم، فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد أسلوب العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة "[1].

وفي القرن التاسع عشر"١٨٥٩" ظهرت نظرية داروين في النشوء والارتقاء وأن الإنسان حيوان راقي ، ورحلة الترقي هذه استغرقت ألوفا من السنوات وقد انتقل خلالها الإنسان من طور الأميبيا إلى طور القردة ومن القردة إلى طور الإنسان، يقول داروين:" إن الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها، بما في

---

[1] قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين ،دار الشرق، ١٩٨٣،ص٦٤

ذلك نشأة الإنسان وتطوره"، وأصبحت هذه النظرية حديث المفكرين والعلماء وحديث الناس في النوادي والمدارس وشغلهم الشاغل، وكان تأثيرها عميقا في كل نواحي الحضارة الأوروبية الحديثة، في الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

وبعد أن أصبح الإنسان حيوانا في نظر الداروينية، مسخت حياته مسخا، وزاد في ذلك المسخ تلك الفلسفات التي تفسر التاريخ تفسيرا ماديا تارة ، وتفسر السلوك تفسيرا جنسيا تارة أخرى، فالتفسير المادي للتاريخ الذي قال به ماركس، يفسر الحياة الإنسانية من خلال حيوانية الإنسان، ومن ثم كانت القيم عرض زائل لا جوهر له وهي متطورة لا تثبت على حال ، فالتدين فضيلة في الطور الإقطاعي، وجمود ورجعية في الطور الصناعي، والعفة فضيلة في المجتمع الإقطاعي، وأضحوكة وسخرية في المجتمع الصناعي.

ثم جاء فرويد بتفسيره الجنسي للسلوك ، والذي يجعل كل تصرفات الإنسان نابعة من طاقة واحدة هي طاقة الجنس، فالإنسان يرضع بلذة الجنس، والطفل يمص إبهامه بلذة الجنس، والبنت تميل لأبيها أكثر من أمها بلذة الجنس ، والولد يميل لأمه بسبب تلك اللذة ![1]

لقد كان من نتائج هذه المادية الجارفة والتربية اللادينية التي ليس فيها نصيب من الأخلاق أو رصيد من القيم، ظهور جيل من رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، لا يتورعون من ارتكاب أفظع الجرائم لمصلحة سياسة أو فكرة قومية، لقد قام هتلر الذي اعتقد أن الجنس الآري أرقى الأجناس البشرية، بإبادة خمسين مليون نسمة في القارة الأوروبية وتشريد أكثر من هذا العدد بكثير.

ولا يختلف الأمر كثيرا في الطرف الآخر من العالم، فالشرق الأقصى كالصين واليابان وشبه القارة الهندية كانت تسودها الديانات الوثنية، فالتاريخ الصيني عرف بظهور خمسة أباطرة أسطوريين، اعتبرهم

---

[1] انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة – الندوة العالمية للشباب - ص ٦٠٥/٦١٥/٧٤٨/٧٩٦/٨٢٣/٨٧٤/٩٥٣/

الصينيون أنصاف آلهة وعبدوهم، حتى أن كونفوشيوس اعتبرهم أبطال عصور الماضي المجيد ، وكان أفراد العائلات الأرستقراطية يعتبرون أربابا ويستمدون سلطانهم من قدرة أرواح أجدادهم في السماء، ومن الطبيعي أن يستحيل على أي فرد من الجماهير التي لا تنتمي لهذه الطبقة أن يصل إلى مركز مرموق ،وكانت تلك الأسر تحكم البلاد وفق مبدأ القضاء والقدر أو ما يطلق عليه "قانون السماء"، فكانت فكرة تمجيد العائلة سمة بارزة سادت في الحضارة الصينية منذ بدايتها، فكان الأرستقراطيون هم أصحاب السيطرة السياسة، وهم في الوقت نفسه ملاك الثروة المادية، وبقية أفراد الشعب كانوا مجرد أرقاء زراعيين في حوزة سادتهم.

وقد عرف الصينيون الفلسفة الإنسانية ومن اشهر فلاسفتهم وأعمقهم أثرا في تاريخ الصين "كونفوشيوس" الذي قرأ التاريخ وحفظ الشعر وظل يتنقل في أنحاء الصين يبث تعاليمه بين النشء، وكانت تعاليمه ترتكز في معظمها على الأخلاق التي شكلت حجر الزاوية في كل أبحاثه الدينية والفلسفية، وكان من فلسفته أن الشعب مصدر السلطات، وان المجتمع يجب أن يقوم على أساس الطاعة، وانتشرت تعاليمه في أنحاء الصين عن طريق تلاميذه ومريديه، وظل أثر تلك التعاليم مهيمنا على حياة الصينيين فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء الاستعمار وتهافتت الدول الاستعمارية على خيرات البلاد في القرن التاسع عشر[1].

ومن أهم ما قامت به الدول الاستعمارية وكان له أكبر الأثر في تغيير الثقافة الصينية ، تلك البعثات الدراسية للطلبة الصينيين إلى الجامعات الأجنبية، وكان يشترط في إيفاد هؤلاء الطلبة أن يكونوا من صغار السن ليسهل التأثير عليهم وتوجيههم الوجهة التي يريدونها، فكان أثر الثقافات الغربية كبيرا

[1] أباظة، فاروق عثمان، تاريخ الشرق الأقصى، دار المعرفة ، ١٩٩٦م،ص ١٩-٥٣

على نفوس هؤلاء الذين تكاتفت جهودهم مع جهود البعثات التبشيرية على هدم المعتقدات الدينية والثقافة الصينية القديمة[1].

وكان لهؤلاء المثقفين الجدد دور بارز فيما بعد بالقيام بمظاهرات احتجاج على ما نالهم من ظلم على أيدي المستعمرين الذين نهبوا ثروات البلاد، وشجعهم على ذلك نجاح الثورة في روسيا البلد المجاور لهم على الاستبداد ونظام الإقطاع، حيث نظر الشعب الصيني إلى الثورة الروسية بكثير من الإعجاب ووجد في المبادئ الروسية الجديدة الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الاستبداد الداخلي والرأسمالية الغربية، ومن هذا الطريق أخذت المبادئ الماركسية تجد طريقها إلى الصين، فبدأت الجمعيات الشيوعية تتكون في مختلف مدن الصين ، إلى أن استولت الثورة الاشتراكية على مقاليد الحكم في الصين المعاصرة.

إن هذه الفلسفات الجديدة في تصور حقيقة الكون والحياة والتي أخذت مكان المعتقدات القديمة، لابد أن يُتبعا انحرافا في كل تصورات الإنسان وسلوكه، وحضارة الغرب والشرق الحديثة تميزت إلى جانب تلك الفلسفات بثورة العلم والمعرفة فانعكست هذه العقيدة الجديدة على قيم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وكل ميادين الحياة.

ثانيا : الواقع الاجتماعي .

يعتبر الانقلاب الصناعي نقطة تحول كبيرة في تغير صورة المجتمعات المعاصرة، وعاملا مهما من عوامل ظهور فردية الإنسان وحماية حقوقه الشخصية باعتبار الحرية الفردية قيمة مطلقة، وكان من أهم تلك الحريات حرية الفكر: فللإنسان مطلق الحرية في صياغة أفكاره وعقائده وأخلاقه كيفما يشاء، وليس للمجتمع أن يحرمه هذا الحق، كما ظهرت الحرية الشخصية، والتي تعني حرية الإنسان في سلوكه

[1] أباظة، فاروق عثمان، تاريخ الشرق الأقصى، دار المعرفة ، ١٩٩٦م ص ٧٢

الخاص ومنع كل ما من شأنه أن يعيق ذلك، فله أن يفعل بنفسه وجسمه ما يشاء ... وأن يتبع أو يرفض ما يشاء من عادات فهذا أمر يخصه وحده [1]، و بدأت هذه الحقوق تظهر في المجتمع الصناعي، بدلا من الروابط والتقاليد التي كانت تحكمه في المجتمع الريفي.

كذلك المرأة أخذت تشعر بفرديتها المطلقة بعدما كانت في المجتمع الريفي مجرد تابع للرجل فلا كيان لها ولا استقلال لشخصيتها، فهي لا تفكر في أمورها بفكرها وإنما بفكر الرجل سواء أكان الأب أم الأخ أم الزوج، فالرجل هو الذي يملك ويتصرف، وهي تعيش في تقاليد معينة وتتشرب هذه التقاليد بلا وعي وتعيشها راضية أو ساخطة على أنها قدر لازم.

فلما انتقلت إلى المدينة وعملت في المصانع وامتلكت المال وتعاملت مباشرة مع المجتمع ومع الرجل، لم تعد ذلك التابع الذي لا كيان له، بل تحررت من كل القيود التي فرضها عليها الرجل وأصبحت ندا له تطالبه بالمساواة في كل شيء باعتبارها كيانا مستقلا .

وهكذا أصبح سكان المدن يتحللون من الدين والأخلاق والتقاليد متأثرين بالفلسفات الداروينية التي ترى في الإنسان حيوان راقي، والتفسير الجنسي للسلوك ، وتفسير كل من ماركس وفرويد ودوركايم للأخلاق على أنها قيد لا معنى له، فأخذ كل من الرجل والمرأة يحطم الدين والأخلاق والتقاليد لأنها استخدمت ضد حريته المطلقة!

وشيئا فشيئا تحطمت روابط الأسرة التي يعمل فيها الرجل والمرأة ، ففقدت رباطها العاطفي والوجداني، وأصبح البيت كالفندق الذي يعيش فيه الرجل والمرأة يؤديان وظيفة الأبوة والأمومة كأي وظيفة بمشاعر باردة، وحلت الخادمة أو الحاضنة مكان الآباء والأمهات، وكانت النتيجة الطبيعية ضياع الأولاد وانحرافهم، وازدياد نسبة الطلاق في المجتمع.

[1] عطيات – أحمد عيد –الطريق ،دراسة فكرية في كيفية العمل لتغيير واقع الأمة وانهاضها-١٩٨٧ ص٧٥

إن المجتمع الذي حرر المرأة، أفقدها الشعور بالعاطفة نحو الأسرة ، وأصبحت بما ألقي عليها من متاعب العمل صورة مشوهة للرجل، دون أن تبقى امرأة، وهكذا حرم المجتمع من هذا العنصر الهام في بناء الأسرة، وهو العنصر الأساسي فيها، وجنت أوروبا ومن سار على دربها ثمار هذه الأسرة المنحلة مشكلات من نوع جديد.[1]

وبدأ المفكرون والفلاسفة يدقون ناقوس الخطر ، يقول المفكر أليكس كارل: " لقد ارتكب المجتمع غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما ، وتترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مباذلهن أو ارتياد دور السينما، إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم أمورا كثيرة .."[2].

لكن تيار المدنية الجارف لم يكن ليتوقف، وأخذت الرأسمالية النامية تجتاح الميدان، وهي تقوم على حرية الفرد في أن يملك بكل وسائل الملك، ودافع الرأسماليون دفاعا عنيفا عن حرية الفرد، وكان شعارهم الذي رفعوه " دعه يعمل دعه يمر "، وكان كل هم الرأسمالية الجديدة استخلاص أكبر قدر من الربح عن طريق أن تعمل ما تشاء دون حواجز ، حتى لو كان ذلك على حساب الدين والأخلاق والقيم وإثارة الشهوات للحصول على الأرباح .

وهكذا أنشأت الرأسمالية فلسفة كاملة ذات مدارس وأساتذة ومفكرين وصحفيين وإعلام، تدعوا إلى التحرر المطلق وتحطم كل قيد يقف أمامها، وتسعى إلى استعباد هؤلاء الأفراد الذين لا يجمع بينهم رابط إنساني أو أخلاقي أو ديني.

وبعد أن كانت الأخلاق مستمدة من تعاليم الدين المسيحي – على ما فيه من انحراف – بدأت تستمد قيمها من نظريات علمية تقوم على التفسير الحيواني للإنسان والتفسير الجنسي للسلوك ، وأخذ

[1] بن نبي، مالك - مشكلات الحضارة – شروط النهضة – ترجمة عمر مسقاوي ،دمشق – دار الفكر- ط٢٠٠٦/٦ ص١٢٨
[2] أليكس كايل - الإنسان ذلك المجهول – تعريب شفيق أسعد- مكتبة المعارف بيروت ط٢٠٠٣/١ص ٣١٨

الناس يغرقون في حمأة السعار الجنسي المجنون باعتباره عملية بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالأخلاق ،أما الصدق والأمانة والاستقامة والوفاء وبقية الأخلاق فصارت الغاية منها النفعية والأنانية، لا تقوم على أساس إنساني، فالمواثيق تعقد وتوثق، وفي لحظة غادرة تصبح حبرا على ورق، والتجارة الدولية تتصف بالأمانة والوفاء بالعهد لأن الغش يفقد السوق ويفقد الأرباح، وكل تلك الأخلاق قائمة على الفلسفة النفعية، وحين يصبح الصدق بلا مكسب والأمانة خسارة فما قيمة تلك الأخلاق؟ وما الدافع إليها!

على أن ما يميز الواقع الاجتماعي المعاصر ذلك السعار الجنسي المحموم والذي أسهم في انتشاره عوامل عدة منها: الفساد المروع الذي حدث داخل الأديرة بين الرهبان والراهبات بسبب مخالفتهم للفطرة الإنسانية: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(الحديد:٢٧)، فكانت إحدى الصدمات التي خلخلت القيم الرهبانية وصرفت الناس عن الترفع فانحدروا يبحثون عن الشهوات.

والتفسير الحيواني للإنسان الذي وسعه فرويد بالتفسير الجنسي للسلوك، والانقلاب الصناعي وما أحدثه من تفكيك للأسرة، وتشغيل المرأة على نطاق واسع وما رافقه من اختلاط وتبذل لضمان لقمة العيش، ثم راحت السينما تزيد كل أنواع التحلل الجنسي ناهيك عن دور الأزياء والموضة[1].

إن تلك الحياة الفاجرة التي تعيشها المجتمعات المعاصرة مليئة بالمثيرات الجنسية والتي تدفع بالمراهقين إلى ممارسة الرذيلة بلا ضوابط، لدرجة تخرج الأمور عن الفطرة الطبيعية وتؤدي إلى الشذوذ الجنسي الآخذ في الازدياد، والذي أقرته تلك المجتمعات باعتباره أمرا واقعا.

---

[1] قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين ،دار الشرق، ١٩٨٣ص١٧٢

ثالثا : الواقع الاقتصادي .

يقوم النظام الاقتصادي لأغلب الدول في وقتنا الحاضر على تبني النظام الرأسمالي، ويقوم هذا النظام في قواعده الأساسية على مجموعة من الأركان ، المصلحة الفردية باعتبارها الهدف الأول، والتنافس كوسيلة، والحرية المطلقة كشرط لبلوغ الهدف باعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن أسس هذه الحرية الفردية والتي تنص على حرية الفرد في أن يمتلك ما يشاء بالمقدار الذي يشاء والكيفية التي يشاء ، مما يوجب على الدولة أن تفتتح للأفراد كل الميادين في المجال الاقتصادي ليتمكنوا من التملك ، سواء على مستوى الاستهلاك أو الإنتاج وذلك على ضوء المصالح الشخصية [١].

، ونتج عن تلك الأركان قيام النظام الرأسمالي على الربا للحصول على الربح الثابت من أسهل الطرق حتى لو كان على حساب المقترض الذي يبذل الجهد في العمل والإنتاج، وهذا بدوره أدى إلى تضخم رأس المال بصورة كبيرة وأصبح أقدر على الربح من رؤوس الأموال الصغيرة أو الناشئة ، وبما أن الهدف الأول من الاقتصاد يتمثل في المصلحة الشخصية للأفراد والشركات ، ظهر ما يعرف بالتكتلات والاتحادات المالية للاستحواذ على السوق ، وكان من أول نتائج هذه التكتلات ظهور الاحتكارات الصناعية والتجارية، فمن العسير على رأس المال الصغير أن ينافس تلك الصناعات العملاقة في ميدانها[٢].

وأدى تكدس إنتاج هذه المصانع العملاقة إلى وجود مشكلة في التسويق، وكان لابد من تسويق فائض الإنتاج ، فسعت الدول الرأسمالية إلى سياسة الاستعمار باعتبار أن السياسة والاقتصاد في واقع الأمر يكمل كل منهما الأخر، وهما معا نتاج الواقع الثقافي والفكري لتلك المجتمعات ، وكان هذا التوسع

[1] عطيات – أحمد عيد –الطريق ،دراسة فكرية في كيفية العمل لتغيير واقع الأمة وانهاضها-١٩٨٧ ص٧٥

[2] قطب، محمد، الاقتصاد الإسلامي بين الرأسمالية والشيوعية، دار الوفاء، ط١، ١٩٨٥ ،بتصرف واختصار.

لضمان المواد الأولية بالمقام الأول، وضمان الأسواق لفائض الإنتاج، ومنع المنافسين على مستوى الدول الأخرى من تلك الأسواق.

وكان لسياسات النظام الرأسمالي واعتباره الاقتصاد والمال هما المحور الذي تدور عليه حياة الإنسان، أن أحدثت اختلالات ضخمة في حياة الإنسان ليس أقلها ضياع القيم الإنسانية وتحويل الإنسان إلى آلة منتجة تقوّم على مقدار إنتاجها في عالم المادة ، ولا تقوّم بالمقاييس الإنسانية.

يقول ألبرت اشفيتسر : " إن المجتمع الاقتصادية ونظام المصانع والوظائف يخلق باستمرار تجمعات سكانية متزايدة تنفصل عن الأرض، وتظل تعمل لمصلحة مجموعة من الناس لا لمصلحة الجماعة الكلية التي تكون بها الحضارة، ثم يؤدي ذلك إلى الإرهاق وإزهاق الوقت في العمل مما يؤثر على حياة الفرد والمجتمع ككل، ويبدأ الفرد بالبحث عن المرفهات الخارجية، فينتقل إلى وضع فكري وروحي أسوأ، وتدخل بذلك السطحية إلى المجتمع، ويقل التفكير، وتصبح العقول بلا تركيز، وهذا بلا شك يناقض تماما قيام حضارة حقيقية" [1].

ومن أهم عيوب النظام الرأسمالي، عدم وجود آلية تراقب المؤسسات الاقتصادية ورؤوس الأموال، بل إن الديون التي تتحملها الدولة كما في الولايات المتحدة معظمها ديون لجهات داخلية ، ومع تراكم الديون تصبح الدولة في خدمة تلك الجهات التي تتحكم من خلال ثرواتها بالعملية السياسية القائمة على الانتخابات والمجالس النيابية التي تسن القوانين لخدمة رأس المال ، وشيئا فشيئا تتحول الدولة من دولة تخدم المجتمع إلى دولة تخدم رأس المال، بدليل أن المؤسسات العاملة في مجالات العدالة الإنسانية تعاني دائما من أزمات مادية حادة[2].

---

[1] ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس بيروت، ١٩٩٧ص٢٠-٢٣

[2] زيدان، إبراهيم، الإسلام والرأسمالية وصراع الحضارات، عمان، دار الفرقان ، ط١/٢٠٠٦– ص١١-٤٥بتصرف واختصار

وكان رد الفعل العنيف على النظم الرأسمالية ظهور ما يعرف بالنظم الاشتراكية والنظم الشيوعية التي تقوم على نزع الملكية الفردية كليا أو جزئيا، وتعطي للدولة حق التملك وإدارة هذه الملكية الضخمة، والتي تحولت في نهاية المطاف ليد الفئة الحاكمة في تلك الأنظمة ، فكان وبالها على الإنسان أضعاف وبال الرأسمالية، ولكن انهيار هذه الأنظمة كان سريعا، لأنها تصادم بالمقام الأول الفطرة التي أودعها الله بالإنسان في حبه للتملك ، فتوقفت الحياة الاقتصادية، وكان من نتائجه تردي نوعية الإنتاج في المصانع ، وقلة الإنتاج الزراعي، ومن ثم انهار هذا النظام الذي لم يراعي حتى الفروق الفردية بين العاملين[١].

رابعا : الواقع السياسي .

بعد انهيار نظام الإقطاع حدثت تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية عميقة ، حيث ظهرت فكرة الحريات، وعلى رأسها الحرية السياسية (حرية الرأي)، وهي التي تجعل لكل إنسان الحق في إبداء رأيه والمشاركة في تقرير الحياة العامة للأمة ووضع خططها وتعيين السلطات فيها [٢]،

وجاءت البرلمانات تمثلها إرادة الشعب وتحكم بإرادة الشعب، و المتمعن بتلك الأنظمة السياسة – وإن كانت السياسة لا توجد منفصلة عن الاقتصاد والاجتماع والثقافة فكلها مزيج متشابك – يجد أن الديمقراطية أو ما يسمى بإرادة الشعب كانت الوجه المزيف للواقع المرير الذي تعيشه تلك المجتمعات، وتكتوي به الدول المستعمَرة على صورة حروب لنهب خيراتها.

إن واقع الحال في تلك المجتمعات أن الطبقة التي تملك هي الطبقة التي تحكم، فمن وراء الانتخابات والبرلمانات والحكومات يحكم رجال رأس المال، من خلال استغلال سلطة الحكم لتنفيذ مآربهم الخاصة على حساب العاملين من أفراد الشعب ، وتتحول الديمقراطية إلى إرهاب ضد المطالبين

---

[1] قطب، محمد، الاقتصاد الإسلامي بين الرأسمالية والشيوعية، دار الوفاء، ط١، ١٩٨٥،ص١٠

[2] عطيات – أحمد عيد –الطريق ،دراسة فكرية في كيفية العمل لتغيير واقع الأمة وانهاضها-١٩٨٧ ص٧٥

بالحرية الحقيقية والعدالة الحقيقية ، يقول هارولد لاسكى:" إن الاتحادات الصناعية الكبرى تملك جيوشها الخاصة المسلحة بالبنادق والقنابل المسيلة للدموع لتمنع النقابيين من غزو مصانعها..وكان هناك مناطق في الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن لدستور الحقوق الأمريكي أية سلطة إزاء إصرار رجال الأعمال على جمع كل الامتيازات بواسطة حيازتهم المطلقة لقوى الاقتصاد"[1].

في المقابل فإن الواقع السياسي للدول التي لا زالت تخضع للأنظمة الاشتراكية مثل كوريا الشمالية والصين التي يحكمها الحزب الشيوعي واقع مرير، لقد وصلت السياسات الدكتاتورية في عنفها وقساوتها ووحشيتها إلى أقصى ما يصل إليه خيال الإنسان، فالاعتقال والتعذيب والمحاكمات الصورية والحكم البوليسي الذي يقوم على الجاسوسية هي السمات التي تطبع سياسة تلك البلاد.

إن الشيوعية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية و الرأسمالية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية، لأن الطبقة الحاكمة في تلك الأنظمة لا يمكن أن تتيح الفرصة للمنافسين بالاستيلاء على نفوذها، فدكتاتورية رأس المال وإن لبست لباس الديمقراطية إلا أن واقعها يؤكد على أن السلطات تتركز في يد فئة قليلة من الناس – يعدون أحيانا على الأصابع – تقوم بالتشريع الذي يكفل صيانة مصالحها، من خلال السيطرة على القوة التنفيذية بالدولة وتتمتع بالمال والسلطة الترف ، وتلقي للناس الفتات تحت شعار الحريات، هذه الحريات التي لا تتعدى التحلل الأخلاقي والتحلل الجنسي والتحلل الديني، ثم تقوم وسائل الإعلام التابعة لهذه الفئة بتسليط الضوء على هذا الفتات وتخفي الجرائم التي ترتكب باسم الديمقراطية.

وعلى صعيد السياسات الخارجية، فإن الاستعمار ونهب ثروات الشعوب هو ما يميز سياسات الدول المتقدمة ، ومن لم يقرأ تاريخ الاستعمار يستطيع أن يشاهد ويحلل بالصوت والصورة الفظائع التي

[1] تأملات في ثورات العصر – هارولد لاسكي –ترجمة عبد الكريم أحمد ص١٨٤/ نقلا عن: قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين ،دار الشرق، ١٩٨٣،ص ١٠٦

ترتكبها الدول الاستعمارية من أجل البترول والثروات والأسواق ، تلك السياسات الموجهة لدول العالم الثالث على وجه العموم ، ولدول العالم الإسلامي على وجه الخصوص.

مبحث الثاني

القيم الحضارية في المجتمعات الإسلامية

أولا : الواقع الثقافي " الديني "

يعتبر التوحيد أبرز ما يميز المجتمعات الإيمانية عبر تاريخها الممتد من آدم عليه السلام وانتهاء برسالة خاتم الأنبياء محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، والتوحيد في حالة نقائه ووقوعه في القلوب الموقع الصحيح يفعل المعجزات، لأنه يمثل بالنسبة للمسلم الدافع والهدف في الوقت عينه، ومن ثم فإن الحضارة الإسلامية طالما تمسكت بالدين بصورته الصحيحة، فإنها ستظل قوية مسيطرة، لا تستطيع أي حضارة أخرى أن تزاحمها أو تؤثر فيها،[1] وإن أي ضعف يصيب التوحيد على نطاق الفرد والأمة سيؤدي حتما إلى تراجع الدور الحضاري للمسلمين بقدر ذلك الضعف، والواقع المؤلم يؤكد أن التوحيد في المجتمعات المسلمة قد أصابه خلل كبير وحل مكانه صنوف من الشرك والوثنية والتصورات والأفكار المنحرفة التي لا تنتمي لهذا الدين بأي وجه من الوجوه ، خصوصا بين الشباب الذي يمثل ولا شك أهم فئة للأمة الإسلامية.

كان من أهم مظاهر الخلل التي أصابت التوحيد – عصب الحضارة الإيمانية – ذلك التمزق المذهبي وما نتج عنه من صراع على مستوى العقيدة والشريعة والسلوك والسياسات التي تنتهجها الدول وفقا لمذهبها الاعتقادي، ولا يخفى ما لهذا العامل من أثر على تراجع الأمة أمام الحضارات التي أخذت تتجه للاتحاد والتلاحم بعد صراع مرير كان نتيجته حروب عالمية.

[1] المودودي- نحن والحضارة الغربية – ١٩٧٩ص ٤٥

ومن الأمراض الفكرية والثقافية التي أصابت الأمة، انتشار الغلو والتشدد بدلا من قيم المرونة والتسامح، وما نتج عن ذلك من استنزاف فكري شديد لعقول العلماء والمفكرين، في الوقت الذي كان يجب أن تتجه فيه هذه الطاقات إلى البناء والتقدم في الميادين كافة.

وتمخض عن تلك المظاهر بروز شريحة من المسلمين تنتهج الرؤية الإرجائية في واقع حياتها، متجاهلة المضمون الحقيقي للتوحيد باعتباره إيمان وعمل، فراحت تعزل العمل عن الإيمان وتكتفي بالحد الأدنى من حقائق الدين، فما دام الإنسان مؤمنا بالله واليوم الأخر والله متصف بالرحمة والمغفرة فهذا كفيل بدخول الجنة والنجاة من النار، فطغت على الساحة مظاهر الصوفية المنحرفة واختار أصحابها الانسحاب من ميدان العمل، ويستبدلوا الجهاد والإعمار بالرقصات والخوارق والكرامات"[١]، ليتركوا المجال لأعدائهم كي يتقدموا عليهم في كافة الميادين الفكرية والمادية.

وبعد هذا الضعف الذي أصاب العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها، كان من السهل أن تكون الأمة فريسة سهلة للغزو الفكري والثقافي الموجه من قبل أعدائها، من خلال كافة الوسائل المتاحة وعلى رأسها الإعلام، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تسرب ثقافات الحضارات القوية ، وتأثيرها على الأمم الضعيفة يعتمد كثيرا على وسائل الإعلام، بحيث تتحول الأفكار المنقولة إلى سلوكيات في المجتمعات الضعيفة.[٢]

ثانيا : الواقع الاجتماعي.

يرتبط واقع الأمة الاجتماعي بما أصابها من خلل في قيمها الاعتقادية والثقافية والسياسية باعتبارها كلا متداخلا لا يمكن فصل بعضه عن بعض، وأول ما أصاب المجتمعات المسلمة غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يمثل صمام الأمان للمجتمع من خلال توسيع دائرة المعروف

[1] الموسوعة الميسرة ج١/ص٢٤٧

[2] سفر، محمود محمد، دراسة في البناء الحضاري، المحاكم الشرعية بدولة قطر، ط١/١٤٠٩ه ص٣٠-٣١

وتضييق دائرة المنكر، فمع مرور الوقت كفت القيادات عن متابعة هذه القيمة وتركته لأبناء الأمة وجهودهم الفردية، فكان من الطبيعي أن ينكمش الأمر بالمعروف ويحل مكانه انتشار للمنكرات التي كالزنى والخمر والفجور والانغماس في الملذات، والجاهرة بالمعاصي، وتداعي منظومة القيم السلوكية فظهر الغش والكذب وتقديم المنفعة الشخصية وتضاؤل الإحساس بالمسؤولية ناهيك عن الكذب والنفاق الاجتماعي وشهادة الزور...إلخ.[١]

ومما لا شك فيه أن تفوق الحضارة الغربية، يعود في جزء منه إلى ممارسة الكثير من القيم الأخلاقية وإن كان الدافع من ورائها دافعا نفعيا، كالصدق والأمانة وتحمل المسؤولية والإخلاص والصبر والتضحية، وهي نفس القيم التي دعا إليها الإسلام مع ميزة صبغها بالطابع الإيماني الاعتقادي.

وكان للظلم الاجتماعي أثر واضح في تأخر الحضارة الإسلامية من خلال التقسيم الطبقي بناء على تفاوت الأرزاق والمكانة الاجتماعية ، وفرض الضرائب على الطبقات الكادحة والتهاون مع الطبقات المتنفذة والغنية ، فظهر الفقر بين شرائح في المجتمع، وفي المقابل أطل الترف بألوانه المختلفة بين الطبقات الاجتماعية، بل على مستوى الدول الإسلامية، فبينما تهدر الأموال في الدول الغنية على التطاول في البنيان والبذخ في المسكن والملبس وحفلات الزواج، تعيش دول إسلامية أخرى مجاعات تحصد أرواح أبنائها من شدة الجوع ونقص الغذاء.

وهكذا غاب مفهوم المجتمع المبني على قاعدة التكافل الاجتماعي ويستبدل هذا المفهوم بالوطنية الضيقة على مستوى الدول، وبمفهوم العرقية والقبلية بين أبناء الوطن الواحد، وما من ريب أن هذا الصراع الطبقي استنزف من الأمة الشيء الكثير، ومزق طاقات المسلمين وبعثرها، وأثر على جهدها الحضاري، فظهرت نتيجة لذلك الأمراض الاجتماعية كالحقد والكره والحسد والضغينة.

---

[1] المودودي، أبو الأعلى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار ابن كثير ط١٩٩٩،٦٦م، ص١٦٨-١٦٩ بتصرف

ثالثا : الواقع الاقتصادي :

كان من نتائج الاستعمار الأجنبي على العالم الإسلامي أن قُسمت الأمة إلى دول صغيرة تتبنى في سياساتها الاقتصادية ما تمليه عليها الدول المستعمرة، فوضع الرجل غير المناسب للأمة في المكان المناسب للمستَعمِر، وأبعدت العناصر الكفؤة عن القيادة، وتسلم الذين أرسلتهم الدول الاستعمارية للدراسة في المعاهد والجامعات الأوروبية مهمة التخطيط والإدارة للأمة ، وشيئا فشيئا تسللت الأفكار والسياسات المالية والمؤسسات الربوية لتحل محل التشريعات الإسلامية في التعاملات المالية.

إلا أن الاقتصادي الإسلامي له فرصة قوية إذا – توفرت له الظروف المناسبة– ليأخذ مكانه في الاقتصاد العالمي المعاصر، لأن هذا الفكر الاقتصادي يحمل في طياته جميع الحلول للمشكلات التي أوجدها النظام الرأسمالي ، فمصدره من خالق الإنسان وهو موجه لسعادة الإنسان .

إن النظام الاقتصادي الإسلامي يمتاز بأنه جعل من أركانه العامل الأخلاقي، فهو يعترف بمصلحة المجتمع كضابط عام فيحد من حرية الفرد في تصرفه الاقتصادي من خلال مظهرين:

الأول: محاربة الاقتصاد الإسلامي لمبدأ تكديس الثروة في يد فئة قليلة { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }(التوبة:٣٤)،

إن تداول المال وعدم تكديسه واجب في الإسلام، من هنا يرى الإسلام أن المشكلة الاقتصادية تكمن في اختلاف التوزيع وليست مشكلة إنتاج أو توزيع ثروة، من هنا حث الإسلام على مساعدة الفقراء ليتمكنوا من إشباع حاجاتهم الأساسية، وأوجب على الدولة ذلك أيضا .[١]

ويعتبر نظام الإرث من أهم الوسائل لتحقيق ذلك من خلال توزيع الميراث توزيعا واسعا، وقد نص الدستور القرآني على ذلك :{ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ } (الحشر:٧).

---

[1] عطيات، أحمد عيد، الطريق، - دراسة فكرية في كيفية العمل لتغيير واقع الأمة وإنهاضها، ١٩٨٤

ثانيا: تحريم الربا، فقد شن الإسلام حربا لا هوادة فيها على كافة المعاملات والقروض الربوية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ{٢٧٩} وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٢٨٠} (البقرة) .

والغرض الذي رمى إليه الإسلام من تحريم الربا هو إخضاع المعاملات الاقتصادية بكافة صورها إلى قاعدة ثابتة عادلة وهي "الغنم بالغرم"، أما أن يتمتع رأس المال بربح ثابت "الفائدة" فهذا لا يجوز لتحقق الظلم فيه، كما أن تحريم الربا في النظام الإسلامي يجعل العمل معادلا لرأس المال وفي حال انضمام العمل لرأس المال كما في عقود المضاربة يتمتعان بامتيازات متساوية في النتيجة ، بينما يتمتع المال في النظام الرأسمالي دائما بحصة الأسد ، وهذا الامتياز لرأس المال " الربا" هو في الواقع علة العلل في بلاء العالم ونكده .

ومن مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي لضمان المنافسة "مبدأ تكافؤ الفرص " ويتمثل هذا المبدأ من خلال جملة قواعد:

١- أنه حرم الربا لكي لا يثري أحد من غير عمل على حساب الأخر.

٢-أنه حرم الميسر بكل ألوانه لكي لا يثري أحد بطريقة الحظ .

٣-أنه حرم الوصية لوارث حتى لا يظفر بنصيبين من الإرث.

٤-أنه أباح الوصية لغير الوارث ليأخذ فرصة في المنافسة .

٥-أنه حرم الوصية بأكثر من الثلث لكي لا يصير المال إلى الموصى إليه .

٦-أنه جعل أنصبة الإرث متعددة ، ليشيع المال في أيدي متعددة .

٧-أنه فرض الزكاة للأصناف المحتاجة فلا يحرم أحد من فرصة المنافسة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (التوبة:٦٠).

وبينما تعتبر الحرية ركنا أساسيا في النظام الرأسمالي، إلا أن مفهومها يختلف في الاقتصاد الإسلامي ، فبينما هي مطلقة في الرأسمالية نجدها مقيدة بقيدين في النظام الإسلامي ، المبدأ الأخلاقي أولا، والمصلحة الاجتماعية ثانيا، ونظام الحسبة في الإسلام ومراقبة الأسواق زمن الخلفاء الراشدين خير دليل على ذلك.

فالنظام الإسلامي فيه من الرأسمالية الفردية خير ما لديها دون شرورها ، وفيه من الاشتراكية أحسن ما فيها دون عيوبها، فقد شيد أسسه على قواعد العدل الاجتماعي مع مسايرة الميول الفطرية لحب التملك مع تقييده بالعنصر الأخلاقي ومصلحة الجماعة ، ولكي لا يساء استعمال الحرية وضع مبدأ القيد والمراقبة من خلال قاعدة "مصلحة المجموع مقدمة على مصلحة الفرد".

وتطبيقا لهذا المبدأ وضع سلسلة من القواعد الفرعية، فقرر تحريم احتكار ما كان ضروريا لحياة الجماعات، ومنع كافة المعاملات الربوية ، ونص على مبدأ توازن العمل مع رأس المال بأن جعل العمل يقوم مقام رأس المال، بل إن الخسارة في شركات المضاربة تؤخذ من الربح أولا ، ثم من رأس المال، وإذا استغرقت الخسارة رأس المال فلا يلحق بالمضارب "العامل " شيء إلا في حال التقصير، وهو الأساس الذي قامت عليه البنوك الإسلامية.

وبناء على هذا الأساس التعاوني لا يقر الاقتصاد الإسلامي مبدأ التأميم المطلق الذي هو من حيث الواقع احتكار من قبل الدولة وإن كان يقر التأميم الجزئي، إذ إن للتأميم المطلق مساوئ كثيرة كسوء

الإدارة والترهل وبطء الإجراءات أو جمودها في كثير من الأحيان، لغياب الدافع لدى الإدارة والموظفين على حد سواء [1] .

وما من شك أن الترهل الإداري المرتبط بالسياسات الاقتصادية ساهم في تراجع الأمة في كافة المجالات الزراعية والصناعية والخدماتية ، ولن يجد المرء صعوبة في التعرف على كثير من الشواهد على الممارسات الإدارية الفاسدة، ومال المسلمون إلى الكسل والقعود، وعجزوا عن الاستجابة لتحديات الزمان والمكان، الأمر الذي قادهم إلى التخلف التقني والعلمي والتطبيقي، وساق وجودهم الحضاري إلى التآكل، وتحولوا بمرور الوقت إلى عالة تستجدي من الغرب المتفوق الذي استطاع أن يتوصل إلى أسرار الكون ونواميسه التي أودعها الله فيها، والتي جعلها– بعدله –عطاء لكل من يعرف كيف ينتزع السر ويعمل عقله ويده[2]، يقول سبحانه: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء:٢٠).

إن الواقع يؤكد أن البلاد الإسلامية تواجه اليوم مشاكل حقيقية في البناء الاقتصادي، خصوصا إذا نظرنا إلى أرقام متوسط الدخل القومي وعدد المشاريع التي أخفقت في هذه البلدان، ولا عذر للحكومات بالتذرع بضيق الميزانية وقلة الوسائل الفنية، فالتجربة اليابانية كانت تواجه مشاكل أكبر بكثير من المشاكل التي تواجه الدول الإسلامية، وعلى رأس تلك المشاكل قلة الموارد التي تتوفر بكثرة في العالم الإسلامي، لكن الإرادة اليابانية وحسن التخطيط والعزم على التنفيذ كان البداية الرئيسية في بناء اليابان الضخم .

[1] قطب، محمد، الاقتصاد الإسلامي بين الرأسمالية والشيوعية، دار الوفاء، ط١، ١٩٨٥بتلخيص وتصرف
[2] خليل، عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية ، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٨٥

وحقيقة الأمر أن الإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة، معرض للحرمان من الضمانات الاجتماعية، ونحن حينما نحاول تحديد مجتمع أفضل، فكأنما نحاول تحديد أسلوب حضارة من خلال تحقيق النهضة الاقتصادية وما يتبعها من نهضة اجتماعية وثقافية .[١]

وعلى مستوى العلوم والمعرفة، فقد تراجع اهتمام العلماء والمفكرين بالعلوم الطبيعية التجريبية والعلوم العملية المفيدة المثمرة، وعكفوا على دراسة الفلسفات الإلهية التي تلقوها من اليونان، واشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطا كبيرا من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم.[٢]

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاما شاملا وعلى وجه الخصوص الصناعات الحربية ، فالعالم الإسلامي اليوم على امتداده الجغرافي الواسع، لا تجد فيه دولة تقوم بتصنيع حربي حقيقي ، بل تعتمد في تسليح نفسها على أعدى أعدائها .

رابعا : الواقع السياسي :

هناك رابط قوي بين النظام السياسي لأية حضارة وبين عوامل قيامها أو سقوطها، إن الحضارة التي تكون مالكة لزمام الأمور، هي التي تُجري شؤون العالم تبعا لطرقها ومناهجه، وهي التي تعين وجهة العلوم والأفكار، وتحدد مجرى الفنون والآداب، وتضع أصول الأخلاق، وعلى قواعدها ينهض نظام المدينة بأسره [٣].

والمتأمل في الواقع السياسي للأمة يجد أن الاستبداد أبرز ما يميز واقعها ، حيث استبدل مبدأ الشورى بإقامة الملك الوراثي على رقع صغيرة من جسد الأمة المنهك ، وجاء التفرد بالسلطان على حساب مصالح الأمة الأساسية، وقد تبين لنا من خلال دراسة هذا الجانب في القصة القرآنية كيف أن

---

[1] بن نبي، مالك ، تأملات، دار الفكر دمشق، ط١٩٧٧/٣ص ١٦١،٥٧،٤٩ بتصرف
[2] المودودي، أبو الأعلى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار ابن كثير ط١٩٩٩،٦٦م،ص١٧٠
[3] المودودي- أبو الأعلى – واقع المسلمين وسبل النهوض بهم – مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ص ٣٣

الاستبداد والظلم وتسلم المترفين للسلطة يؤدي حتما إلى تفكك الأمة وانهيارها، ولم تكتف تلك القيادات بتعطيل الجهاد والتخاذل عن حماية الأمة، بل راحت تضع أيديها بأيدي أعدائها لتنال من خصومها من أبناء جلدتها، مما سمح لأعداء الأمة باحتلال أراضيها ونهب خيراتها، والقرآن الكريم لا يلقي المسؤولية على القيادات السياسية في تراجع الأمة، بل تراه يؤكد على مسؤولية الشعوب ودورها في التصدي للقيادة الظالمة: يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ (النساء:٩٧)، ويقول تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٢٥).

وكان من أخطر نتائج هذا الاستبداد السياسي الفصل بين القيادة الفكرية والسياسية، حيث أخذت القيادة المستبدة في محاصرة ومحاربة أصحاب الفكر المخالف، وحاولت إخضاعهم لتأييد مواقفها، وكان نصيب المخالفين السجن والتغييب والتصفية الجسدية، ما فتح الباب واسعا لعوامل التدهور الفكري حيث ساد التقليد والاتباع ، وتوقف الفقه والاجتهاد عن لعب دوره الحقيقي في الحياة الإسلامية، حيث انفصل الدين عن السياسة ، وأصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي والسياسة مطلقة اليد حرة التصرف، وزالت رقابة الدين والأخلاق عن رجال السياسة ليحل محله النفاق والتملق للوصول إلى المناصب السياسية، وهكذا أصيبت الأمة بشلل عام أدى إلى تراجعها الحضاري[1].

ولست ممن يميلون إلى تعليق ما آلت إليه أحوال الأمة على شماعة المؤامرات الخارجية والكيد للأمة، لأن الكيد والمكر وقتال المسلمين حقيقة قرآنية يؤكدها قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

[1] المودودي، أبو الأعلى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار ابن كثير ط١٩٩٩،٦٦م،١٦٨

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢١٧)، إن العيب كل العيب فينا أبناء الأمة بسبب تركنا لأسباب النهوض والارتقاء الذي أراده الله لنا .

ويرى المودودي أن السبيل لعودة النهضة لأمتنا يعتمد على أربعة أمور:

أولها: تطهير الأفكار والمعتقدات وتنقيتها من الشوائب الدخيلة على المجتمع.

ثانيا: إخراج الأفراد الصالحين والمصلحين من قوقعة الدعة إلى ميدان العمل في المجتمع.

ثالثا: الإصلاح المجتمعي والوظيفي، وذلك بعدم الاكتفاء بالوعظ والإرشاد، وإنما بوضع خطط وبرامج عملية مرتبطة ومنظمة لهذا الاصطلاح.

رابعا: إصلاح الحكم والإدارة، فإن التغييرات الكبرى في المجتمعات تحدث في وقت أقصر بتولي أهل الصلاح لزمام الحكم [1].

[1] المودودي، أبو الأعلى، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ ص ١٨٢-١٨٧ باختصار

المبحث الثالث

آثار وجود القيم وآثار غيابها

تقوم فلسفة الإسلام في نظرتها للكون والإنسان والعلاقة بينهما على مبدأ الاستخلاف، الذي أوكل الله تعالى للإنسان من خلاله عمارة الكون وإقامة الحق فيه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠)، ومبدأ الاستخلاف في الفكر الإسلامي يقوم على معادلة ثابتة تترابط فيها بصورة قوية عناصر الإيمان والعمل ومحاربة الفساد ونشر العدل وتلقي القيم والتشريعات عن الله خالق الإنسان والعالم بما يصلح شأنه، ومن تمام نعم الله تعالى على الإنسان، أن سخر له كل ما في الكون بما يتناسب والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان، يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣)، ومن ثم فالإنسان في المنظور الإسلامي هو العنصر الفاعل الذي سخرت له السماوات والأرض، وليس مسلوب الإرادة والقدرة كما هو الحال في العديد من الفلسفات الوضعية .

إن أي انحراف عن سنة الاستخلاف يخرج الحضارات الإنسانية عن خط السير الذي أراده الله لسعادة الإنسان، وبقدر درجة الانحراف عن القيم الربانية، تكون احتمالية التدهور أو السقوط الحضاري ومن ثم شقاء الإنسان، وعليه فإن التاريخ البشري من المنظور الإسلامي تحكمه سنن وقوانين كتلك التي تحكم المادة.

إن القرآن يكشف عن سنن الله، ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة، ويرسى القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير، وتتحرك الحياة في مجالها، ولكنها لا تخرج عن إطارها، والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة، يحسبون أن التطور والتغير، يتناول حقائق

الأشياء كما يتناول أشكالها، ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر، فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته! فأما نحن أصحاب العقيدة الإسلامية فنرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون، وفي كل جانب من جوانب الحياة.[1]

من هنا تعتبر القصة القرآنية ميدانا خصبا تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم حياة وسعادة البشر بدونها، وبإمكاننا من خلال هذه القوانين أن نحكم مسبقا على النتائج التي ستنتهي إليها أية حضارة في واقعنا المعاصر بما في ذلك حضارة الإسلام نفسه من خلال تفحص القيم المعنوية والمادية في هذه الحضارة أو تلك .

وفيما يلي بيان لأهم تلك السنن القوانين:

السُنَّة الأولى: إن الطغيان والترف والاستبداد من أهم معاول تدمير الحضارات ، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(الإسراء:١٦)، لقد انطبقت هذه السنة الثابتة على المفسدين في الحضارات السابقة ، وقد وصف القرآن ذلك بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ (الفجر)، إن هذه الحضارات تنكبت طريق الحق والعدل الذي أراده الله تعالى لسعادة الشعوب، ومكن الله لهم في الأرض، وآتاهم القوة المادية بكل أشكالها، لكنهم استخدموها في الطغيان

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، ٣١٨٨/٥.

والاستعباد و الفساد في أنفسهم وفي غيرهم، فعذبهم الله بسبب طغيانهم وفسادهم، وكل أمة تسير على نفس الطريق ستصل إلى النهاية المحتومة وهي الهلاك والدمار[1].

ويدخل في هذه السنة الربانية التهاون في تطبيق شرع الله، يقول تعالى عن أصحاب السبت: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٥)، إن الاستخفاف بأوامر الله تعالى والغفلة عنها ، يؤدي إلى انتهاك الحرمات وترك الواجبات، و يفضي إلى فقدان الصلة بشريعة الله ومنهجه ، فيعاقبهم الله بمقدار تفلتهم من أوامره، وهناك آيات أخرى قررت هذه الحقيقة: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة:١٤).

السُنَّة الثانية: للقيم المعنوية أثر كبير على القيم المادية، وهو ما بينه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم عندما ربطوا الإيمان بالله وطاعته واستغفاره وترك معصيته، بالرخاء المادي والوفر الاقتصادي والتمكين الحضاري ، فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿ ١٠ ﴾ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴿ ١١ ﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴿ ١٢ ﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴿ ١٣ ﴾ (نوح : ١٠)

وهود عليه السلام قال لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿ ٥٢ ﴾ (هود)، فهذه سنة ربانية من سنن الله تعالى، تحكم حياة البشرية، إن الناس إذا آمنوا بالله وعبدوه وأطاعوه وقاموا بالوظيفة التي خلقوا لها في عمارة الأرض، وابتعدوا عن الظلم بكل

---

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن،

أنواعه، وتابوا إلى الله واستغفروه، فإن الله تعالى ينعم عليهم بمزيد من النعم، ويزيدهم خيرا إلى خيرهم، أما أذا رفضوا الخضوع لله، وأفسدوا في الأرض، فإن الله يسلبهم هذه النعم، و يجعلها سببا في شقائهم[1].

تتأكد هذه الحقيقة في مرحلة حكم سليمان عليه السلام التي قال الله فيها :﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ وفرق بين "رُخاء " بالضم ، و "رَخاء" بالفتح ، فالرُخاء هي الريح الطيبة النافعة ، والرَخاء هو سعة العيش ويسره ، والثاني نتيجة الأول ، وهذا معناه أن فترة حكم سليمان لبني إسرائيل كانت فترة رخاء ورفاهية ،هذا الرخاء والخير ثمرة للحكم الإيماني الرباني عندما حكمهم سليمان بشرع الله [2]، فلما تخلوا عن شرع الله سلبهم الله هذا الرخاء وتلك النعم، يقول تعالى :﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (المائدة: ٦٦).

السُنَّة الثالثة: تقدم لنا القصة القرآنية على لسان موسى عليه السلام سنّة مطردة، تحكم حياة الناس أفرادا وجماعات: ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ٨١ ﴾ (يونس)،إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يؤيدهم ولا يوفقهم ، وإنما يبطل أعمالهم، ويجعلهم يخسرون ويفشلون، ثم يندمون ويتحسرون ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال:٣٦)، قال سيد قطب: "إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون ويسترهب القلوب ، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف وأنه محيق، وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفقئ كالفقاعة، وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد عميق الجذور... والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعا ذا ثقل "فوقع الحق " فثبت

[1] الخالدي، القصص القرآني٢٤١/١
[2] المرجع السابق ٢-٢٥٦

واستقر، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود، وغُلب الباطل والمبطلون، وذلوا وصغروا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون"[1].

السُنَّة الرابعة: من السنن الكونية التي تقررها القصة في القرآن الكريم ، أن الله تعالى مع الفئة المؤمنة إذا قامت بأداء واجبها الاستخلافي، وهي حقيقة إيمانية مأخوذة من قوله تعالى :﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾(النساء:١٤١)، لهذا طمأن الله نبيه موسى عليه السلام عندما أمره بدعوة فرعون، مع أن الأخير يطارده فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾(طه:٤٦)، وقوله: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء:١٥)، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :" لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، وأعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي"[2]، فالله مع جنوده أينما كانوا ، معهم بعلمه وسمعه وبصره، وهذه حقيقة إيمانية عقدية لها أثرها الإيجابي على المؤمنين، فتعطيهم مزيدا من القوة والشجاعة ، والعزة والكرامة، والثبات والمواجهة.

تؤكد هذه السنة المطردة أن الله ينجي المؤمنين ساعة نزول العذاب بالكافرين إن قاموا بواجبهم الدعوي، ففي قصة نوح عليه السلام ، عقب الله على نهاية قومه الكافرين بقوله:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴿ ٧٣ ﴾يونس، وفي قصة هود قال تعالى :﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴿ ٧٢ ﴾ (الأعراف)، وفي قصة صالح عليه السلام قال تعالى :﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ ١٨ ﴾(فصلت)، وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا ﴾(هود:٩٤)، وفي قصة موسى عليه السلام قال

[1] قطب، سيد، في ظلال القرآن، ١٣٥٠/٣
[2] تفسير ابن كثير ٢٠٩/٣

تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ ٦٥ ﴾ (الشعراء)، وفي قصة أصحاب السبت قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٥)

السُنَّة الخامسة: وهي مرتبطة بسابقتها ، وتنص على أن الغلبة في النهاية للمتقين: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٨)، إن موسى عليه السلام يقدم هذه الحقيقة الإيمانية، بأن الله سيورثهم ملك الأرض، وهذا معناه أن مرحلة العذاب والاضطهاد ستنتهي ، وستعقبها مرحلة الإنعام والرخاء من الله، حيث سيملكهم الأرض وسيورثها لهم، إنه قانون ينسجم مع مبدأ الخلافة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥)، فالصراع مستمر بين الحق والباطل، وهذا الصراع له جولات وجولات، لكن العبرة بالنتائج والخواتيم ، فالغلبة في النهاية للمؤمنين، لكن هذا النصر والتمكين بحاجة إلى الجهد والمواجهة والثبات والتضحية، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ الرعد ١١

السُنَّة السادسة: سنة التدافع، يعقب سبحانه وتعالى على قصة طالوت وجالوت بقول: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥١) إنها سنة التدافع بين الناس ، والتي ينتج عنها ذهاب الضعيف، وبقاء القوي، يقول الإمام محمد رشيد رضا في معنى الآية: "لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين، وإحسانه إلى الناس أجمعين، أن أذن لأهل دينه الحق ، المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من

الكفرة والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض"[1].

السُنَّة السابعة: تؤكد على أن الجزاء من جنس العمل، فبقدر بعد المجتمعات عن منهج الله تعالى ودورها الاستخلافي، يتناسب الجزاء مع ذلك الانحراف، والحكمة خلف ذلك أن الله يخوف الظالمين من مغبة الاستمرار في ظلمهم واستبدادهم عسى أن يكون هذا التخويف رادعا وزاجرا لهم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿ ١٣٠ ﴾ (الأعراف)، لقد ابتلاهم الله لتستيقظ قلوبهم ويعرفوا ربهم ، ويدركوا أنه لا نجاة لهم إلا بالإيمان بالله ، لكن إذا كان أفراد تلك المجتمعات من ذوي القلوب المقفلة التي لا سبيل لأن يدخل الإيمان ضمائرها ، فإن حكمة الله تقتضي أن يكون علاجها الاستئصال، "من هنا فإن الأشكال أو الصيغ التي يقدمها القرآن للسقوط الحضاري لا تجيء إلا بعد أن تكون تلك المجتمعات قد استنفدت مبررات استمرارها يقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام:٦٥)[2] .

فالقاعدة القرآنية تؤكد بأن الله لا يصيب أمة ما بأي نوع من أنواع الدمار والخراب، إلا إذا تركت منهج الخير والصلاح وأخذت تسلك مناهج الشر والفساد ، وبذلك تكون قد ظلمت نفسها بنفسها، والله تعالى لم يذكر أمة في القرآن أصابها الهلاك والعذاب ،إلا ذكر بجانب ذلك جريمتها أيضا إثباتا لتلك القاعدة.[3]

إن هذه القوانين والسنن ترتبط أيما ارتباط بالقيم المعنوية والمادية على حد سواء، وبقدر وجودها أو غيابها تكون سعادة المجتمعات أو شقاؤها.

---

1 رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار، بيروت، دار الكتب العلمية/٢٠٠٥-ج٢ص٤٩١
2 خليل، عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية ، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م ص١٥٢
3 المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية، ١٩٧٩ص٢٢١

خاتمة البحث

أ-النتائج

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله إلى الناس أجمعين وعلى آله وصحبه .

وبعد، فقد بذلت كل جهد مستطاع في هذه الرسالة كي أبرز أهم القيم الحضارية التي تميز الجماعات الإنسانية المؤمنة منها والكافرة من خلال التفكر والنظر في آيات القصة القرآنية، وبعد البحث ظهرت لي مجموعة من النتائج أعرضها كلآتي :

أولا : فيما يخص المجتمعات المؤمنة عبر تاريخها الممتد إلى آدم عليه السلام تعتبر القيم الثقافية أهم ما يميز تلك الجماعات والحضارات، حيث تجلت أهمية هذه القيم من خلال الدور الذي لعبته العقيدة و التي تميزت بأمور أهمها:

١-قيمة التوحيد التي كانت الحضارة الإسلامية بكل تنوعاتها انعكاسا نابعا منها .

٢-قيمة الإيمان بالله والملائكة والرسالات السماوية والقدر واليوم الآخر ، هذه القيمة التي ساهمت في حالة صفائها بدفع عجلة الحضارة إلى التألق والتفوق والسبق .

٣-قيمة العلم بقسميه الديني والدنيوي أبرز ما يميز تلك الحضارة حيث استطاعت أن توفق بين ثنائية علم الغيب والشهادة، وثنائية علم الدنيا والآخرة بانسجام عز له نظير.

٤- تعد العبادة بمفهومها الشامل المرتبط بالإيمان من أقوى أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية، ذلك أن كل ما يصدر عن المؤمن من أقوال وأفعال يدخل في دائرة العبادة .

ثانيا: ترتبط القيم الاجتماعية في تلك الحضارات برباط العقيدة فتمتاز تلك القيم بما يلي:

١- المنظومة الأخلاقية كالبر والكرم والصدق والعفة ثابتة لا تتغير ، فهي بعيدة كل البعد عن صفة النفعية ، لأنها تنزل منزلة الواجبات الدينية التي يكافأ عليها الإنسان المؤمن.

٢- تتميز تلك المجتمعات بالروابط الأسرية القوية باعتبار الأسرة المكان الطبيعي الذي يرفد المجتمع بالأشخاص الصالحين، وحظيت المرأة في المجتمعات الإيمانية بأسمى معاني التكريم والتبجيل، فهي الأم والابنة والأخت والزوجة وصانعة الرجال .

٣- تعتبر العدالة والمساواة والتكافل الاجتماعي قيما راسخة تكفل للفرد المسلم حياة العزة والرفعة، وللمحافظة على هذه القيم كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب مقدس، يوسع دائرة الخير ، ويضيق دائرة الشر .

ثالثا : القيم المادية في المجتمعات الإيمانية وجدت لتخدم الإنسان ، فهو المحور الذي تدور حوله كل الجهود الاقتصادية والسياسية ، ومن أجمل ما جادت به تلك الحضارات أنها تبنت سياسات ترفع الظلم والقهر والعدوان عن الجنس البشري على اختلاف عقائده وأصوله ومنابته.

١- فالعمل واستثمار الموارد وإدارتها قيم أصيلة في تلك المجتمعات ، ترتبط بمفهوم الخلافة المنبثق عن العقيدة، تلك العقيدة التي انعكس أثرها حتى على القيم المعمارية ، فامتازت تلك الحضارات ببناء المساجد والمحاريب وكل ما ينفع الناس.

٢- تمتاز القيم السياسية أيضا بالهدف الأصيل لتلك المجتمعات ،فكان للقيادة الدور البارز في الازدهار الحضاري من خلال مجموعة مواصفات يجب أن تتوفر في الحاكم .

٣- إن تطبيق الشريعة وإقامة العدل بين الرعية ومحاربة الفساد ومشاورة أهل الخبرة والرأي ، تعد من أركان النظام السياسي الإسلامي .

٤- وأبرز الأهداف التي تصبو إليها تلك الحضارات على مستوى القيادات والأفراد هو نشر مبدأ التوحيد والقيم المتولدة منه باعتباره أسمى القيم الإيمانية .

في المقابل هناك حضارات ضلت الطريق ، وتوهمت أنها تسلك مسار الرشد ، فرفضت الدعوات الجديدة ، وحاربت الحق وخاضت معه أشرس المعارك، وكانت ثقافات تلك الشعوب تقوم في مجملها على الخرافات والشركيات والأساطير ، وتميزت تلك العقائد بأمور :

أولا: على المستوى الفكري والثقافي، كان أبرز ما يميز تلك العقائد:

١- أنها لا تقوم في واقع الأمر إلا على حب الشهوات المغلفة بالطقوس الدينية، تلك الطقوس النابعة من اتباع الهوى والجهل بالخالق والإيمان بالمحسوس وإنكار ما وراءه ، فكان لا بد لتلك النفسيات المريضة بداء الكبر، والمستفيدة من الامتيازات الدينية أن تدافع عن مصالحها.

٢- اتخذت أساليبهم في مواجهة أهل الحق عدة أشكال ، كان من أشدها الحروب الانتقامية ، والاغتيالات الفردية ، وتشويه الحقائق.

٣- القيم العلمية في تلك المجتمعات تقتصر على العلوم الدنيوية ، وليس من العجيب انتشار العلوم الضارة في مجتمعات أبعد ما تهدف إليه تحقيق المتعة والاستغراق في الشهوات.

ثانيا: على الصعيد الاجتماعي:

١- اتسمت تلك الحضارات بالفساد الأخلاقي السلوكي كالكذب والعقوق والنفاق، والأمراض النفسية كالحقد والحسد والأنانية ، وإن كان ثمة أخلاق فالغاية منها النفع المادي وقضاء المصالح ، فتلك هي الثمرة الطبيعية للثقافات والعقائد الشركية .

٢- من سمات تلك المجتمعات ظهور التفكك الأسري، ليحل مكان الأسرة قضاء الوطر من خلال الزنى والشذوذ الجنسي .

٣- يعد الترف معلما بارزا يميز الطبقات الغنية في تلك المجتمعات ، تلك الطبقات التي وصلت إلى الثراء الفاحش من خلال الربا والغش وكل المعاملات المحرمة التي تضمن الربح الأكيد دون بذل أقل مجهود، فتمتص دماء المحتاجين وتستغل حاجتهم.

٤- إن الظلم الاجتماعي والفساد القضائي من أبرز معاول الهدم الحضاري الذي قاد تلك الحضارات إلى نهايتها المشؤومة .

٥- يعد الإعلام وسيلة التضليل الأكثر نجاحا في تلهية تلك الشعوب عن قضاياها الحقيقية ، والمسكّن المضمون لتخدير انتفاضتها على الظلم والاستبداد .

ثالثا: تتصف القيم المادية في تلك المجتمعات بالطابع العام للثقافات والعقائد السائدة فيها ، ويظهر ذلك جليا من خلال :

١- يعتبر جمع المال غاية في حد ذاته وليس وسيلة لتسهيل سبل العيش، ومن هذا المنطلق أصبح اكتناز الأموال وادخارها سمة الأثرياء، وبالتالي أصبحت تلك الغاية تبرر وسيلة اكتسابه، فانتشر الربا والغش وتطفيف الميزان وقطع الأرحام... إلخ.

٢- تأثرت القيم المعمارية في تلك الحضارات بالقيم الاجتماعية والتي تتسم بترف النخبة من أبنائها، فشيدت القصور الفارهة دون حاجة حقيقية لها إلا حاجة التباهي والتفاخر.

٣- كان الاستبداد والقمع وتفريق الناس إلى أحزاب ليسهل اقتيادهم أبرز ملامح السياسات الداخلية. وعلى صعيد السياسات الخارجية، كان البطش والتجبر بالمستضعفين من أبناء الدول الأخرى هو السمة البارزة لثقافة تلك الشعوب .

إن مقارنة سريعة بين المجتمعات والحضارات الشركية البائدة، وحضارات اليوم الكافرة ، تكشف لنا بوضوح أن حضارات اليوم تسير على نفس الطريق الذي سارت عليه تلك الحضارات ، وعليه يمكن التنبؤ بمصيرها المحتوم مع ملاحظة أن عمر الحضارات يتناسب مع مدى درجة الانحراف في الميادين كافة، في المقابل فإن نظرة سريعة على واقع الأمة الإسلامية يكشف لنا الأسباب الكامنة وراء ضمورها الحضاري بسبب ابتعادها عن القيم الأصيلة للمجتمعات الإيمانية .

ب-التوصيات

١- تكثيف جهود العلماء والدعاة والمصلحين لنشر الثقافة والقيم الإسلامية على الجبهتين الداخلية والخارجية .

٢- تفعيل الوسائل الإعلامية كالإنترنت والفضائيات والصحف والمجلات لهذه الغاية .

٣- التفكير في حلول واقعية للمشكلات الجسيمة التي تتهدد الحضارة الإسلامية.

٤- العمل على التقارب بين الجماعات الإسلامية الحريصة على النهضة، من خلال إبراز القواسم المشتركة .

٥- الاتصال الجاد مع الأثرياء من أبناء الأمة وبيان حجم الدور الذي من الممكن أن يمارسوه في خدمة أمتهم.

٦- توعية الشباب المسلم من الأخطار الثقافية المتربصة بقيمهم من خلال مؤسسات التعليم.

فهرس السور و الآيات

حسب ترتيب ورود آيات كل سورة على حدة في البحث

سورة الأنعام

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ...إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}	(٧٤-٨١)	٧٦
قُلْ {هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ... }	(٦٥)	٢١٤

سورة الأنفال

{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .... }	(٦٠)	٨٨
{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ...يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}	(٣٩)	١١٩،١٥٦
{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ... }	(٢٥)	١٦٢،٢٠٦
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ ..يُحْشَرُونَ }	(٣٦)	٢١١

سورة التوبة

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ...}	(٢٣)	٥٦
{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ .....}	(٦)	٧٥
قُلْ {إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ..الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }	(٢٤)	٩٥
{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ .. الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}	(١١١)	١١١
{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ...}	(٣١)	١٢٩
{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ... }	(٣٠)	١٢٩،١٣٠
{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ...}	(٧٤)	١٨٣
{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ..وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ }	(٨)	١٨٣
{ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ... }	(٣٤)	٢٠١
{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ .. }	(٦٠)	٢٠٣

سورة يونس

{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ ...}	(٨٤)	٣٥
{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا ...}	(٨٧)	٤٠
{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا...وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}	(٧٨)	١٣٩
{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ...الْعَذَابَ الأَلِيمَ}	(٨٨)	١٦٦
{ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ }	(٨٣)	١٧٩
{فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ}	(٧٣)	٢١٢

سورة هود

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}	(٧٥)	٣٩
{وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى .بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}	(٦٩)	٤٩

{اتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ... }	(٧٨)	٥٠
ونادى نوحُ ربَّهُ فقالَ رَبِّ إنِ ابْني منْ أهْلِي...}	(٤٥-٤٦)	٥٦
{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ...}	(٨٨)	٧٧
{وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ...مِّنكُم بِبَعِيدٍ}	(٨٩)	٧٧
إن{نقولُ إلا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ... مِّمَّا تُشْرِكُونَ}	(٥٤)	١٢٣
قالوا{ يَا صَالِحُ قد كُنتَ فِينا مَرْجُوّاً قَبْلَ .إلَيْهِ مُرِيبٍ}	(٦٢)	١٢٤،١٤٠
قالوا{ يَا شعيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا ... }	(٨٧)	١٢٧،١٧٢
فقال{ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ...نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }	(٢٧)	١٣٨
قالوا{ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ...بِعَزِيزٍ }	(٩١)	١٣٨
قال{ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ...عَذَابٌ قَرِيبٌ}	(٦٤)	١٤١
فلو{لاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ...}	(١١٦)	١٥٨
ويا{قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ .مُجْرِمِينَ}	(٥٢)	١٧٤،٢١٠
ول{مَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ ... }	(٩٤)	٢١٢

سورة يوسف

يا{صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ .... }	(٣٩)	٢٣،١٢٦
{مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن ...يُؤْمِنُونَ}	(١١١)	١٩
{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي ....مَا لاَ تَعْلَمُونَ}	(٨٦)	٢٥
{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ....الْمُحْسِنِينَ}	(٢١-٢٢)	٣١
و{جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ ...}	(١٨)	٣٦،١٥٠
{مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ...}	(٢٣)	٥١
قال{رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي ... }	(٣٣)	٥١
{هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ..الْمُحْسِنِينَ}	(٨٩-٩٠)	٣٧
{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ....}	(١٠١)	٤٤
يُو{سُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ }	(٤٦)	٥٢
{ ائتوني به أستخلصه لنفسي }	(٥٤)	٥٣
{إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ....}	(٧٧)	٥٣
قال{ لاَ تَثْرَيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ ا...}	(٩٢)	٥٥
س{وْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ ... }	(٩٨)	٥٥
{فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ ...}	(٣٢)	١٤٩

سورة مريم

سورة طه

وما أسألكم عليه من أجر إن أجري...}	(١٠٩)	٥١
{ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين}	(١١٦)	١٣٨
قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم ...}	(٤٩)	١٤٢
ولا تطيعوا أمر المسرفين ..ولا يصلحون}	(١٥١-١٥٢)	١٦١
{فجمع السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ ...كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}	(٣٨-٤٠)	١٦٤
فأخرجناهم مِّن جَنَّاتٍ .... وَمَقَامٍ كَرِيمٍ}	(٥٧-٥٨)	١٦٧
{وتنحتون منَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ }	(١٤٩)	١٧٣
{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ...طَلْعُهَا هَضِيمٌ}	(١٤٦-١٤٨)	١٧٤
{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ... تَخْلُدُونَ}	(١٢٨-١٢٩)	١٧٤
قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون }	(٢٧)	١٧٦
قال أولو جئتك بشيء ..بيضاء لِلنَّاظِرِينَ}	(٣٠-٣٣)	١٧٧
قال للملإ حوله إن ..بسحره فماذا تأمرون}	(٣٤-٣٥)	١٧٧
{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}	(١٣٠)	١٧٥،١٨١
قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون }	(١٥)	٢١٢
وأنجينا موسى ومن معه أجمعين}	(٦٥)	٢١٣
سورة النمل		
ولقد آتينا داود وسليمان علماً ..المؤمنين }	(١٥)	٣٢،٨٥
فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني ...}	(١٩)	٣٩
وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة ...تفرحون}	(٣٥-٣٦)	٥١
{ قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لُجَّةً ...}	(٤٤)	٩٦
قال عفريت من الجن أنا آتيك بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ ...}	(٣٩)	١٠٠،١٠٢
{وتفقد الطَّيْرَ فَقَالَ مَا ...لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}	(٢٠-٢١)	١١٦
{ فمكث غير بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ ...}	(٢٢)	١١٦
{إني وجدت امرأة تملكهم وَأُوتِيَتْ ...العرش الْعَظِيمِ}	(٢٣-٢٦)	١١٦
{ اذْهَب بِّكِتَابِي ...عليّ وأتوني مسلمين}	(٢٨-٣١)	١١٨
ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بجنود لَّا قِبَلَ لَهُم ...}	(٣٧)	١١٩
{قال يا أَيُّهَا الملأ أيكم يأتيني بعرشها ... غَنِيٌّ كَرِيمٌ}	(٣٨-٤٠)	١٠٠
وكان في المدينة تسعة رهط ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}	(٤٨-٤٩)	١٤١،١٦١

سورة القصص

{ولمَا بَلغَ أَشدَهُ واسْتوَى آتيْنَاهُ حُكْماً ...}	(١٤)	٣١
{وقالَ الذِّينَ أُوتوُا العْلِمْ ويْلكَمْ ثوَابُ ...}	(٨٠)	٣٣
{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ...}	(٢٤)	٤٥
فجاءتهُ {إِحْدَاهُما تمْشي علىَ اسْتحْيَاء ...}	(٢٥)	٤٥،٤٨،٦٤
ودخل {الَمديْنَة عَلىَ حين غِفلةٍ مِّنْ أهْلها فوَجَدَ ...}	(١٥)	٥٤
ولمَا {وَردَ ماء مدْيَنَ وجَدَ علَيْهِ ...}	(٢٣)	٥٤
قال {إنيِ أُريدُ أنْ أنكُحِكَ إحْدَى .. مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}	(٢٧-٢٨)	٥٧
وأوحيْنَا {إَلِىَ أم مُوسىَ أنْ أرْضِعِيهِ}	(٧)	٦٤
إن {خيْرَ مَنَ اسْتأجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمَينُ}	(٢٦)	٩٠،١٠١
وقال {فَرْعِونُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا علِمْتُ لَكُم ...}	(٣٨)	١٢٨،١٤٠،١٦٠
إن {قَارُون كَانَ مَن قومِ مُوسَى فَبَغَى ...الْكَافرُونَ}	(٧٦-٨٢)	٩٢،١٦٧
إن {فرْعونَ علاَ في الأرْضِ ... مِنَ الْمُفْسِدِينَ}	(٤)	١٧٩
واستكبر {هُو وجُنُودهُ في الأرْضِ ...}	(٣٩)	١٨٠

سورة العنكبوت

وإبراهيم {إذ قَالَ لقومِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ ...}	(١٦)	٢٢،٣٨
{فآمَنَ لهَُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ ...}	(٢٦)	٢٣
{إنا مُنزلِوُن عَلىَ أهْلِ هذهِ الْقرْيَةِ ...}	(٣٤)	١٠٧
{أئنِكُّمْ لتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ...}	(٢٩)	١٤٨

سورة الروم

ومن {آياته أنْ خَلَقَ لكَمُ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ..}	(٢١)	٦٣
{ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت...}	(٤١)	٨٢
{يعلمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ ...}	(٧)	١٤٢

سورة لقمان

{وإذ قَالَ لقمُانُ لابْنهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ...}	(١٣-١٩)	٦٠

سورة سبأ

فلما {قَضَيْنا عَليْهَ الموْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى ...}	(١٤)	٢٩
{يعْملُونَ لهَُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ...}	(١٣)	٧٢،٨٥،٩٥
أن {اعْملْ سابِغَاتٍ وقدرّ في السَّرْدِ ...}	(١١)	٨١،٨٤

فهرس الأحاديث

"أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن قوله ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ . . ﴾..	١٢٨
"لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله..	١٣٤

قائمة المصادر والمراجع

١- أباظة، فاروق عثمان، تاريخ الشرق الأقصى، دار المعرفة ، ١٩٩٦م

٢- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة ، دار الفجر –ط١/٢٠٠٤

٣- ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين ،دار الكتب الحديثة، بدون ط

٤- ابن تيمية، تقي الدين ، النبوات، المكتبة العصرية بيروت، ط١

٥- ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، بيروت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

٦- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ، تونس، دار سحنون

٧- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٤م

٨- ابن قيم الجوزية ، إغاثة اللهفان ، تحقيق: محمد الفقي، بيروت، دار المعرفة

٩- ابن قيم الجوزية ،هداية الحيارى، تحقيق: أحمد الرفاعي، دار قتيبة، بيروت،ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م

١٠- ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الرياض، دار السلام، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م

١١- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ، دار صادر، بيروت

١٢- أبو زهرة، محمد، العلاقات الدولية في الإسلام ،القاهرة، الدار القومية،١٩٦٤م

١٣- أبو سكينة، نادية، العلاقات والمشكلات الأسرية ، دار الفكر، ط١/ ٢٠١١

١٤- أبو عيد، عارف خليل، وظيفة الحاكم في الدولة الإسلامية ،الكويت، دار الأرقم ، ط١٩٨٥،١م

١٥- أبو عيد، عارف خليل، نظام الحكم في الإسلام ،الأردن، دار النفائس، ط١

١٦- أحمد، لطفي بركات، القيم والتربية ، الرياض، دار المريخ

١٧- الإسلام والحضارة – الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

١٨- إسماعيل ، شعبان محمود ، العبادة في الإسلام، القاهرة، دار الشباب للطباعة، ط١

١٩- الإبراهيم، محمد عقله، نظام الأسرة في الإسلام ، الأردن، مكتبة الرسالة، ط٢، ١٩٨٩م

٢٠- الأشقر، عمر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة ،دار النفائس

٢١- الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، حققه: مصطفى العدوي، مكتبة فياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

٢٢- الألوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٢٣- الأنصاري، عبد المجيد، الشورى وأثرها في الديموقراطية ،بيروت، المكتبة العصرية

٢٤- ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت دار الأندلس،١٩٩٧

٢٥- بن نبي، مالك، تأملات، دمشق دار الفكر، ط٣/١٩٧٧

٢٦- بن نبي ، مالك ، شروط النهضة ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر دمشق،ط٦/٢٠٠٦،

٢٧- البخاري، محمد بن إسماعيل ،صحيح البخاري ،دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١/٢٠٠١

٢٨- البهي، محمد، تهافت الفكر المادي التاريخي، مكتبة وهبة، ط٣/ ١٩٧٥

٢٩- الترمذي، محمد بن عيسى، جامع الترمذي، دار الفيحاء،دمشق،ط١/١٩٩٩

٣٠- حاطوم، نور الدين، تاريخ الحضارة، مطبعة جامعة دمشق،١٩٦٤م

٣١- الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م

٣٢- الحنفي، علي بن أبي العز، شرح الطحاوية، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة دار المنارط١/٢٠٠٤

٣٣- الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، دمشق، دار القلم، ط١٩٨٩،١

٣٤- الخالدي، صلاح، القصص القرآني ، دمشق، دار القلم، ط١

٣٥- الخضر، زكريا، القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان، بحث محكم ، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية

٣٦- الخطيب ، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، بيروت، دار المعرفة ، ط٢ ،١٩٧٥

٣٧- خليل، عماد الدين، ابن خلدون إسلاميا، بيروت، المكتب الإسلامي ،ط٢، ١٩٨٥م

٣٨- خليل، عماد الدين، مدخل إلى الحضارة الإسلامية ، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م

٣٩- خليل، عماد الدين، الوسيط في الحضارة الإسلامية، الأردن، دار حامد،ط١، ٢٠٠٤م

٤٠- دراز، محمد عبدالله، الدين، الكويت، دار القلم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٤١- الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، مصر، المكتبة التوفيقية

٤٢- الراعي، توفيق، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، دار الوفاء

٤٣- رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار، بيروت، دار الكتب العلمية١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٤٤- الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام ،بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م

٤٥- زريق، قسطنطين، معركة الحضارة، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٣م

٤٦- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

٤٧- زيدان، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة ،ط٢٠٠٦،١م

٤٨- السجستاني، سليمان بن الأشعث، السنن، دار السلام،الرياض،ط١/١٩٩٩

٤٩- سرحان ، محمد أحمد، الاستدلال القرآني وخصائصه ، دار الحسين الإسلامية، ط١، ١٩٩٢م

٥٠- سرحان، محمد أحمد، نظرات في الأسلوب القرآني، ط١، ١٩٩٧م

٥١- سفر محمود محمد، دراسة في البناء الحضاري، المحاكم الشرعية بدولة قطر، ط١

٥٢- سليمان، صباح، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ط٢٠١٠،١م

٥٣- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية

٥٤- السويدان، طارق، صناعة الثقافة ، مؤسسة الإبداع الفكري للنشر، ط١، ٢٠٠٧

٥٥- شيخ أمين ، بكري، التعبير الفني في القرآن ، بيروت، دار الشرق، ط١٩٧٦،٢

٥٦- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، لبنان، دار الفكر، ٢٠٠٥م

٥٧- طنطاوي، محمد سيد، القصة في القرآن الكريم ،نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣

٥٨- عباس، فضل حسن، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، دار الفرقان الأردن، ط١/١٩٨٧

٥٩- عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، دار النفائس، ط٢/٢٠٠٧

٦٠- العدوي، محمد خير، القصة في القران، دار العدوي

٦١- عطيات، أحمد عيد، الطريق -دراسة فكرية في كيفية العمل لتغيير واقع الأمة وإنهاضها، ١٩٨٧

٦٢- عمارة، محمد، الإسلام السياسي والتعددية السياسية من منظور إسلامي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ٢٠٠٣

٦٣- عمارة، محمد، الإسلام وحقوق الإنسان ، ١٩٨٥م

٦٤- عميرة ، د عبد الرحمن ، شرح العقيدة الطحاوية ، دار المنار ط١/٢٠٠٤

٦٥- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م

٦٦- غنيم، حامد، مراكز الحضارة الإسلامية

٦٧- فريد، أحمد، تيسير المنان في قصص القرآن ، دار ابن الجوزي، ط١٩٩٠،١

٦٨- الفوزان ، د صالح بن فوزان ، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ،دار الصحابة ،

٦٩- قاسم، محيي الدين، السياسة الشرعية ومفهوم السياسة الحديثة، المعهد العالي للفكر الإسلامي ،القاهرة ط١٩٩٧.

٧٠- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار المعارف، ١٩٦٣م

٧١- قطب، سيد، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، دار الشروق، ط١٩٨٢،٨م

٧٢- قطب، سيد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م

٧٣- قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين ،دار الشرق، ١٩٨٣

٧٤- القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري، الكتبة التوقيفية، مصر

٧٥- القيسي، مروان ،التحفة السنية في تهذيب شرح العقيدة الطحاوية ، الأردن، دائرة العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة اليرموك، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

٧٦- الكبيسي، أحمد، من أنباء القرى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٧م

٧٧- الكفوي، أيوب، الكليات، تحقيق: د. عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م

٧٨- لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ،ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار احياء التراث، ط٣

٧٩- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة

٨٠- المخزومي ، السيد أحمد، الزكاة وتنمية المجتمع ، دعوة الحق ،كتاب شهري محكم ،رابطة العالم الإسلامي ،العدد ١٤١٩/١٨٧هـ

٨١- المصري، رأفت، شخصية الحاكم المسلم في ضوء القصص القرآني، دار الفاروق عمان،ط٢٠٠٨/١

٨٢- مرطان، سعيد، مدخل للفكر الاقتصادي في الإسلام ، مؤسسة الرسالة ،ط١ ،٢٠٠٩م

٨٣- مطر، أميرة حلمي، عن القيم والعقل، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٨٤- المودودي، أبو الأعلى، الإسلام والجاهلية ،الدار السعودية

٨٥- المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة الغربية ١٩٧٩

٨٦- المودودي، أبو الأعلى، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، مؤسسة الرسالة ١٩٧٥

٨٧- النجار، عبد المجيد ، مشاريع الإشهاد الحضاري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١

٨٨- الندوي، أبو الحسن علي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار ابن كثير دمشق، ط١/١٩٩٩

٨٩- النسائي، أحمد بن شعيب، السنن، دار السلام، الرياض،ط١/١٩٩٩

٩٠- نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان ، ط١/١٩٨٩

٩١- النووي، يحيى بن شرف، الأذكار ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

٩٢- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية بيروت، ط١/٢٠٠١

٩٣- هاكس، قاموس الكتاب المقدس ،بيروت، ١٩٢٨م

٩٤- الوادي، محمود، وآخرون، الاقتصاد الإسلامي، دار المسيرة ، ط١،٢٠١٠م

٩٥- ول دي ورنت، قصة الحضارة، ترجمة د زكي نجيب ، دمشق، دار العراب، ط١،٢٠١٠

٩٦- ياسين، محمد نعيم، الإيمان، الأردن، دار الفرقان